

جولة في تاريخ بيت لحم

من اقدم الازمنة حتى اليوم

الجزء الاول



تأليف

حنا عبدالله جثمان

« جميع الحقوق محفوظة للمؤلف »

سنة ١٩٨٤

مطبعة بطريركية الروم الارثوذكس - القدس

جولة في تاريخ بيت لحم

من اقدم الازمنة حتى اليوم

الجزء الاول

تأليف

حنّا عبدالله جقمان

« جميع الحقوق محفوظة للمؤلف »

سنة ١٩٨٤

« مطبعة بطريركية الروم الارثوذكس - القدس »

الاهـبـداء

**اهدي كتابي هذا الى الجيل الصاعد من بنات وابناء بلدي ، فهم
نواة وعلواد مجتمعنا في المستقبل القريب .**

**فمن هذا الجيل الصاعد سيكون قادتنا وحملة مشاعل حضارتنا ، وفي
طليعتهم القاضي والطبيب والمهندس والمحامي والصحافي والاداري وصاحب
الاموال الحرة ومؤسس المشاريع التجارية والعمرانية . وهم قبل كل شيء امهات
واباء اجيال المستقبل .**

**رغم تهافتهم الكبير على التزود من مآهل العلم والمعرفة ، عليهم ان
يبدلوا كل جهد مستطاع ليوسعوا معلوماتهم ومعرفتهم بتاريخ بلادهم
واجدادهم ليقتدوا بهم في كفاحهم وجهادهم لبناء بلدهم ، فيكونوا خير خلف لخير
سلف .**

**فالى الجيل الصاعد من بنات وابناء بلدي ، اهدي هذا الكتاب
المواضع العله يكون فاتحة الطريق امامهم للبحث والتنقيب عن اخبار السلف
الطيبين الابرار .**

بيت لحم في ١٠-١-١٩٨٤

حنسـا عبد الله جـمـان

المقدمة

ان تاريخ بيت لحم مادة غزيرة جدا لكثرة ما كتب عنها الحجاج والزوار على اختلاف شعوبهم ولغاتهم ، منذ العهد البيزنطي حتى يومنا هذا أي خلال عشرين قرنا . فيجدها مكتوبة بكل اللغات الحية ، بعضها شملت المؤلفات والكتب العديدة ، ولكن معظمها لا يزال محبوسا في الاف المخطوطات المكسدة الخاصة والعامة ومختلف الاديرة في الشرق وفي أوروبا وغيرها في انتظار من ينقب عنها ويخرجها للنور .

ومما يؤسف له أشد الاسف ان اخبار وتاريخ بيت لحم باللغة العربية لا يجد لها الباحث أو الطالب الا القليل جدا من الاخبار المبعثرة هنا وهناك ، لا تعطي فائدة تذكر وعليه فاني منذ سنوات وأنا أحاول أن أجد للمواطن والقارئ العربي مجملا مفيدا يغطي نوعا ما هذا النقص في تاريخ بيت لحم ، فوجدت الكثير من الصعوبات وعدم وجود مراجع تذكر باللغة العربية .

سمعت أن الكثيرين من أبائنا وأجدادنا كان قد سجل بخطه سجلا خاصا له يدون فيه ما يعرف أو سمع من أجداده أو قرأ في بعض الكتب الأجنبية من اخبار بيت لحم . فكانت مخطوطات ثمينة جدا ولكن للأسف الشديد ان مثل هذه المخطوطات انتقلت بعد وفاة كاتبها الى ابنائه ومنهم الى أحفاده ، وأخيرا كسان هناك طريقتان لمثل هذه المخطوطات : الأولى ان الأحفاد وخاصة زوجاتهم اعتبروا هذه التسجيلات قمامة فالحقيناها مع ما وجدناه معها من المجلات القديمة التي عامل التنظيفات ، لان وجودها في البيت يحول دون جماله وترتيبه على الطريقة العصرية ، وخصوصا عندما انتقل بعض الأحفاد الى بيوت جديدة بنوها أو استأجروها لسكناهم . أما الطريقة الثانية لهذه المخطوطات فان بعض الابناء المهاجرين الى أميركا للعمل والاقامة هناك أخذوها معهم وهناك لاقت من أولادهم ما لاقتها مثيلاتها من المخطوطات من الذين بقوا في بيت لحم . وهكذا فقدت كنوز ثمينة فيها الكثير جدا من اخبار بيت لحم وأخبار آبائنا وما مر عليهم من الحوادث .

يستطيع الباحث في تاريخ بيت لحم ان يؤلف عشرات المجلدات اذا كان يتقن بعض اللغات الأجنبية مثل الفرنسية والإيطالية والانكليزية والالمانية والاسبانية وغيرها ، فهناك الاف الكتب والمخطوطات التي تتحدث عن كل صغيرة وكبيرة في تاريخ بيت لحم منذ عهد الملك داود حتى يومنا هذا .

فهذه البلدة الهادئة المتواضعة ارتفعت شهرتها عاليا في أنحاء المعمورة منذ ولادة المخلص في مغارتها فأخذت تجتذب اليها الشعوب من سائر أنحاء المعمورة

خلال العشرين قرنا الماضية . فتهافت على زيارة بيت لحم من الاباطرة والملوك والامراء والاشراف والفرسان والنسك ومختلف طبقات الناس على تباين تفكيرهم ومهنتهم وسنهم . وكان في طليعة الجميع الامبراطور قسطنطين البيزنطي وامه الملكة هيلانه ، الذين اشدوا في سنة ٣٢٦ اول وابهى كنيسة في العالم في ذلك الحين الا وهي كنيسة المهد في بيت لحم .

وكانت بيت لحم في عصر الرومان مدينة بسيطة محاطة بسور حجري حصين فوق هضبة صغيرة مرتفعة وحولها اودية سحيقة ، وكان قائما فوق السور برجان للحراسة والمراقبة ، واحد من الجهة الشرقية والاخر من الجهة الغربية ، اول خراب لحق بأسوار بيت لحم وكنيستها كان في زمن ثورة السامريين المعروفة سنة ٥٣٩ بعد الميلاد . وبعدها قام الامبراطور الروماني جوستنيان « الذي حكم من سنة ٥٥٧ — ٥٦٥ م » ، قام هذا الامبراطور بمحاربة السامريين ويطش بهم واحتل فلسطين ثانية وضمها الى امبراطوريته .

واول عمل قام به هذا الامبراطور بعد انتصاراته الساحقة على السامريين كان اعادة بناء كنيسة المهد ثانية فوق الكنيسة المهدمة بشكل اوسع وافخم من سابقتها ، وهي الكنيسة التي لا تزال قائمة حتى يومنا هذا ولذلك يسميها بعض المؤرخين كنيسة جوستنيان ثم أعاد بناء السور حول بيت لحم بشكل اقوى واعلى من السابق وحصنه .

وفي سنة ٦١٤ كانت غزوة الفرس لفلسطين فدمروا الكنائس والمعابد ولما وصلوا الى كنيسة المهد وبأثروا بدميرها وقع نظر قائدهم على صورة كبيرة منقوشة بالفسيفساء على جدار الكنيسة تمثل المجوس الثلاثة وهم يقدمون هداياهم الى الطفل يسوع . فاستغرب القائل وجود مثل هذه النقوش في هذا المكان لمجوسهم الذين لهم في قلوب ابناء فارس منزلة مقدسة . فأمر بايقاف الهدم واحترام المكان معتقدا أن لمجوسهم صلة مقدسة بهذه الكنيسة . ولكنهم اكتفوا بنهب الاواني والستائر الذهبية وكل شيء ذات قيمة . ولم يذكر أحد من المؤرخين والزوار عن مكان صورة المجوس هذه ، وان اكدها الكثيرون من الزوار والحجاج في مذكراتهم في ذلك الحين وبعده .

ثم كان احتلال الرومان ثانية لفلسطين فعمروا ما تهدم من الكنائس واصلحوا ورمموا التلف الذي لحق بكنيسة المهد حتى جاءت الفتوحات العربية وخرج الرومان من فلسطين واصبحت بيت لحم تابعة للحكم العربي .

ولما اتم الخليفة عمر بن الخطاب استلام القدس حضر الى بيت لحم لزيارة مكان ولادة سيدنا عيسى عليه السلام ، فزار كنيسة المهد وصلى داخلها في الحنية القبليّة « الجنوبية » وكانت الحنية كلها منقوشة بالفسيفساء ، فكتب عمر للبطريرك براءة أن لا يصلي في هذا الموضع من المسلمين الا رجل واحد بعد

واحد ، ولا يجمع فيه الصلاة ولا يؤذن فيه ولا يغير فيه شيئاً . ولكن بعد عصر خالف ولاية الامور براءة عمر بن الخطاب فخلعوا الفسيفساء وكتبوا فيها ما شاعوا .

وتوالى على المنطقة العهد الاموي « ٦٤١ م — ٧٥٠ م » وثم العهد العباسي « ٧٥٠ م — ٩٦٩ م » وثم العهد الفاطمي « ٩٦٩ — ١٠٩٩ م » حتى احتل الصليبيون بيت لحم في سنة « ١٠٩٩ — ١١٧٨ م » ودامت تحت حكمهم حوالي ٩٠ سنة .

ثم جاء دور الدويلات العربية المختلفة حتى احتلها الاتراك العثمانيون من سنة « ١٥١٧ — ١٩١٧ م » واحتلها ابراهيم باشا من عام « ١٨٣١ — ١٨٤١ » ثم عاد واحتلها العثمانيون حتى اواخر سنة ١٩١٧ م .

وجاء الانتداب البريطاني بعدهم حتى نهاية ١٩٤٨ فالحقت بالملكة الاردنية الهاشمية . ثم في ٥-٦-١٩٦٧ أصبحت من ضمن الاراضي المدارة من قبل جيش اسرائيل حتى يومنا هذا .

نرى من مختلف الادوار التي مرت على بيت لحم وجوب التحدث عن كل دور في فصل منفصل لنقدم عنه مفصلاً قدر الامكان وقدر ما استطعنا من التوصل اليه من الاخبار والحوادث ، ليطلع عليها الجيل الناشئ من أبناء وطني . وبما أن بيت لحم قريبة من القدس ، فإن ما مر على القدس من حوادث وحروب شمل بيت لحم ايضاً .

ليس عملي هذا اكثر من منقب عن الآثار ، ولكن ليس في الارض وبقايا العمران ، بل باحثاً منقبا عن الآثار فسي بطون الكتب والسجلات ، املاً ان يتابع هذه الطريق الكثيرون من أبناء بلدي . وخصوصاً الجيل الصاعد والجيل المثقف والله ولي التدبير .

وختاماً أشكر كل من قدم لي أي مساعدة او معلومات او أعارني بعض الكتب . كذلك أشكر كل من بذل علي بعض المعلومات او الكتب التي كانت لديه وانكرها وتهرب من طريقي ، ومعظمهم اصحاب اطلاع واسع ولكنهم يريدون كل شيء لهم ، وكأنهم خالدون على هذه الارض ، وان كان الكثيرون منهم قد انتقلوا الى رحمته تعالى قبل طباعة هذا الكتاب رحمهم الله .

هذا ولا يسعني في الختام الا أن اذكر القراء الاعزاء ، انني ما أتيت في كتابي هذا بشيء من عندي ، وان كل ما فيه اما سمعته من روايات جداتنا وأجدادنا من السلف الصالح ، طيب الله ثراهم وأسكنهم مسيح جناته ، او قرأته في مختلف الكتب التي تيسرت لدي من مختلف المصادر والمكتبات .

فإذا كنت قد وفقت في عملي هذا فإنه كان هذا ما ابغيه ، خدمة لابناء بلدي والجيل الصاعد ، املاً ان يتابع هذا الطريق من استطاع اليه سبيلاً ، لتتم المعرفة وتعم الجميع ، فإن كل حجر وكل شبر في بلدنا هذا له تاريخ مجيد ... والحمد لله رب العالمين على ما وفقنا اليه ...

الفصل الاول

بيت لحم قبل الميلاد

ان اصدق تاريخ عن بيت لحم قبل الميلاد هو ما جاء في العهد القديم من التوراة ، ثم جاء ذكره في العهد الجديد فحدثنا باختصار عن بيت لحم منذ القدم حتى تاريخ ولادة المسيح عليه السلام ، اي حتى مطلع القرن الاول الميلادي . ثم جاء ذكر بيت لحم في اقوال ومذكرات الرحالة والحجاج الذين زاروها او اقاموا حولها في صومعات متنسكين متعبدين ، وهي كثيرة جدا تجدها مبعثرة هنا وهناك في مختلف الكتب بشنى اللغات .

في حوالي النى سنة قبل الميلاد كانت فلسطين مسكن الكنعانيين ، وقد اقاموا مكان عبادة على رأس تلة في المكان الذي فيه مغارة المهد حاليا ، يقدمون فيه الذبائح قرابين لالهتهم ، واطلقوا على هذا المكان بيت ايلي لحاما ، اي بيت الاله لحاما .

وكلمة ايلي جاء ذكرها في انجيل متى (٢٧: ٤٥-٤٦) بمعنى الهى : « ومن الساعة السادسة كانت ظلمة على الارض الى الساعة التاسعة . ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلا ايلي ايلي لما شبتنى ، اي الهى الهى لماذا تركتنى » .

وهكذا سمي هذا المكان بيت ايلي لحاما ، اي بيت الاله لحاما ، ثم عرف باسم بيت لحم وبقي مقدسا ومكرما لدى الشعوب على مر الزمان منذ عهد الوثنيين حتى ظهور الديانة المسيحية . ودعيت بيت لحم أيضا باسم افراتا وهي كلمة كلدانية معناها الخصبة بسبب خصوبة أرضها ووفرة الزراعة والفاكهة فيها .

وينى الكنعانيون في الجليل هيكل اخر للاله ايلي لحاما على بعد أحد عشر كيلومترا الى الشمال الغربى من مدينة الناصرة ، عرف باسم بيت لحم الناصرة وجاء ذكر هذا المكان في العهد القديم (يشوع ١٩: ١٥) و « قضاة ١٢: ٨ » وعرفت باسم بيت لحم الجليل وبيت لحم الجنوبية باسم بيت لحم اليهودية ، ومنذ ظهور داود عرفت بيت لحم الجنوبية باسم مدينة داود وفاقت شهرتها بيت لحم الشمال في الجليل .

وبمرور الزمان دخلت فلسطين عدة قبائل بدوية رحالة طلبا للماء والكلا جاءت من الجزيرة العربية ومن ما بين النهرين في العراق ومن بلاد مصر في الجنوب وكان الاتصال يتم بواسطة البر حيث كانت قناة السويس لم تحفر في حينه بل حفرت قبل

قرنين من الزمن تقريبا . واخذت هذه القبائل الوافدة الى فلسطين تطلب العيش والعمل والخدمة عند السكان الاصليين الذين تقدمت حضارتهم وزراعتهم . فاختلفوا بأهل البلاد وتزاوجوا معهم ايعطوا بناتهم لبنينهم واخذوا من بناتهم ، ومع مرور الايام شاركوهم في كل شيء حتى في عبادة الالهة والاصنام .

وكانت مدن الكنعانيين ذات حضارة قديمة قد نشأت منذ اكثر من الف سنة . ومساكن متقنة حوت الكثير من اسباب الراحة ، وحكومة وصناعة وتجارة وثقافة فلما امتزجت القبائل العبرانية بأهل البلاد ترك معظمهم سكنى الخيام وبنوا لهم البيوت مثل بيوت أهل البلاد . وخلصوا عنهم الثياب التي كانت بدائية ومن الجلود واستبدلوها بالثياب الكنعانية المصنوعة من خيوط الصوف . ومع كل ما تقدم بقيت حياة البداوة منتشرة خارج المدن ولموق الجبال والسهول ، فكان الرعاة قائلين على رعاية مواشيهم يتنقلون بها من مكان لآخر طلبا للماء والعشب .

بيت لحم في التوراة

وجاء ذكر بيت لحم في العهد القديم (سفر التكوين ١٩:٣٥-٢٠)
« ماتت راحيل ودفنت في طريق افراثة التي هي بيت لحم ، فنصب يعقوب عبودا على قبرها وهو عبود قبر راحيل الى اليوم » .

وجاء ذكرها ايضا (ميخا ٣:٢٠) « اما انت يا بيت لحم افراثة وانت صغيرة ان تكوني بين الوف يهوذا فمئذ يخرج لي الذي يكون متسلطا على اسرائيل ومخارجه منذ القديم منذ ايام الازل » .

كذلك جاء ذكر بيت لحم في العهد القديم (راعوث الاصحاح ١١:٤-١٢)
« فقال جميع الشعب الذين في البساتين والشيخوخ نحن شهود . فليجعل الرب المرأة الداخلة الى بيتك مثل راحيل وليثبنتي بيت اسرائيل فاصنع ببأس في افراثة وكن ذا اسم في بيت لحم ، وليكن بيتك كبيت قارص الذي ولدته تمار ليهوذا من النسل الذي يعطيك الرب من هذه الفتاة » .

كذلك تذكر التوراة (صموئيل الاول ١٠:١٦-١٣)
« وعبر يسى بنيه السبعة امام صموئيل فقال صموئيل ليسى الرب لم يختبر هؤلاء وقال صموئيل ليسى هل كملوا الغلمان . فقال بقي بعد الصغير وهوذا يرمى الغنم فقال صموئيل ليسى ارسل وات به لاننا لا نجلس حتى يأتي الى هنا ، فارسل واتى به . وكان اشقر مع حلاوة العينين وحسن المنظر . فقال الرب قم امسحه لان هذا هو . اخذ صموئيل قرن الدهن ومسحه في وسط اخوته . وحل روح الرب على داود من ذلك فصاعدا ثم قام صموئيل وذهب الى الرامة » .

كذلك يعتقد الكثيرون من قدامى رجال الدين ان الملك داود استوحى المزامير المعروفة باسم مزامير داود وهو يرقى غنمه في الجبال المحيطة في بيت لحم متأثرا بجمال الطبيعة التي حوله .

وجاء في العهد القديم (قضاة ١١: ٢ - ٢٣) ما يلي :

« وفعل بنو اسرائيل الشر في عيني الرب وعبدوا البعليم وتركوا الرب اله آبائهم الذي اخرجهم من ارض مصر . وساروا وراء الهة الشعوب الذين حولهم وسجدوا لها واغاثوا الرب . تركوا الرب وعبدوا البعل وعشناروت فحمر غضب الرب على اسرائيل فدفعهم بأيدي ناهبين نهبوهم وباعهم بيد اعدائهم حولهم ولم يقدرنا بعد على الوقوف امام اعدائهم . حيثما خرجوا كانت يد الرب عليهم للشر كما تكلم الرب وكما اقسم الرب لهم فضاق بهم الامر جدا واقام الرب قضاة مخلصوهم من يد ناهبيهم ولقضائهم ايضا لم يسمعوا بل زنوا وراء الهة اخرى وسجدوا لها حادوا سريعا عن الطريق التي سار بها ابائهم لسمع وصايا الرب . لم يفعلوا هكذا . وحينما اقام الرب لهم قضاة كان الرب مع القاضي وخلصهم من يد اعدائهم كل ايام القاضي لان الرب ندم من اجل انينهم بسبب مضايقتهم وزاحميتهم ، وعند موت القاضي كانوا يرجعون ويفسدون اكثر من آبائهم بالذهاب وراء الهة اخرى ليعبدوها ويسجدوا لها .

لم يكفوا عن افعالهم وطريقتهم القاسية . فحمر غضب الرب على اسرائيل وقال من اجل هذا الشعب قد تعدوا عهدي الذي اوصيت به ابائهم ولم يسمعوا لصوتي فانا ايضا لا اعود اطرده انسانا من امامهم من الامم الذين تركهم يشوع عند موته ، لكي امتحن بهم اسرائيل ايحفظون طريق الرب ليسلكوا بها كما حفظها ابائهم ام لا . فترك الرب اولئك الامم ولم يطردهم سريعا ولم يدفعهم بيد يشوع » .

• وجاء في العهد القديم (قضاة ٥: ٣ - ٨)

« فسكن بنو اسرائيل في وسط الكنعانيين والحيثيين والاموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين . واتخذوا بناتهم لانفسهم نساء واعطوا بناتهم لبنيتهم وعبدوا البعليم والسواري . فحمر غضب الرب على اسرائيل فباعهم بيد كوشان رشعنايم ملك ارام النهرين . فعبد بنو اسرائيل كوشان رشعنايم ثمانين سنة . وصرخ بنو اسرائيل الى الرب فاقام الرب مخلصا لبني اسرائيل مخلصهم عثنييل بن قنار اخو كالب الاصغر . فكان عليه روح الرب وقضى لاسرائيل وخرج للحرب فدفع الرب ليده كوشان رشعنايم ملك ارام واعتزت يده على كوشان رشعنايم . واستراحت الارض اربعين ومات عثنييل بن قنار » .

ولما استقر الامر بهذه القبائل الغازية وقويت شوكتها اخذت تهاجم اهل البلاد الاصليين وبقيت الحروب بينهم سنوات طويلة حتى ابادوا السكان الاصليين وسيطروا على البلاد واشتدت الحروب من سنة ١٠٠٥ - ٩٦٥ ق.م وكان على رأس المحاربين داود بن يسي البيت لحمي .

وبقي الملك داود ومن خلفه في حروب مستمرة مع الفلسطينيين فاستعادوا معظم

البلاد وقتلوا أول ملك لليهود شاول مع أولاده ، كما هزموا داود واتباعه من بيت لحم فاختبأ في الجبال .

وتذكر التوراة (صموئيل الثاني ١٤: ٢٣ - ١٧) « ونزل الثلاثة من الثلاثين رئيسا وأتوا في الحصاد الى داود الى مغارة عدلام وجيش الفلسطينيين نازل في وادي الرفائيين . وكان داود حيثنذ في الحصن وحفظه الفلسطينيون حيثنذ في بيت لحم فتأوه داود وقال من يسقيني ماء من بئر بيت لحم التي عند الباب ، وحملوه وأتوا به الى داود فلم يشأ أن يشربه بل سكب للررب وقال حاشا لي يا رب أن أفعل ذلك . هذا دم الرجال الذين خاطروا بأنفسهم . فلم يشأ أن يشربه . هذا ما فعله الثلاثة الأبطال . »

وبئر بيت لحم التي يتحدث عنها داود هي المعروفة بيومنا هذا بأبار النبي داود مكان العمل الكاثوليكي حاليا . كذلك يستفاد من هذه الأقوال انه كان لبيت لحم أسوار تحيط بها شأنها شأن المدن في ذلك الحين ، لحماية السكان من الغزاة .

سليمان الحكيم

وتفيد التوراة (الملوك الاول الاصحاح الاول) ان الملك داود شاخ وتقدم في الايام وكانوا يدفعونه بالثياب فلم يدفعاً . فاستدعى الملك داود رئيس الكهنة وطلب اليه ان يمسح ابنه سليمان ملكا ليحكم محله . فأخذ صادوق الكاهن قرن الدهن ومسح سليمان بن داود ملكا وضربوا بالبولق وقال جميع الشعب ليحيى الملك سليمان .

وفيد الاصحاح الثاني : « ولما قريت ايام وفاة داود أوصى ابنه سليمان قائلا : أنا ذاهب في طريق الأرض كله سافتشدد وكن رجلا . احفظ شعائر الرب الهك اذ تسير في طرقه وتحفظ فرائضه ووصاياه وأحكامه وشهاداته كما هو مكتوب في شريعة موسى » .

والاصحاح الثالث يفيد ان سليمان صاهر فرعون ملك مصر ، وتزوج بنت فرعون وأتى بها الى مدينة داود ، اي بيت لحم الى أن اكمل بناء بيته وبيت الرب « هيكل سليمان » وسور اورشليم حوالها وكان هذا السور قد باثر ببناؤه ابسوه الملك داود .

وفيد الاصحاح الثالث ان تراءى الله لسليمان في الحلم ليلا ، وسأله ماذا اعطيك يا سليمان ، فأجاب اعط عبدك قلبا فهما لاحكم على شعبك واميز بين الخير والشر ، فحسن هذا الكلام في عيني الرب ومنحه حكمة وافرة تجلت في سائر أيام ملكه ، وهكذا سماه المؤرخون بسليمان الحكيم .

وكان حيرام ملك صور الفينيقي على روابط وثيقة بالملك داود ، فلما علم أن ابنه سليمان مسح ملكا ارسل رسلا معه ههئلين ، فانتهاز سليمان هذه الفرصة

وطلب من ملك صور أن يهده بأخشاب الارز من لبنان وعمال مهرة ليساعدوه على بناء الهيكل في القدس ، فلبى طلبه .

وفيد الاصحاح العاشر : ان بلقيس ملكة سبأ في اليمن سمعت بحكمة الملك سليمان ، فرغبت أن تذهب اليه لتشاهد كل شيء بنفسها ، فأتت الى اورشليم بموكب عظيم جدا وبجمال حاملة أطيابا وذهباً كثيراً هدية للملك سليمان فلها حضرت وعينت ما سمعت عنه اندهشت كثيراً .

وجاء في الاصحاح الحادي عشر : وكانت الايام التي ملك فيها سليمان في اورشليم على كل اسرائيل اربعين سنة ثم توفي سليمان ودفن في مدينة داود ابيه وملك رعنان ابنه عوضاً عنه .

وهكذا بنى الملك سليمان هيكلًا في القدس وأقام القصور في كل مكان ، وبنى برك سليمان قرب بيت لحم وأقام الجنائن الوراقاة حولها امتدادا الى اربطاس والادوية التي بعدها الى الشرق حتى مدينة بيت لحم . وهذه الجنائن حافظ عليها من خلفه من الملوك والمحتلين مدة تسعة قرون وأكثر حتى أيام الملك هيرودس الذي ولد في عهده السيد المسيح عليه السلام .

وخلف الملك سليمان ابنه رحبعام فكان مثل ابيه مولعا بالعمران فحصدن المدن وبنى القلاع وقوى الجيش وأقام أماكن لخرن الغلال والمؤن في كل مدينة حتى تكفي نفسها بنفسها في زمن الحرب والسلام . وهذا يعكس مدى ذكاء وحكمة وبعد نظر هذا الحاكم .

ونكرت التوراة عن الملك رحبعام ما يلي (اخبار الايام الثاني ١١: ١٤-١٤) « وأقام رحبعام في اورشليم وبنى منسلا للحصار في يهوذا . فبنى بيت لحم وعباطم وتقوع وبيت صور وسوكو وعدلام وجت ومريشة وزيف وادورايمل ولخيش وعزيقة وصرعة وأبلون وحبرون التي في يهوذا وبنيامين مدنا حصينة . وشدد الحصون وجعل فيها قوادا وخزائن مأكلا وزيت وخمر . وأتراسا في كل مدينة ورماحا وشدددها كثيرا جدا وكان له يهوذا وبنيامين . والكهنة واللاويون الذين في كل اسرائيل مثلوا بين يديه من جميع تخومهم . لان اللاويين تركوا مسارحهم وأملاكهم وانطلقوا الى يهوذا وأورشليم لان يربعام وبنياه رفضوهم من أن يكهنا للرب » .

ثم انحطت قوة المملكة اليهودية بعد رحبعام شيئا فشيئا . ثم استولى عليها شيشاك ملك مصر في القرن الثامن قبل الميلاد ، ويقوا في البلاد حتى منتصف القرن السابع قبل الميلاد .

وفي سنة ٧٣٢ ق.م احتل الاشوريون بقيادة ملكهم شلمنصر ، ملكة اسرائيل في الشمال ودمروا واحرقوا العاصمة السامرية « نابلس اليوم » وأسر السكان الى اشور في العراق ، وأحضرت الى البلاد قبائل جديدة من بلاده لتسكن مملكة

اسرائيل وتستفيد من خيراتها . ثم جاءت موجة استعمارية جديدة من بابل بقيادة نبوخذ نصر فاحتل البلاد من الاشوريين وخرجهم منها في سنة ٥٩٩ ق.م . فنهب الاشوريون القدس ونكسوا اسوارها ودمروا الهيكل الذي بناه الملك سليمان . وقتلوا من سكان القدس من قتلوا ، واستعبدوا من سلم وسبواهم الى بابل .

وكان يهوياكن ملكا على اليهود فلم يستطيع الوقوف في وجه نبوخذ نصر رغم المعونة من ملك مصر . فاكتمسح نبوخذ نصر البلاد واستولى على القدس في سنة ٥٩٩ ق.م . فأسر يهوياكن ونفاه مع عليه القوم وشيوخهم الى بابل . وهكذا أصبحت بيت لحم محتلة من قبل جيوش نبوخذ نصر وتابعة لحكمه .

ونصب صدقيا بن يوشيا ، احدا اقارب الملك يهوياكن ملكا على القدس وحولها ، تابعا الى بابل ، ولكن هذا الملك ما لبث ان نكث بالعهد وأعلن الثورة والعصيان على بابل بمساعدة ملك مصر واستطاع ان يبقى في عصيانه هذا تسع سنوات فجهزت بابل حملة قوية وجاءت في سنة ٥٩٠ ق.م الى القدس فحاصرت اسوارها مدة عام ونصف وكتتها واشعلت النيران في سائر المدينة بعد نهبها وقتل من صانفهم من سكانها وأسر الملك المترد مع من بقي من السكان ، ولم يتركوا في المدينة الا كل عاجز ومريض ودمر هيكل سليمان وحرقه حتى آخره فكان ذلك في سنة ٥٨٦ ق.م . وقضى على مملكة يهودا بأكملها .

وفي سنة ٥٣٨ ق.م زحفت جيوش الفرس من الشرق في زمن الملك كورثس واستولت على بابل واشور واتجهت غربا فاحتلت سوريا وما حولها وفي سنة ٥٣٨ ق.م احتلت القدس . انتهر اليهود المسبيون هذه الفرصة فتوددوا الى الملك المنتصر كورثس ، فتزوج من حسناء يهودية كانت في الاسر هي شقيقة زربابل بن شلائيل بن يهوياكن بن يهوياقيم ملك يهوذا . وبعد شهور قليلة توددت هذه الحسناء الى زوجها فطلبت منه السماح لقومها بالعودة لمدينة القدس فأجاب طلبها وعاد المسبيون الى بلادهم . وعادت الحياة الى مملكة يهوذا لكن بشكل مصغر اذ ضم الادوميون مدينة حبرون « الخليل حاليا » والجنوب الى مملكتهم كما انسلخ عن مملكتهم كل ما هو خارج حدود اليهودية . وكان العهد الفارسي عهد راحة ورخاء وحرية لليهود ، وعادوا يحكمون انفسهم بانفسهم من قبل رئيس كهنة ومجلس استشاري . وفي سني ٥٢٠ - ٥١٥ ق.م . أعادوا بناء الهيكل بتأثير الانبياء حجي وزكريا .

استمر حكم الفرس أكثر من قرنين في بلادنا حتى قام اسكندر المقدوني الملقب بالاسكندر ذي القرنين في سنة ٣٦٥ ق.م . فاجتاح سوريا ودحر الفرس ثم اتجه جنوبا فآخذ سوريا وفلسطين ومصر ثم عاد الى الشرق لتصفية ما تبقى

من جيوش فارس فحرقهم نهائيا حتى اوصلهم بلادهم وباحتلاله هذه الاقطار غير مجرى حياتها فاعطاها الدين والطابع الهيليني لعدة قرون .

ودخل الاسكندر القدس بسدون مقاومة ، خلال عودته من مصر ، اذ خرج سكانها اليهود يتقدمهم الكهنة والشيوخ بحل بيضاء يستقبلونه خارج القدس متضرعين اليه وطالبين العفو والرحمة ، فمنحهم الحرية واعفاهم من الجزية وسمح لهم بحكم ذاتي . وهكذا بسط الاسكندر سلطاته على مصر وفلسطين وسوريا فكانت بيت لحم مدينة داود ، تحت حكمه اكثر من قرن .

في سنة ٣٢٣ ق.م. مات الاسكندر فقسمت مملكته بين قائديه فكانت مصر وفلسطين تحت حكم بطليموس فانتهز اليهود هذه الفرصة وتمردوا عليه فدخل القدس وفرض عليها جزية باهظة وفرض قيودا ثقيلة على سكانها . واما سوريا فكانت من نصيب قائده سلوقس .

في سنة ١٦٨ ق.م. قام انطوخيوس ابيفانوس حاكم سوريا السلوقي ، فاعلن الحرب على البطالسة وتغلب عليهم وخضعت سوريا وفلسطين لحكمه . وعرف انتيخوس بقساوته مع رعاياه فمنع اليهود من تقديس السبت واقامة شعائهم الدينية الاخرى ونهب الاموال والغنائم من الهيكل وباقي المقدسات وحرق كتبهم الدينية ، وفرض عقاب الموت عن كل من يخالف اوامرهم . واخذ منهم اكثر من مائة الف اسير الى مصر ، ثم عاد فلان في معاماتهم واستخدمهم في اعمال الحراسة والزراعة .

لم يكتف هذا الحاكم بما فرضه من عقوبات شديدة على سكان القدس ، فبنى هيكلا لزيوس اوليمبيوس مكان هيكل القدس ، واخر لزيوس كسينيوس في جبل جرزيم . واجبر اليهود على عبادة الهته الوثنية فيها .

مما تقدم يتبين القارئ شدة وظلمة هذا الحاكم المتجبر ، فقام من بين اليهود من ثار على حكمه وبقيت الحرب عسدة سنوات وجاء ذكر الكثير من هذه الحروب في التوراة . ثم قام من بين اليهود من قاوم اليونانيين ، ومن اشهرهم رجل من اصل بيت كاهن يدعى هشمون . ولما مات هشمون خلفه ابنه يهوذا الذي عرف بتعصبه وعناده حتى لقب بالمكسلي اي المطرقة . وبقيت الحروب بينه وبين اليونانيين سجالا حتى قتل في سنة ١٦٠ ق.م. وخلفه ابناؤه ولكنهم تخاصموا فيما بينهم ، مما شجع القائد الروماني بومبي الذي كان في سوريا انذاك فاحتل فلسطين سنة ٦٣ ق.م. وهكذا اصبحت القدس وبيت لحم راضخة لحكم الرومان حتى احتلها الفرس سنة ٦١٤ م .

موقع مدينة بيت لحم

تقع مدينة بيت لحم فوق هضبتين من سلسلة جبال يهودا التي تفصل بين البحر الابيض المتوسط من الغرب والبحر الميت او بحر لوط من الشرق ، على شكل حصن مرتفع شاهق على ارتفاع ٧٥٠ مترا عن سطح البحر الابيض المتوسط .

و حاليا تقع المدينة فوق هضبتين تمتد الاولى في ارتفاع تدريجي من الشرق الى الغرب وعلى هذه الهضبة تقع المدينة القديمة وكنيسة المهد . والهضبة الثانية تمتد من الشمال الى الجنوب في تقاطع مع الهضبة الاولى ، من جهة الغرب وعلى الهضبة الثانية اقيمت بيت لحم الجديدة التي انشئت تدريجيا في مطلع القرن العشرين عندما باشر ابناء بيت لحم العائدون من المهجر باقامة بيوت سكن حديثة واسعة لسكانهم مبتعدين تدريجيا عن المدينة القديمة .

وتنحدر هذه الهضاب تدريجيا الى الشرق حتى تصل الى البحر الميت الذي يعتبر اعلى منخفض عن سطح البحر في الكرة الارضية ، حيث ينخفض الى عمق ٣٩٢ مترا عن سطح البحر . وكانت هذه المنحدرات الشرقية الواقعة بين بيت لحم والبحر الميت ملكا لاهالي بيت لحم لاجيال واجيال حتى مطلع القرن الحالي ، ولا يزال معظمها يحمل اسماء عائلات من بيت لحم . فكانوا يزرعونها بمختلف اشجار الكرم والفاكهة والحبوب والخضروات لما عرف عن المزارع البيتلحي من الجد والنشاط والهمة الكبيرة منذ قديم الزمان حتى يومنا هذا .

وقد جاء في مختلف كتب الرحالة الذين زاروا هذه المنطقة قادمين من اقطار الغرب والشرق ومن أوروبا في القرون السالفة ، الوصف الكثير عن نشاط البيتلحي وكرمه ودمائه اخلاقه الممزوجة بالبساطة وطيبة القلب وسلامة النية . وذكروا أيضا أن هذه الجبال كانت عامرة بالكنايس وصوامع الرهبان والنساك وخصوصا كنيسة تقوع جنوبي الفرديسر ولكن الحروب المتلاحقة على ممر القرون الماضية قضت على هذه الكنائس والصوامع ، ولم يبق منها في يومنا هذا الا القليل مثل دير ابن عبيد وديري مار سابا البعيد والقريب ، رغم ما لحق بها من سلب ونهب وتدمير .

يحيط بالمدينة من كل جوانبها تلال وادنية مكسوة بأشجار الفاكهة على انواعها ، وتغلب على الجميع في عددها اشجار الزيتون منذ عهد ما قبل ميلاد السيد المسيح ، ثم تليها كروم العنب والتين واللوز والرمان والشمش . وأما من جهة الشرق والجنوب كلما ابتعدت عن بيت لحم تواجهك أراضي صحراوية قاحلة حتى البحر الميت وجبال مؤاب من خلفه .

وكلما ابتعد المرء عن بيت لحم الى الشرق تقل الارض خصوبة ويواجه منطقة تكاد تكون جدياء فاعتاد الاهالي منذ القدم أن يسموها البرية حتى شاطئ البحر الميت في الشرق . فمدينة بيت لحم تقع الى الجنوب بعيدا عن منطقة الجليل الخصبة ، وقريبة نوعا ما من منطقة السامرة الخضراء ، ولكنها ليست في وسط الصحراء او البرية .

تشاهد بيت لحم من جميع الجهات قبل الوصول اليها ببضعة كيلومترات على شكل حصن كبير فوق مرتفع شاهق وتبدو للناظر بيوتها الحجرية المتراسة ، فبعضها وردي اللون وأخرى بيضاء وبعضها مبني بشكل هندسي جميل من الحجرين الوردي والابيض . ويعلمون بين هذه البيوت عدة أبراج يحمل كل منها اجراس كنيسة ومأذنة جامع عمر بن الخطاب الواقع امام كنيسة المهد تدعو المؤمنين بالله مرارا كل يوم للصلاة لتسبيح وتهجد الخالق عز وجل .

فعندما تزور بيت لحم اليوم ترى مدينة صغيرة نسبيا ، كما هو حال معظم المدن المقدسة في العالم ، والقسم القديم من المدينة بدون أي تغيير يذكر ، تقريبا كما كان حالها في عهد ميلاد السيد المسيح قبل عشرين قرنا من الزمن . ومع انها تظهر بهيئتها القديمة الا ان بيت لحم تطورت مع مرور الزمن بالفن والصناعة والثقافة ، مستعملين الالات الحديثة لتقديم وتطوير حياة سكانها بدون المساس بهيئتها القديمة . فالخبز والماء ورائحة الجو المعطرة بروائح الفواكه والزهور في البساتين والحقول المحيطة بالمدينة ، وحتى لباس المزارعين المحليين جميعها لا تكاد تختلف كثيرا عن حالتها في عهد المسيح والرسول .

وقد ذاقَت مدينة بيت لحم الكثير من الامجاد والمتاعب على السواء منذ عهد الملك داود أي قبل الميلاد بألف عام وحتى يومنا هذا ، فقد احتلت مرارا وقاست كثيرا على أيدي حكام عديهي الشنقة والرحمة ، فكانت على الدوام مطمع الكثيرين من الحكام والغزاة على مر الدهور فهدمت مرارا وأعيد بناؤها في كل مرة وأعيدت اليها الحياة ، وقتل سكانها وشردوا مرارا ، فكانوا في كل مرة يعودون الى مدينتهم ويعيدون تعميرها وتطويرها ثانية .

ان القادم لزيارة مدينة بيت لحم في هذه الايام يرى امامه مكانا فريدا في العالم ، يقدسه الاف الملايين من سكان المعمورة من أصحاب الديانات السماوية ، فمجرد ذكر اسمها تقترب بالقداسة ولكنها على كل حال هي مدينة مسكونة وقطعة طبيعية من الارض ، تجمع بين المشاعر السماوية والدينية بكل توافق ووئام . ومع كل ما تقدم فان السكان في مدينة بيت لحم وما حولها يمارسون حياتهم اليومية بكل هدوء وتواضع ، وكأن منطقتهم ليست من اقدس بقاع العالم فيلمس الزائر والسائح جوا بديعا من الصفاء لا ينساه مدى حياته .

وفي طرف المدينة الشرقي تقوم كنيسة المهد حيث يحتفل فيها في كل عام

عند حلول عيد الميلاد باقامة قداس منتصف الليل على اعتبار ان ميلاد السيد المسيح كان في مثل هذه الساعة ، يحضره السياح والزوار والحجاج الوافدون لزيارة بيت لحم من شتى انحاء المعمورة . ففي النصف الاخير من شهر كانون اول « ديسمبر » من كل عام تظهر بيت لحم صغيرة في كل كنيسة وكل بيت عائلة مسيحية في سائر انحاء العالم ، عبارة عن شكل مفسرة وبداخلها العائلة المقدسة والطفل يسوع مضطجعا في مذود وحوله مريم وماريوسف والرعاة واغنامهم ، والمجوس الثلاثة ساجدين للطفل ويقدمون له هداياهم اي صورة الميلاد كما جاء ذكرها في الانجيل .

شروق الشمس على بيت لحم

فإذا وقف المرء في بيت لحم في الصباح الباكر وأدار وجهه الى الشرق الى الافق خلف البحر الميت يشاهد جبال مؤاب تتألق باللون الارجواني تبزغ من خلفها شمس الصباح . وما أروع من منظر خلاب يبهج النفس ويسر خاطر كثيرا ، فنشاهد قرص الشمس وهو يرتفع تدريجيا من خلف هذه الجبال . فهذا الريح الاعلى من قرص الشمس قدبزغ يرتفع تدريجيا حتى يصل النصف ، ثم يستمر بالارتفاع حتى تظهر ثلاثة أرباعه ، ثم يرتفع قليلا قليلا حتى يخل للناظر أن قرص الشمس يستقر على رؤوس تلك الجبال . ثم يتركها صاعدا الى أعلى حتى يصل عند الظهر الى كبد السماء فيميل قليلا للجنوب ، وهنا كان الناس منذ القدم حتى منتصف القرن العشرين يعتبرون بداية ميلان قرص الشمس للجنوب بمثابة منتصف النهار او الظهر . فيتوقفون عن العمل في حقولهم او أعمالهم الأخرى ويجلسون لتناول طعام الغداء ويستريحون قليلا ثم يتابعون عملهم اليومي . ومنذ قرن صارت أجراس كنيسة المهد عندما تقرع ساعة الظهر يعتبرها الأهالي منتصف النهار وساعة حلول وجبة الغداء . وكانوا لما يسمعون أجراس الكنيسة الساعة ١٢ ظهرا يقولون دق الظهر أي منتصف النهار .

وحتى منتصف القرن العشرين كان سكان بيت لحم يتنبأون عن طقس الغد هل هو مطرا او صحو ، وذلك بأن ينظروا قبل الغروب بساعة الى جبال مؤاب . فإذا كانت يادية صافية فالجو غدا صحو ، وإذا كان عليها غباش او ضباب فالغد سيكون مطرا . وكان تقديرهم هذا مصيبا مائة بالمائة ، فإذا كان الجو صافيا فالغد صالح للغسيل لزيات البيوت وللذهاب الى الكروم لحراثتها والعناية بها والعكس بالعكس .

نشاط المزارع البيتلحمي

والاراضي المحيطة ببيت لحم خصبة جدا اصلحها الاجداد وغرسوها بأشجار الزيتون ومختلف أنواع الفاكهة كالعنب والتين والرمان واللوز والمشمش والتفاح والسفرجل وغيرها ، وقد أقاموا جدراناً خاصة لمنع انجراف التربة من المرتفعات فتحوّلت الجبال القاحلة إلى مصاطب لزراعة الزيتون ومختلف أشجار الفاكهة والخضروات والحبوب كالقمح والشعير والعدس والحمص والفول وسائر الحبوب اللازمة لمعيشة السكان فتحوّلت الكروم إلى مصدر رزق ومناطق اصطيف لأصحابها .

فهذه الاراضي المحيطة بالمدينة والمغروسة بمختلف أشجار الزيتون والفاكهة كانت مصدر خير وبركة لكل عائلة ، فيترك قسم من الكروم والبساتين لزراعة الخضروات الصيفية مثل الكوسا والبندورة والباذنجان والفلفل والبامية واللوبة وغيرها . وفي الشتاء تزرع بالبقول الشتوية مثل القرنبيط والملفوف والخس والسبانخ والفجل واللفت وغيرها . ومن كان لديه متسع من الأرض يزرع الحبوب لمؤونة عائلته كالقمح والعدس والحمص والفول ومؤونة لدوابه وماشيته كالشعير والكرسنسة والبرسيم والذرة وغيرها .

وفي الصيف لا يكاد يخلو محيط بئر الكرم من وجود شتلات من الفلفل الحلو والحر والباذنجان ونباتات أخرى كانت محببة للعائلة البيتلحمية مثل الريحان والبقدونس وحاصلبات والزعتانة . وفي الشتاء يجمع بعض الأعشاب والنباتات البرية وينشفها لتكون دواء العائلة إذا مرض أحد أفرادها ، وأهمها المريمية والجعدة والكمندرة والبابونج المعروف باسم القريعة ، ثم الزعتر لعمل الدقة منه كما هو معروف للجميع ، والذي كان يستعمل في الفطور والعصرونة ، يغمسها الجميع مع زيت الزيتون وبجانبها الزيتون الأخضر والأسود في جرار لهذه الغاية فيعمل بعضه مدقوقاً ويسمى رصيصاً ، ويترك آخر على حاله ويسمى مجلساً ، وبعض العائلات تعمل من المجلس بعد أن تشرح كل حبة من الجانبين بالسكين وتكبسه في مرطبانات بالزيت ، وأما الزيتون الأسود فيسمونه مملحاً .

وكانت نبتة الريحان محبوبة للجميع لطيب رائحتها فكانت تغرس في الكروم أمام العريش وحول البئر ، وتغرس في البيوت داخل قوارير الفخار أو التناك وتوضع على حديد الشبابة الذي كان يصنع بارزاً ليتسع لهذه القوارير المغروسة بالريحان لتملا أجواء البيت برائحتها العطرية . وقد بلغ حب البيتلحمي للريحان مبلغاً حتى سمي الكثيرون بناتهم ريحانة للدلالة على جمال تلك الابنة وطيب اخلاقها ، وللأسف الشديد فانه بعد الخمسينات من هذا القرن

انعدمت هذه النباتات من البيوت ومن المنطقة ، ولم يعد من يسمي ابنته ريحانه كما لم يعد أحد يسمي باسماء الجدات مثل نجمة ورحمة ووردة ونعمة وبركة وسلطانة وعفيفة وفكتوريا وغيرها من الاسماء ، فقد مال معظمهم الى الاسماء الغربية من جهل وحب ظهور .

وقد عاشت الكثيرين من المعبرين والمعمرات من اهالي بيت لحم وكان من يتوفى قبل أن يبلغ السبعين يقولون عنه مسكين لم يشبع من عمره ، ومن ميات فوق الثمانين لا بأس عاش وشاف . ومن يعمر فوق المائة سنة يقول هذا ربه راض عليه « الله يرحمه ويطعمنا نعيش قده » فكثيرون شاهدوا أحفادهم وبعضهم حضر عرس أبناء أحفاده ، وبعضهم عاش حتى جاوز سن ١٢٠ سنة وبعدها وهو لا يزال بصفاء ذهني شديد ، فيذكر بكل دقة وتفصيل حوادث وقعت له في سنين طفولته وصباه .

وقد كان البيتلحمي مغرماً بأرضه وكرومه فكان يخرج في الصباح الى أرضه للعناية بها واعدادها للزراعة وتصليح ما تهدم من الجدران او تعلية بعض الجدران لوقاية أرضه من سطو الماشية على الاشجار والمزروعات . فكثيراً ما كنت أرى في أيام الشتاء وأنا ذاهب الى المدرسة ، أرى رجالاً تجاوزوا الستين عاماً وأكثر ، وكل منهم يحمل فأسه على كتفه وزواده تحت أبطه متوجها الى حقله ، ثم يلحق به بعض أبنائه وبناته حاملين له معهم زاد الغداء ويساعدونه قدر الامكان في شؤون الحقل . فيقضي نهاره في حقله في الهواء الطلق ويعمل بجد من ساعات الصباح الباكر حتى غروب الشمس فيعود الى بيته في المدينة مبتلياً نشاطاً وصحة . حتى في الايام الماطرة كان لا يتوانى عن الذهاب الى حقله للعمل فيه ، فاذا هطلت الامطار بغزارة التجأ الى المغارة التي لا يخلو منها حقل حتى ينقطع هطول الامطار فيعود لمزاولة عمله في حقله حتى تغرب الشمس فيعود الى بيته . اما الزوجة فتكون طوال النهار قد رعت بيتها بأحسن رعاية ومجنت الدقيق وعملت الخبز في الطابون وغسلت ملابس اولادها وحضرت الطعام ، فيجلس الجميع سويّة يتناولون طعامهم ثم يجلسون مع بعضهم يتسامرون ، فتقص الام بعض القصص عن السلف ، ويقص الاب بدوره ما سمع من اجداده ، وينصح ابناؤه بالتقوى والاعتماد على الله سبحانه وتعالى .

وكثير من العائلات ، يكون الاب له عدة أبناء يزوجهم الواحد تلو الآخر كلما كبر وسمحت ظروف الاب المالية بتزويج ابنه ، ويسكنه مع العائلة في البيت . وهكذا تتكون عائلة واحدة كبيرة تتكون من عشرة الى عشرين نفراً يجلسون جميعاً معاً لتناول الطعام .

مثل هذه العائلات تكون الحماة اي الام ، هي محور النظام ، فتعطي لكل واحد من افراد العائلة الواجب المطلوب منه عمله ، ان كان الى زوجة الابن او الى

الابناء والبنات ، فيسير كل شيء في وفاق ووئام ، والجميع سعيد وراض بما قسمه لهم من الارزاق ، والصغير يحترم الكبير والكبير يعطف بحنان على الصغير .

اما الجد والجدة فهم موضع احترام الجميع والكل من الاحفاد يسعى لخدمتهم ونيل رضاهم . وفي أيام الشتاء الماطرة يبقى الجميع في البيوت ، ويكون الجدان مصدر تسلية للجميع بما يسردونه على أهل البيت من سالف الحوادث والايثار . فلم يكن في سالف الزمان جهاز راديو أو تلفزيون ، بل كان الجد والجدة يقوم كل منهما مقام هذه الآلات في وقتنا الحاضر .

اما الاحداث فقد توالى على بيت لحم منذ أقدم الأزمنة حتى يومنا هذا ، كما سنروي بعضها على الصفحات التالية ، محاولا بيان حسناتها وسيئاتها بقدر ما تيسر لي ذلك ليستفيد منها الجيل الصاعد فنطلب من الله التوفيق ، ولجلاله جزيل الحمد والشكر على ما قدرنا عليه .

انتشار الاديرة والرهينة في بيت لحم

وفي مطلع القرن الرابع بعد الميلاد امتلأت المنطقة المحيطة ببيت لحم بأديرة الرهبان والراهبات ، وخصوصا الى جهة الشرق من بيت لحم ، حيث عاش يوحنا المعمدان في البرية الواقعة الى الشرق من بيت لحم حتى شواطئ البحر الميت المعروف ببحيرة لوط . و بقيت الاديرة والصوامع تمتد عميقا في هذه البرية حتى وصلت شواطئ البحر الميت والقسم الجنوبي من نهر الاردن ، حيث كان يوحنا المعمدان يعمد بالماء وكان يوحنا يقول للناس انا اعمدكم بالماء ولكن من سيجيء بعدي فيعمدكم بالروح القدس ويعني به السيد المسيح عليه السلام .

وفي صفري سمعت الكثير من اخبار هذه الاديرة والصوامع من كبار السن والجداات والاجداد . نقلا عما كان يحدثهم به اجدادهم وجداتهم . فقد كان اجدادنا دائما يقولون ان الصغار كتب الكبار ينقلون لابنائهم واحفادهم اخبار اسلافهم . وقد كان معظم القوم اميين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة ، وكان الاجداد والجداات محدثين بارعين ينقلون لابنائهم واحفادهم في كل يوم وكل ليلة في مجالسهم اخبار السلف الطيبين ليقتدي بها الجيل الطالع . فكان الجداات والاجداد مصدر الوعظ والفهم للجيل الناشئ ، يفرسون في نفوسهم حب القريب وعمل الخير وتقوى الله وحب الارض والنشاط والعمل والكاح . اي كانوا مدرسة الاجيال الصاعدة ومدرسة الرجولة والثقة بالنفس وهكذا كان الولد او البنت في فهم وذكاء شديدين ناضجين ابعد بكثير من سنهم اي ان ابن الثامنة كان مستوى فهمه في مستوى فهم من هم اليوم في سن العشرين وربما اكثر رغم انهم لا يعرفون القراءة ولا الكتابة ، بل كانوا شعلة من الذكاء الطبيعي وصفاء الذهن يرأسهم حتى سن الكهولة .

ويروي الاجداد نقلا من اجدادهم ان عدد الكنائس التي كانت قائمة من القدس حتى مدينة الكرك كان على عتديام السنة اي ٣٦٥ كنيسة . ففي يوم سبت النور الذي يسبق احد الفصح عندما تقرر اجراس كنيسة القيامة في القدس معلنة ظهور النور وقيامه السيد المسيح من بين الاموات ، كانت تتناقل اصداؤه هذه الاجراس ، اجراس كنيسة ام طوبى وكنيسة صور باهر ودير مار الياس فكنيسة المهد وكنيسة حقل الرعاة في بيت ساحور وكنيسة تقوع ومنها تتلقى البشرى اجراس الكنائس التي تليها حتى توصلها الى اجراس كنائس الكرك وما يحيط بها . فيحتفل الجميع بسبت النور ، فيسارع كل منهم الى اقرب كنيسة ليحتفل بحلول عيد الفصح ويقدم صلوات الشكر للباري عز وجل ونهار العيد يتزاور الاهل والاقارب فيخرج الابناء لمعايدة اجدادهم وجداتهم ووالديهم واخوانهم واخواتهم واعمامهم وعماتهم وباقي الاقرباء والاصدقاء والجيران .

الفصل الثاني

بيت لحم في الكتب السبوعية

النبي زكريا

جاء ذكره في انجيل لوقا الاصحاح الاول (٥ - ٢٥) كما يلي : —
« كان في ايام هيروديوس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا من فرقة ابيا وامراته من بنات هرون واسمها اليصابات ، وكانا كلاهما بارين امام الله سالكين في جميع وصايا الرب واحكامه بلا لوم . ولم يكن لهما ولد اذ كانت اليصابات عاقرا وكانا كلاهما متقدمين في ايامهما .

فبينما هو يكره في نوبة فرقة امام الله حسب عادة الكهنوت اصابته القرعة ان يدخل الى هيكل الرب ويبخر ، وكان كل جمهور الشعب يصلون خارجا وقت البخور فظهر له ملاك الرب واقفا عن يمين مذبح البخور . فلما رآه زكريا اضطرب ووقع عليه خوف فقال له الملاك لا تخف يا زكريا لان طلبتك قد سمعت وامراتك اليصابات ستلد لك ابنا وتسميه يوحنا . ويكون لك فرح وابتهاج وكثيرون سيفرحون بولادته . لانه يكون عظيما امام الرب وخمرا ومسكرا لا يشرب ومن بطن ابيه يمتلئ من الروح القدس ويرد كثيرين من بني اسرائيل الى الرب الههم . ويتقدم امامه بروح ايليا وقوته ليرد قلوب الاباء الى الابناء والعصاة الى فكر الابرار لكي يهييء للرب شعبا مستعدا . فقال زكريا للملاك كيف اعلم هذا لاني انا شيخ واهراتي متقدمة في ايامها . فاجاب الملاك وقال له انا جبرائيل الواقف قدام الله وارسلت لالكلمك وابشرك بهذا وها انت تكون صامتا ولا تقدر ان تتكلم الى اليوم الذي يكون فيه هذا لانك لم تصدق كلامي الذي سيتم في وقته . وكان الشعب منتظرين زكريا ومتعجبين من ابطائه في الهيكل ، فلما خرج لم يستطع ان يكلمهم ففهموا انه قد رآى رؤيا في الهيكل فكان يومئذ اليهم وبقي صامتا ولما كملت ايام خدمته مضى الى بيته . وبعد تلك الايام حبلت اليصابات امراته واخفت نفسها خمسة شهور قائلة هكذا قد فعل بـي الرب في الايام التي فيها نظر الي لينزع عاري بين الناس » .

ثم جاء ذكره في انجيل لوقا الاصحاح الاول (٥٧ - ٨٠) بما يلي : —
« واما اليصابات فتم زمانها لتلد فولدت ابنا . وسمع جيرانها واقرباؤها ان الرب عظم رحمته لها ففرحوا معها . وفي اليوم الثامن جاؤا ليختنوا الصبي

وسمّوه باسم أبيه زكريا . فأجابته أمه وقالت لا بل يسمى يوحنا . فقالوا لها ليس أحد في عشيرتك سمي بهذا الاسم ثم أومأوا إلى أبيه ماذا يريد أن يسمى فطلب لوحا وكتب قائلا اسمه يوحنا فتعجب الجميع . وفي الحال انفتح فمه ولسانه ونكلم وبارك الله . فوقع خوف على كل جيرانهم وتحدث بهذه الأمور جميعها في كل جبال اليهودية ، فأودعها جميع السامعين في قلوبهم قائلين أرني ماذا يكون هذا الصبي . وكانت يد الرب معه .

وامتلا زكريا أبوه من الروح القدس وتنبأ قائلا مبارك الرب اله إسرائيل لانه افقد وصنع فداء لشعبه . وقام لنا قرن خلاص في بيت داود فناه . كما تكلم بكم انبيائه القديسين الذين هم منذ الدهر خلاص من أعدائنا ومن أيدي جميع مبغضينا ليصنع رحمة مع آبائنا ويذكر عهده المقدس القسم الذي حلف لإبراهيم ابينا ان يعطينا اننا بلا خوف منقذين من أيدي أعدائنا نعبد به بقداسة وبر قدامه جميع أيام حياتنا . وانت ايها الصبي نبي العلي تدعى لانك تتقدم امام وجه الرب لتعد طريقه . لتعطي شعبه معرفة الخلاص بمغفرة خطاياهم بأحشاء رحمة الهنا التي بها افتقدنا المشرق من العلاء ليضيء على الجالسين في الظلمة وظلال الموت لكي يهدي أقدامنا في طريق السلام . أما الصبي فكان ينمو ويتقوى بالروح وكان في البراري إلى يوم ظهوره لإسرائيل .

وقد جاء ذكر النبي زكريا عليه السلام ، في القرآن الكريم ، في سورة مريم بالآيات الكريمة التالية : —

سوره مريم : ذكر رحمة ربك عبده زكريا «٢» اذ نادى ربه نداء خفيا «٣» قال رب اني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيئا ولم اكن بدعائك رب شقيا «٤» واني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا «٥» يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا «٦» يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا «٧» قال رب انى يكون لى غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا «٨» قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا «٩» قال رب اجعل لي اية قال ايتك الا تكلم الناس ثلاث ليال سويا «١٠» فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم ان سبحوا بكرة وعشيا «١١» يا يحيى خذ الكتاب بقوة واتيناه الحكم صبيا «١٢» وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا «١٣» وبراً بوالديه ولم يكن جبارا عصيا «١٤» وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا «١٥» .

يوحنا المعمدان

تفيد التقاليد المتوارثة ان يوحنا بن زكريا الذي عرف فيما بعد باسم يوحنا المعمدان منذ أن باشر يعمد الناس فسي نهر الاردن في المكان الذي يعرف في يومنا هذا باسم المغطس . ومنذ ذلك الحين عرف نهر الاردن باسم نهر الشريعة .

جاء في انجيل مرقس الاصحاح الاول (٢ - ١٨) بخصوص يوحنا المعمدان ما يلي : —

« كما هو مكتوب في الانبياء ها انا ارسل امام وجهك ملاكي الذي يهيئ طريقك قدامك صوت صارخ في البرية اعدوا طريق الرب اصنعوا سبلة مستقيمة . كان يوحنا يعمد في البرية ويكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا . وخرج اليه جميع كورة اليهودية واهل اورشليم واعتمدوا جميعهم منه في نهر الاردن معترفين بخطاياهم . وكان يوحنا يلبس وبر الابل ومعطفه من جلد على حقوية ويأكل جرادا وعسلا برياً . وكان يكرز قائلاً يأتي بعدي من هو اقوى مني الذي لست اهلا ان انحني واحل سيور حذائه . انا اعمدكم بالماء واما هو فسيعمدكم بالروح القدس » .

وجاء في انجيل متى الاصحاح الثالث (١ - ١٧) ما يلي : —
« وفي تلك الايام جاء يوحنا المعمدان يكرز في برية اليهودية . قائلاً توبوا لانه قد اقترب ملكوت السموات . فان هذا هو الذي قيل عنه بأشعيا النبي القائل صوت صارخ في البرية اعدوا طريق الرب اصنعوا سبلة مستقيمة . ويوحنا هذا كان لباسه من وبر الابل وعلى حقويه منطقة من جلد . وكان طعامه جرادا وعسلا برياً . حينئذ خرج اليه اورشليم وكل اليهودية وجميع الكورة المحيطة بالاردن واعتمدوا منه في الاردن معترفين بخطاياهم

فلما رأى كثيرين من الفريسيين والصدوقيين يأتون الى معمديته قال لهم يا اولاد الافاعي من اراكم ان تهربوا من الغضب الاتي . فاصنعوا اثمارة تليق بالتوبة . ولا تفتكروا ان تقولوا في انفسكم لنا ابراهيم ابا لاني اقول لكم ان الله قادر ان يقيم من هذه الحجارة اولادا لابراهيم . والان قد وضعت الفأس على اصل الشجرة . فكل شجرة لا تصنع ثمرا جيداً تقطع وتلقى في النار . انا اعمدكم بماء التوبة . ولكن الذي يأتي بعدي هو اقوى مني الذي لست اهلا ان احل حذاءه هو سيعمدكم بالروح القدس ونار . الذي رفشه في يده وسينقي بيده ويجمع قمحه الى المخزن واما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ .

حينئذ جاء يسوع من الجليل الى الاردن الى يوحنا ليعتمد منه . ولكن

يوحنا منعه قائلا أنا محتاج ان اعتمد منك وانت تأتي الي . فأجاب يسوع وقال له اسمح الان لانه هكذا يليق بنا ان نكمل كل بر . حينئذ سمح له فلما اعتمد يسوع وصعد للوقت من الماء . واذا السموات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلا مثل حمامة وأتيا عليه وصوت من السموات قائلا هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت .

وجاء ذكر يوحنا المعمدان في انجيل يوحنا الاصحاح الاول (٦ — ١٣) و (١٩ — ٢٨) ما يلي : —

« كان انسان مرسل من الله اسمه يوحنا هذا جاء للشهادة ليشهد للنور لكي يؤمن الكل بواسطته . لم يكن هو النور بل ليشهد للنور . كان النور الحقيقي الذي ينير كل انسان اتيا الى العالم ، كان في العالم وكون العالم به ولم يعرفه العالم الى خاصته جاء وخاصته لم تقبله . واما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطانا ان يصيروا اولاد الله أي المؤمنون باسمه الذين ولدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل بل من الله .

وهذه هي شهادة يوحنا حين ارسل اليهود من اورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من انت ؟ فأعترف ولم ينكر وأقر أنني لست انا المسيح . فسألوه اذا ايليا انت ؟ فقل لست انا . النبي انت ؟ فأجاب لا ، فقالوا له من انت لنعطي جوابا للذين ارسلونا . ماذا تقول عن نفسك قال انا صوت صارخ في البرية قوموا طريق الرب كما قال اشعيا النبي .

وكان المرسلون من الفريسيين . فسألوه وقالوا له فما بالك تعمد ان كنت لست المسيح ولا ايليا ولا النبي . أجابهم يوحنا قائلا انا اعمد بماء ولكن في وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه . هو الذي يأتي بعدي الذي صار قدامي الذي لست بمستحق ان احل سير حدائه . هذا كان في بيت عبرة في عبر الاردن حيث كان يوحنا يعمد .

وقد جاء ذكر يوحنا المعمدان في انجيل لوقا الاصحاح الثالث (١ — ٢٢) بما يلي :

« وفي السنة الخامسة عشرة من سلطنة طيباريوس قيصر اذ كان بيلاطس النبطي واليا على اليهودية وهيرودوس رئيس ربيع على الجليل وفيلبس أخوه رئيس ربيع على ايطورية وكورة تراخونيتس وليسانتيوس رئيس ربيع على الابلية في أيام رئيس الكهنة حنان وقتيافا كانت كلمة الله على يوحنا بن زكريا في البرية . فجاء الى جميع الكورة المحيطة بالاردن يكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا كما هو مكتوب في سفر اقوال اشعيا النبي القائل صوت صارخ في البرية أعبدوا طريق الرب اصنعوا سبلة مستقيمة . كل واد يمتلئ وكل جبل واكمة ينخفض وتصير المعوجات مستقيمة والشعاب طرقا سهلة . ويبصر كل بشر خلاص الله .

وكان يقول للجموع الذين خرجوا ليعتمدوا منه يا اولاد الافاعي من اراكم ان تهربوا من الغضب الاتي . فاصنعوا اثمارا تليق بالتوبة ، ولا تبتدثوا تقولون في انفسكم لنا ابراهيم ابا لاني اقول لكم ان الله قادر ان يقيم من هذه الجحشارة اولادا لابراهيم . والان قد وضعت الفأس على اصل هذه الشجرة فكل شجرة لا تصنع ثمرا جيدا تقطع وتلقى في النار . وسأله الجموع قائلين فماذا نفعل فأجاب وقال لهم من له ثوبان فليعط من ليسر له ومن له فليفعل هكذا . وجاء عشارون ايضا ليعتمدوا فقالوا له يا معلم ماذا نفعل فقال لهم لا تستوفوا اكثر مما فرض لكم . وسأله جنود ايضا قائلين وماذا نفعل نحن . فقال لهم لا تظلموا احدا ولا تشوا باحد واكتفوا بعلائفكم .

واذا كان الشعب ينتظر والجميع يفكرون في قلوبهم عن يوحنا لعله المسيح اجاب يوحنا الجميع قائلا انا اعمدكم بماء ولكن يأتي من هو اقوى مني الذي لست أهلا ان احل سيور حذائه . هو سيعمدكم بالروح القدس ونار . الذي رمشه في يده وسينقي بيده ويجمع القمح الى مخزنه واما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ . وباشياء اخرى كثيرة كان يعظ الشعب ويبشرهم . اما هيرودوس رئيس الربع فاذ توبخ منه لسبب هيروديا امرأة فيلبس اخيه ولسبب جميع الشرور التي كان هيرودوس يفعلها . زاد هذا ايضا على الجميع انه حبس يوحنا في السجن .

ولما اعتمد جميع الشعب اعتمد يسوع ايضا واذا كان يصلي انفتحت السماء ونزل عليه الروح القدس بهيئة جسمية مثل حمامة وكان صوت من السماء قائلا انت ابني الحبيب بك سررت .

اما انجيل مرقس الاصحاح السادس (١٧ - ٢٩) فقد ذكر تفاصيل اوفى عن نهاية حياة يوحنا المعمدان على يد الطاغية هيرودوس بها يلي : — « لان هيرودوس نفسه كان قد ارسل وامسك يوحنا واوثقه في السجن من اجل هيروديا امرأة فيلبس اخيه اذ كان قد تزوج بها . لان يوحنا كان يقول لهيرودوس لا يحل ان تكون لك امرأة اخيك . فحنقت هيروديا عليه وارادت ان تقتله ولم تقدر لان هيرودوس كان يهاب يوحنا عالما انه رجل بار وقديس وكان يحفظه . واذا سمعه فعل كثيرا وسمعه بسرور . واذا كان يوم موافق لما صنع هيرودوس في مولده عشاء لعظمائنه وقواد الالوف ووجوه الجليل ، دخلت ابنة هيروديا ورقصت . فسرت هيرودوس والمتكئين معه . فقال الملك للصبية مهما اردت اطلبي مني فاعطيك واقسم لها ان مهما طلبت مني لاعطيك حتى نصف مملكتي ، فخرجت وقالت لامها ماذا اطلب ، فقالت راس يوحنا المعمدان . فدخلت للوقت بسرعة الى الملك وطلبت قائلة اريد ان تعطيني حالا راس يوحنا المعمدان على طبق ، فحزن الملك جدا لاجل الاقسام والمتكئين لم يرد ان يردها ، فلوقت ارسل الملك سيافا وامر ان يؤتى برأسه ، فمضى وقطع رأسه في السجن واتى برأسه على طبق واعطاه للصبية والصبية اعطته لامها ، ولما سمع تلاميذه جاءوا ورفعوا جثته ووضعوها في قبر . »

الملك هيرودس

نكرنا في الفصل السابق أن فلسطين دخلت في حكم الرومان على يد الامبراطور بومبي في سنة ٦٣ ق.م. الذي استغل الحرب الاهلية التي كانت قائمة بين المكابيين في ذلك الحين . وكانت هذه الحرب الاهلية قد نشبت بعد وفاة الملك الكسندر بانوس سنة ٧٠ ق.م. بين ولديه هركانوس واريستوبولس وبقيت الحرب بينهما سجالا أكثر من سبع سنوات .

وزاد الحرب فتنة وفسادا أحسد الوزراء المدعو أنتيباتر ، وكان هذا الأخير من الادوميين الذين أجبرهم هركانوس على دخول الديانة اليهودية فنهودوا فكان هذا يهودي المذهب أدومي الاصل روماني التبعية . وقد رزق هذا القائد ابنا سمي هيرودس عرف فيما بعد باسم الملك هيرودس .

وقد زاد حدة النيران الحرب الاهلية بين اليهود ، تلك الاختلافات المزمنة التي باصطت بين فئة المتدينين الذين كانوا يدعون « الحسيديم » ، وبين الفئة الثانية التي كانت تدعى « الحشمونيين » تلك الاختلافات التي بدأت منذ سنين طويلة .

ولما اتم بومبي احتلال اورشليم واستتب له الامر ، اقام عليها حاكما مواليا للرومان اسمه « اسكاريوس » وخوله أن يحكم باسم روما جميع البلاد السورية والفرات ومصر .

في سنة ٤٩ ق.م. توفي بومبي وجلس على العرش مكانه (يوليوس قيصر) ، فولى (انتيباتر) الحكم في سنة ٤٦ ق.م. على فلسطين وما حولها حاكما عاما عن الرومان في الشرق .

وبعد سنوات قليلة توفي انتيباتر وتسلم الحكم خلفه ابنه (فصايل) وكان اخوه هيرودس واليا في الجليل .

وفي سنة ٣٧ ق.م. عين الرومان هيرودس هذا حاكما على فلسطين وسوريا ولقبوه ملك اليهود ، وأعطوه صلاحيات واسعة حتى أصبحت فلسطين على عهده مستقلة استقلاليا تحت السيادة الرومانية .

وكان اليهود يكرهونه رغم كل محاولة من طرفه لارضائهم ، فقد كانوا يعتبرونه أجنبيا يحب التقاليد الرومانية . وفي سنة ٢٢ ق.م. أصيبت فلسطين وما حولها بوباء جارف وقحط شديد لانحباس المطر . فأرسل هيرودس الى مصر ما لديه من ذهب ونفضة ، فابتاع بها كمية كبيرة من الحنطة وزعها على المحتاجين ، وأعطى الزراع قروضا من الحنطة لاستعمالها بذارا ، على أن يردوا له حنطة بمقدار ما أخذ كل مزارع .

ولكي لا يجوع العمال اوجد لهم اشغالا ، فقام ببناء المدن والقلاع والقصور والحصون في سائر انحاء البلاد ، فبنى القلعة في القدس الكائنة بباب الخليل ، واقام له بجانب القلعة قصرا كبيرا اشتهر في التاريخ بقصر انطونيا . وشيد ايضا عددا اخر من الابراج والقلاع والهيكل والحمامات العمومية . ولما رأى هيرودس ان الشعب لا بحبه ، عمد الى ارضائهم فقام باصلاح بناء الهيكل وازاد اليه بعض الاروقة وغيرها . وقد تم هذا العمل في سنة ١١ ق.م.

شخصية هيرودس

كان هيرودس ذكيا جدا قسوي الارادة ، رجل حرب وكفاح صاحب شخصية شجاعة ومقدامة ... نظما جدا وشديد الغيرة ، ولا يتوانى في التخلص من كل شخص يشك في اخلاصه له ، ولو كان من عائلته او اقرب الناس اليه . وكلما شعر ان ملكه معرض للخطر من اي جهة كانت ، صب عليها غضبه الشديد ونكل بها شر تفكيل . فكان اول ضحايا ظلمه رئيس الكهنة ارسطوبولس شقيق زوجته (مريمنا) التي يحبها كثيرا لدرجة العبادة . ثم قتل والدة زوجته واخيرا جهز على مريمنا نفسها ، ثم بعد سنوات قتل اولادها الثلاثة منها ، حيث ساوره الشك في اخلاصهم له ونامرهم ضده .

كان هيرودس طاغية كبيرة لدرجة ان المؤرخين لعده اعتبروا قتله لاطفال بيت لحم وتخومها عندما جاء المجوس من الشرق يسألونه اين ولد ملك اليهود اعتبروا هذه المجزرة لا تذكر اذا قورنت بما قام به من اعمال انتقام فظيعة لمن شك في اخلاصهم له من نسائه واولاده وقادة جنده ، وحتى لو كانوا من اعز الناس واقربهم اليه .

وكان اسلاف هيرودس قد خلفوا له مكانين ذاتي اهمية ، وهما حصن باريث اقيم في الزاوية الشمالية الغربية من ساحة الهيكل ، ثم اصبح هذا الحصن فيما بعد له هبة ووقار كبيرين ، والمكان الثاني عرف باسم قصر هاسمونيين . وكان هيرودس قد وسعه وادخل عليه تحسينات كثيرة ، وزخرف جدرانه بالرسوم البديعة ورصف ارضيته بالموزايك الجميل . وفي هذا القصر جرت محاكمة السيد المسيح عليه السلام امام الوالي بيلاطس البنطي .

اما في سنة ٢٢ ق.م. قام هيرودس ببناء قصر اخر واسع جدا ، في الجهة الشمالية الغربية من مدينة القدس ليسكنه هو وزوجاته العديداً مع اطفالهن . وفي هذا القصر استقبل اعدادا لا تحصى من عظماء الضيوف الذين وفدوا لزيارته من سائر الممالك والدول التي عاصرت عهده . وفي هذا القصر استقبل المجوس الثلاثة القادمين من المشرق ليسألوه عن مكان وجود الطفل المولود حديثا الذي سيكون ملك اليهود . فانزعج هيرودس من هذا الخبر ، لكن دهاءه

أوحى اليه أن يظهر للمجوس عن رغبته للسجود لذلك الطفل إذا عرفوا مكانه فيذهب فيقتله . فقال المجوس اذهبوا وابحثوا عن مكانه ، فإذا وجدتموه أخبروني لكي اذهب أنا واسجد له ، كما سيجىءنكم ذلك عند ذكرنا عن وصول المجوس الى بيت لحم .

وقد تولى هيرودس الحكم مدة أربعين سنة ونوفي في سنة { ب.م. وبعد وفاة هيرودس أقام الرومان ملكا مكانه ابنه ارشيلالوس فحكم من سنة { ب.م. الى سنة ٦ ب.م. ولكن هذا الملك عجز عن ادارة البلاد فقامت في عهده عدة ثورات وقلاتل فانتشرت الفوضى في البلاد ، مما اضطر الامبراطور الروماني اغسطس أن يبقي فلسطين وسوريا تحت حكمه المباشر ، وجعلها ولاية رومانية وأبقى جيشه فيها . فأتخذ قيصرية عاصمة لهذه الولاية ، لقربها من البحر من ناحية وللحط من قيمة اورشليم من ناحية أخرى ، وراح الحكام الرومانيون يتعاقبون الحكم حسب رغبة واوامر الامبراطور الروماني .

العذراء مريم

كان والد مريم رجلا تقيا وعظيما بين العلماء في بني إسرائيل . وقد حملت زوجته فنذرت ان تجعل ما في بطنها مسن الحمل مكرسا لخدمة الهيكل . فلمسا وضعت وتبين ان الجنين كان انثى وكانت ترجو ان يكون ذكرا ليعلم في بيت الله خلفا لابيه ، توجهت الى الله تعالى قائلة :

« رب اني وضعتها انثى والله اعلم بما وضعت وليس الذكر كالانثى وانسي اسميتها مريم » ، وهذا الاسم العبراني يعني بالعربية نجمة البحر . وتقبل الله تعالى المولودة بقبول حسن وانعم عليها من الفضائل بما لم يمنحه لبشر من قبل .

وقد توفي والد مريم وهي صغيرة وتحتاج الى من يكفلها ويقوم بتنشئتها فلما قدمتها أمها الى كهنة الهيكل اختلفوا فيمن يقوم بكفالتها والقوا على ذلك قرعة فكانت من نصيب زكريا والد يوحنا المعمدان . وكان زكريا زوجا لخالة مريم فتكفلها ورعاها خير رعاية ابوية . وهكذا نشأت مريم على الطهارة والبعد عن الدنس تقضي ساعات طويلة كل يوم في الصلاة والعبادة لله سبحانه وتعالى .

وكانت عادة اليهود في ذلك الحين ان تخطب الفتاة اذا بلغت الثالثة عشر لمدة معينة ليتعرف الواحد على اخلاق رفيق حياته . فاذا اقتنع كل منهما بالآخر يعقد الزواج واذا لم يتفقا تفصل الخطوبة التي بينهما .

فلما بلغت مريم سن الرابعة عشر تقدم لخطبتها من أهلها رجل من عشريناتها لكي تكون زوجة لابنه يوسف . وكان يوسف هذا رجلا بارا متقيا لله كثيرا ، يقترب اليه بالصلاة والصيام ويرتق بعمل يديه وعرق جبينه حيث كان نجارا ماهرا صادقا في عمله لدرجة اكتسب احترام ومحبة كل من عرفه . وهكذا أصبحت مريم مخطوبة حتى يتم يوسف تحضير بيته ولوازم عرسه .

وجاء ذكر مريم في القرآن الكريم في سورة ال عمران كما يلي :-
سورة ال عمران : « ان الله اصطفى ادم ونوحا وال ابراهيم وال عمران على العالمين (٣٣) ذرية بعضها من بعض والله سميع عليهم (٣٤) اذ قالت امرأة عمران رب اني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني انك انت السميع العليم (٣٥) فلما وضعتها قالت رب اني وضعتها انثى والله اعلم بما وضعت وليس الذكر كالانثى واني سميتها مريم واني اعيزها بك وثريتها من الشيطان الرجيم (٣٦) فتقبلها ربها بقبول حسن وانبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم اني لك هذا قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب (٣٧) » .

ومنها أيضا : « واذا قالت الملائكة يا مريم ان الله اصطفاك وطهرتك واصطفاك على نساء العالمين (٤٢) يا مريم اقتنسي لريك واسجدي واركعي مع الراكعين (٤٣) ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ يلقون اقلامهم ايهم يكفل مريم وما كنت لديهم اذ يختصمون (٤٤) » .

ويقدر بعض علماء اللاهوت ان سيدتنا مريم العذراء قد عاشت حوالي ٥٩ عاما ، قدروها كما يلي :

كان عمرها ٣ سنوات عندما دخلت الهيكل وبقيت فيه ١٢ سنة . وعاشت مع السيد المسيح ٣٣ عاما . وعاشت بعد قيامته من بين الاموات ١١ عاما فيصباح مجموع ما عاشته ٥٩ عاما .

وتوفيت السيدة العذراء في القدس ودفنت بالقرب من بستان الجسمانية واقام فوق القبر الكنيسة التي نعرف حاليا باسم كنيسة ستنا مريم . ولقب ستنا مريم يطلقه في بلادنا منذ القدم المسيحيون والمسلمون على السواء عندما يجيء ذكر مريم العذراء في احاديثهم .

بشارة العذراء

وهكذا نشأت مريم على الطهارة والبعد عن الدنس ودامت على ذلك وتعلمت الصلاة والعبادة منذ نعومة اظفارها ، وكانت تقضي ساعات طويلة في الصلاة والتأمل في خلوة لوحدها .

وبينما كانت مريم ذات يوم في صلاتها ظهر لها ملاك الرب وبشرها بالحبل الالهي . وكان ذلك في الشهر السادس من حبل خالتها اليصابات بيوحنا المعمدان كما ذكر لوقا الانجيلي في الاصحاح الاول (٢٦ - ٥٦) : —

« وفي الشهر السادس ارسل جبرائيل الملاك من الله الى مدينة من الجليل اسمها الناصرة الى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف واسم العذراء مريم ، فدخل اليها الملاك وقال سلام لك ايتها المنعم عليها ، الرب معك مباركة انت في النساء . فلما رآته اضطربت من كلامه وفكرت ما عسى ان تكون هذه التحية . فقال لها الملاك لا تخافي يا مريم لانك قد وجدت نعمة عند الله . وها انت ستحبلين وتلدين ابنا وتسمينه يسوع هذا يكون عظيما وابن العلي يدعى ويعطيه الرب الاله كرسي داود ابيه . ويملك على بيت يعقوب الى الابد ولا يكون ملكه نهاية .

فقالت مريم للملاك كيف يكون هذا وانا لست اعرف رجلا ، فاجاب الملاك وقال لها الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظلك فلذلك ايضا القدوس المولود منك يدعى ابن الله . وهوذا اليصابات نسيبتك هي ايضا حبلت بابن فسمي شيخوختها وهذا هو الشهر السادس لتلك المدعوة عاقرا . لانه ليس شئ

غير ممكن لدى الله . فقالت مريم هوذا أنا امة الرب ليكن لي كقولك فمضى من عندها المسلاك .

فقامت مريم في تلك الايام وذهبت مسرعة الى الجبال في مدينة يهوذا ودخلت بيت زكريا وسلمت على اليسانبات ، فلما سمعت اليسانبات سلام مريم ارتكض الجنين في بطنها ، وامتلات اليسانبات من الروح القدس ، وصرخت بصوت عظيم وقالت مباركة انت في النساء ومباركة هي ثمرة بطنك . فمن اين لي هذا ان تأتي أم ربي الي . فهوذا حين صار صوت سلامك في اذني ارتكض الجنين بابتهاج في بطني . فطوبى للتي امنت ان يتم ما قيل لها من قبل الرب .

فقالت مريم :

تعظم نفسي الرب وتبتهج روحي بالله مخلصي . لانه نظر الى اتضاع امة فهوذا منذ الان جميع الاجيال تطوبني لان القدير صنع بي عظام واسمه قدوس ورحمته الى جيل الاجيال للذين يتقونه .

صنع قوة بذراعه ، شتت المتكبرين بفكر قلوبهم . انزل الاعزاء عن الكراسي ورفع المتضعين .

اشبع الجياع خيرات وصرف الاغنياء فارغين . عضد اسرائيل فتاة ليذكر رحمة كما كلم اباؤنا لابراهيم ونسله الى الابد .

ومكثت مريم عند خالتها نحو ثلاثة اشهر ثم رجعت الى بيتها .

ويذكر انجيل متى الاصحاح الاول (١٨-٢٤) ما يلي :-

« لما كانت مريم مخطوبة ليوسف قبل ان يجتمعا وجدت حبلى من الروح القدس فيوسف رجلها اذ كان بارا ولم يشأ ان يشعرها اراد تخليتها سرا . ولكن فيها هو متفكر في هذه الامور اذا بملك الرب قد ظهر له في حلم قائلا : يا يوسف ابن داود لا تخف ان تأخذ مريم امراتك لان الذي جبل به فيها هو من الروح القدس . فستلد ابنا وتدعو اسمه يسوع لانـه يخلص شعبه من خطاياهم . وهذا كله كان لكي يتم ما قيل من الرب بالنبى القائل . هوذا العذراء تحبل وتلد ابنا ويدعون اسمه عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا . »

فلما استيقظ يوسف من النوم فعل كما امره ملاك الرب واخذ امراته . ولم يعرفها حتى ولدت ابنها البكر ودعا اسمه يسوع . واقام يوسف مع مريم كل حياته حريصا كل الحرص على خدمة وراحة عائلته ، ويسمى المسيحيون بالعائلة المقدسة ، واتخذ هذا الاسم عنوانا للرهبانيات وكنائس وجمعيات خيرية قامت في سائر انحاء العالم خلال القرون الماضية حتى يومنا هذا .

اما بشارة مريم فجاء ذكرها في القرآن الكريم في سورة ال عمران بما يلي :

سورة آل عمران : « اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح بن مريم وجيها في الدنيا والاخرة ومن المقربين (٤٥) ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين (٤٦) قالت رب انى يكون لى ولد ولم يمسنى بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء اذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون (٤٧) ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل (٤٨) » .

وجاء في سورة مريم :

« واذكر في الكتاب مريم اذ انتبذت من اهلها مكانا شرقيا (١٦) فاتخذت من دونهم حجابا فارسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا (١٧) قالت انى اعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا (١٨) قال انما انا رسول ربك لاهب لك غلاما زكيا (١٩) قالت انى يكون لى غلام ولم يمسنى بشر ولم اك بغيا (٢٠) قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعل له آية للناس ورحمة منا وكان امرا مقضيا (٢١) » .

قصة الميلاد

سبق وذكرنا انه لما بلغت مريم سن الرابعة عشر خطبت الى شخص فاضل من عشيرتها يدعى يوسف ، وكانت مهنته نجارا . وكانت العادة السائدة في ذلك الزمان أن كل فتاة تبلغ الرابعة عشر تخطب لرجل فاضل ينال ثقة واحترام أهلها . فلما تقدم أهل يوسف لخطبة مريم لابنهم لاقى استحسان الجميع حيث كان باراً متقياً لله يتقرب إليه بالصلاة والصيام ، ويرتق بعمل يديه وعرق جبينه من مهنته نجاراً ماهراً وصانعاً في عمله .

وبما أن فلسطين في تلك الأيام كانت من ضمن البلاد التابعة للإمبراطورية الرومانية ، فقد شملها أمر قيصر بعمل احصاء عام في كل ولاية تابعة له لكي يزيد مدخوله من الضرائب المفروضة على عموم رعاياه فلا يفلت احد من هذه الضرائب . ويعتبر معظم المؤرخين أن هذا الاحصاء يرجع انه كان الاول من نوعه في المعمورة حتى ذلك الحين .

وعليه سافر يوسف النجار وخطيبته مريم من الناصرة قاصدين بيت لحم ، متحملين مشاق السفر ، وخطيبته حامل في أيامها الأخيرة ، رغم برودة جو البلاد الفلسطينية في شهري كانون اول وكانون ثاني . وأخيراً وصلا القدس ومرا من أمام قصر هيرودوس الفخم حيث كانت الطريق من أمامه ، فالتقوا بنظرة عابرة على هذا القصر . ولكن لم يخطئ ربّاهما الخطر الشديد والأذى الكبير الذي سيلحق بهما من هذا الظالم المستبد القابع خلف جدران هذا القصر المحرم دخوله لأي إنسان من غير أهله وخدم هذا الحاكم الدكتاتور .

وتابعا طريقهما فوصلا مكاناً يدعى بيت هاكرم (والذي أقيم عليه حالياً كيبوتس رامات راحيل) ، ومن التقليد المتوارث منذ القدم أن يوسف ومريم جلسا ليستريحا قرب هذا المكان بجانب بئر لا تزال قائمة حتى يومنا هذا تسمى بئر قادسمو ، والتي اندرست في سنة ١٩٦٨ حين مدت الانابيب الموصلة للماء من القدس الى مستعمرة جيلو قرب دير الطنطسور . وهكذا اندثر هذا الأثر التاريخي الذي بقي قائماً منذ ثلاثين قرناً .

ومثل هذه البئر أبار كثيرة كانت توجد على طريق قوافل التجارة بين القدس والشام ومصر ليستقي منها التجار ودوابهم . وفي حديث آخر متداول منذ القدم ، أن مريم العذراء قد شاهدت رؤيا في هذا المكان : بأن شخصين كانا يتجادلان ، أحدهما كان في غاية السرور لميلاد المسيح والآخر يرفض أن يقبل المسيح .

وبعد أن استراحا تابعا المسير الى بيت لحم ، وعندما وصلا الى حافة التلة شاهدا القرية الصغيرة بيت لحم منبسطة امامهما ، وهي التي يسكنها افراता بيت اجدادهم . وبعد مسيرة قليلة مرا بقبر راحيل حتى دخلا اخيرا بيت لحم ، فبحثا عن مكان ينزلان فيه فلم يجدا من يقبلهما حيث كان الفندق ممثلا بالقادمين الى بيت لحم للتسجيل . ولم يقبلهما احد في بيته لفقرهما . وكان مشيئة الله كانت تريد ذلك ، حتى يولد المخلص في مغارة اختارتها العناية الالهية لهذا الغرض .

ويقول بعض المؤرخين بما أن قرية بيت لحم لم تكن غريبة على يوسف ، حيث قضى معظم سني طفولته فيها ، وكان يعرف بعض المغاور التي تأوي اليها الاغنام ، فأخذ مريم الى اقربها وهناك تمت الولادة . وذكر آخرون أنه كان في بيت لحم خان وحيد لصاحبه كيفام . لم يكن لديه مكان لايواء يوسف وخطيبته فسمح لهما بالالتجاء الى المغارة التابعة للخان والقرية منه ، اذ كانت تستعمل اصطبلا لدواب نزل الخان وهناك تمت الولادة .

وقد جاء ذكر قصة الميلاد في انجيل لوقا الاصحاح الثاني (١ - ٢٥) ما يلي : « وفي تلك الايام صدر امر من افسطس قيصر بأن يكتب كل المسكونة ، وهذا الاكتتاب الاول جرى اذ كان كبريانوس والى سوريا ، فذهب الجميع ليكتبوا كل واحد في مدينته . فصعد يوسف ايضا من الجليل من مدينة الناصرة الى اليهودية الى مدينة داود التي تدعى بيت لحم لكونه من بيت داود وعشيرته ليكتب مع مريم امراته المخطوبة وهي حبل ، وبينما هما هناك تمت ايامهما لتلد ، فولدت ابنا البكر وقمطته واضجمته في المذود اذ لم يكن لهما موضع في المنزل .

وكان في تلك الكورة رعاة متبدين يحرسون حراسات الليل على رعيتهم واذا ملاك الرب وقف بهم ومجد الرب اضاء حولهم فخافوا خوفا عظيما ، فقال لهم الملاك لا تخافوا فها انا ابشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب . انه ولد لكم اليوم في مدينة داود مخلص هو المسيح الرب . وهذه العلامة تجدون طفلا مقمطا مضجعا في مذود . وظهر بفتحة مع الملاك جمهور من الجنود السماوي مسبحين الله وقائلين « المجد لله في الاعالي وعلى الارض السلام وبالناس المسرة » .

ولما مضت عنهم الملائكة الى السماء قال الرجال الرعاة لبعضهم لبعض لنذهب الان الى بيت لحم وننظر هذا الامر الواقع الذي علمنا به الرب . فجاءوا مسرعين ووجدوا مريم ويوسف والطفل مضجعا في المذود . فلما راوه اخبروا بالكلام الذي قيل لهم من هذا الصبي وكل الذين سمعوا تعجبوا مما قيل لهم من الرعاة . واما مريم فكانت تحفظ جميع هذا الكلام متفكرة به في قلبها ، ثم رجع الرعاة وهم يمجدون الله ويسبحونه على كل ما سمعوه وراوه كما قيل لهم .

ولما تمت ثمانية ايام ليختنوا الصبي سمي يسوع كما تسمى من الملاك قبل ان حبل به في البطن (وفي شريعة اليهود ان الطفل يختن بعد ثمانية ايام من ولادته كما امر الله ابراهيم بذلك) .

ولما تمت أيام تطهيرها حسب شريعة موسى صعدوا به الى اورشليم ليقدموه للرب كما هو مكتوب في ناموس الرب ان كل ذكر فاتح رحم يدعى قدوسا للرب ، ولكي يقدموا ذبيحة كما قيل في ناموس الرب زوج يمام او فرخي حمام .

وكان رجل في اورشليم اسمه سمعان وهذا الرجل كان بارا تقيا ينتظر تعزية اسرائيل والروح القدس كان عليه . وكان قد اوحى اليه بالروح القدس انه لا يرى الموت قبل ان يرى مسيح الرب . فأتى بالروح الى الهيكل . وعندما دخل بالصبي يسوع ابواه ليصنعا له حسب عادة الناموس . اخذه على ذراعيه وبارك الله وقال الان تطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام . لان عيني قد ابصرتا خلاصك الذي أعدته قدام وجه جميع الشعوب نور اعلان للامم ومجدا لشعبك اسرائيل .

وكان يوسف ومريم يتعجبان مما قيل فيه . وباركهما سمعان وقال لمريم امه ها ان هذا قد وضع لسقوط وقيام كثيرين في اسرائيل ولعلامة تقاوم وانت ايضا تجوز في نفسك سيف لتعلن افكار من الشعوب كثيرة .

حضور المجوس الثالث الى بيت لحم

في زمن الميلاد كانت بلاد فارس من عبدة النار ولها كهنة خاصة بهم يسمون مجوسا ، وكل واحد منهم يصل هذه المرتبة بعد سنين طوال يثبت خلالها انه من اهل العلم والفهم ورجاحة العقل ، ويلبس الواحد منهم زيا خاصا فاخرا من الحرير ، ولكل منهم مرتبة خاصة رفيعة عن العامة والخاصة وحتى الملك وجنوده وقادته ووزرائه ، اي ان الواحد منهم كان لمي منتهى رتبة الكهنوت لديهم .

وقد جاء في انجيل متى الاصحاح الثاني (١ - ٢٣) ما يلي :

« ولما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية في أيام هيرودس الملك اذا مجوس من المشرق قد جاءوا الى اورشليم قائلين اين هو المولود ملك اليهود ، فاننا رأينا نجمة في المشرق وأتينا نسجد له . فلما سمع هيرودس الملك اضطرب وجميع اورشليم . فجمع كل رؤساء الكهنة وكتبة الشعب وسألهم اين يولد المسيح ، فقالوا له في بيت لحم اليهودية ، لانه هكذا مكتوب بالنبي وانت يا بيت لحم ارضس يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا لان منك يخرج مدبر يرعى شعبي اسرائيل .

حينئذ دعا هيرودس المجوس سرا وتحقق منهم زمان النجم الذي ظهر ، ثم ارسلهم الى بيت لحم وقال اذهبوا وافحصوا بالتدقيق عن الصبي ومتى وجدتموه فاخبروني لكي اتي انا ايضا واسجد له . فلما سمعوا من الملك ذهبوا واذا النجم الذي راوه في المشرق يتقدمهم حتى جاء ووقف حيث كان الصبي ، فلما راوا النجم فرحوا فرحا عظيما جدا . واتوا الى البيت وراوا الصبي مع مريم امه فخرؤا وسجدوا له ، ثم فتحوا كنوزهم وقدموا له هدايا ذهبيا ولبانًا ومرًا . ثم اذ اوحى اليهم في حلم ان لا يرجعوا الى هيرودس انصرفوا في طريق اخرى الى كورثهم .

وبعدما انصرفوا اذا ملاك الرب قد ظهر ليوسف في حلم قائلا قم وخذ الصبي وامه واهرب الى مصر وكن هناك حتى اقول لك لان هيرودس مزعم ان يطلب الصبي ليهلكه . فقام واخذ الصبي وامه ليلا وانصرف الى مصر ، وكان هناك الى وفاة هيرودس لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل من مصر دعوت ابني . حينئذ لما رأى هيرودس ان المجوس سخروابه غضب جدا ، فأرسل وقتل جميع الصبيان الذين في بيت لحم وفي كل تخومها من ابن سنتين فما دون بحسب الزمان الذي تحققه من المجوس حينئذ تم ما قيل بآرميا النبي القائل : صوت سمع نفسي الرامة نوح وبكاء وعويل كثير ، راحيل تبكي على أولادها ولا تريد ان تتعزى لانهم ليسوا بهو جودين .

فلما مات هيرودس اذا ملاك الرب قد ظهر في حلم ليوسف في مصر قائلا : قم وخذ الصبي وامه واذهب الى ارض اسرائيل ، لانه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبي ، فقام واخذ الصبي وامه وجاء الى ارض اسرائيل ، ولكن لما سمع ان ارخيلوس يملك على ارض اليهودية عوضا عن هيرودس ابيه خاف ان يذهب الى هناك . واذ اوحى اليه في حلم انصرف الى نواحي الجليل ، واتى وسكن في مدينة يقال لها ناصرة لكي يتم ما قيل بالانبياء انه سيدعى ناصريا .

وحسب التقليد المتوارث منذ القدم ان المجوس لم يرجعوا الى بلادهم عن طريق القدس بل رجعوا عن طريق بيت ساحور . واخترأوا في طريقهم في مغارة اقيم فوقها حاليا دير القديس ثيودوسيوس المعروف باسم دير ابن عبيد الواقع على بعد بضعة كيلومترات شرقي بيت ساحور ، على الطريق الروماني القديم المؤدي من بيت لحم الى نهر الاردن .

واتخذ بعض المفسرين للانجيل كلمة « واتوا الى البيت » ان يوسف النجار اتخذ له بيتا وسكن مدة من الزمن في بيت لحم حتى ظهر له الملاك ، وقال له قم خذ الصبي وامه واذهب الى مصر ، لان هيرودس الملك يطلب الطفل لقتله . كذلك يتضح من استفسارات هيرودس من المجوس انهم رأوا النجم قبل سنتين من مجيئهم الى اورشليم ، لذلك أمر بقتل جميع اطفال بيت لحم وتخومها ممن بلغ السنتين فدون .

وجاء ذكر ميلاد السيد المسيح في القرآن الكريم بما يلي :
سورة مريم : فحملته فانتبذت به مكانا قصيا (٢٢) فأجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا (٢٣) فناداها من تحتها إلا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا (٢٤) وهزي اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا (٢٥) فكلي واشربي وقري عينا فاما ترين من البشر احدا نقولي اني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا (٢٦)

سورة الانبياء : والتي احصنت فرجها فنفضنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين (٩) .

سورة التحريم : ومريم ابنة عمران التي احصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين (١٢) .

وذكر اسمه في القرآن الكريم بلفظ المسيح تارة وهو لقب له . وتارة بلفظ عيسى وهو اسمه العلمى ، وبالعبرية يشوع اى المخلص ، رمزا الى نخليص بني البشر من خطيئة ادم الاصلية ، وتارة الفادي حيث يفدى الجنس البشري وبكنيته « ابن مريم » تارة اخرى . ونشأ الطفل يسوع (عيسى) واشهر بين قومه باسم ابن يوسف النجار .

ومما لم يذكر في الاناجيل ، وجاء ذكره في القرآن الكريم ، ان ينكم الطفل في مهده بما يلي :

سورة مريم : « فأتت به قومها بحمله فأثروا بما مريم لقد جئت شيئا فريا (٢٧) يا اخت هارون ما كان أبوك امرئ سوء وما كانت امك بغيا (٢٨) فأشارت اليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا (٢٩) قال اني عبد الله اتاني الكتاب وجعلني نبيا (٣٠) وجعلني مباركا اينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا (٣١) وبرا بوالدني ولم يجعلني جبارا شقيا (٣٢) والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا (٣٣) » .

فلما قربت أيام الولادة أخذت الهواجس تنتاب العذراء مريم ، وتحسب كل حساب لما سيقوله الناس عنها . وكانت تريد الجواب الذي تجيب به عذالها والمعيرين لها من أهلها وعشيرتها.

فلما أتت قومها وتحمل طفلها على يديها ، ارتاعوا لهذا الحدث النازل والخطب العظيم ، وزاد في ارتياحهم ما كانوا يعرفونه عنها من طهارة المنبت وطيب البيئة ونشأة النقي والطهارة التي نشأتها ، فأنهالوا عليها بالتوبيخ واللوم الشديدين ، وقالوا لها يا اخت هارون ما كان أبوك امرئ سوء ومما كانت أمك بغيا .

فأجابت قومها انى نذرت لربي صوما فلم اكلم أحدا . وكان الصوم عن الكلام ضربا من العبادة . فأشارت الى طفلها وهو في المهد طالبة اليهم ان يوجهوا اليه كلامهم .

استغرب قوم مريم من هذا الجواب فاعتبروه غريبا وقالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا . فلم يمهلهم الطفل فأجابهم الجواب الشافي الدال على براءة أمه ، وان الله سيجعله نبيا مباركا ، وأوصاه بالصلاة والزكاة والبر بوالدته ، كما جاء في الايات الكريمة المذكورة اعلاه .

كذلك جاء ذكر عيسى بن مريم في سورة المائدة بما يلي :
سورة المائدة : « اذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك

اذ ايدتك بروح القدس نكلم الناس في المهد وكهلا واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل . واذ تخلق من الطين كهنة الطير باذني فتنفخ فيهم سا فنكون طيرا باذني ونبريء الاكمة والابرص باذني واذ تخرج الموتى باذني واذ كففت بني اسرائيل عنك اذ جنهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم ان هذا الا سحر مبین (١١٠) » .

احتفالات عيد الميلاد في بيت لحم

في يوم ٢٤ كانون اول (ديسمبر) من كل عام ، يجتمع الكهنة ورجال الدين المسيحي والجمعيات والهيئات الرسمية ووجهاء مدينة بيت لحم وقضاؤها ، لاستقبال غبطة البطريرك قادما من مقره في القدس ، لاقامة الاحتفالات الدينية في بيت لحم بمناسبة حلول عيد الميلاد المجيد .

عند الظهر يتحرك المستقبلون بسياراتهم من ساحة المهد الى مدخل المدينة قرب قبر راحيل ، فيصل غبطته الى هناك في تمام الساعة الواحدة ظهرا ، يحرس سيارته اربعة خيالة من الشرطة على صهوة خيولهم ، اثنان من الجانب الايمن واثنان من الجانب الايسر . وهذا التقليد منيع منذ زمن العهد العثماني من سنة ١٨٥٠ م . وبقي هذا التقليد معمولا به في عهد الانتداب البريطاني والحكومة الاردنية حتى يومنا هذا .

ومنذ سنة ١٩٣٢ م ، تأسست فرقة كشافة المهد من قبل الجمعية الانطونية الخيرية البيتلحمية ، صارت الكشافة تشترك في استقبال غبطة البطريرك في عيد الميلاد . فقبل العيد بأسبوع تقوم فرقة كشافة المهد بدعوة جميع الفرق الكشفية في منطقة بيت لحم والقدس لمشاركتها في هذا الاستقبال . فيجتمع عدد كبير من الجواله والكشافة والاشبال وفرق المرشدات من البنات ، في ظهر يوم ٢٤ كانون اول من كل عام في مقر فرقة كشافة المهد . وعند الساعة الثانية عشرة ظهرا يخرج جميعهم في استعراض رائع ، كل فرقة ترافقها موسيقاها بطبولها وابواقها ، من ساحة المهد مارين بشارع النجمة حتى ابار الملك داود ، المعروفة حاليا بنادي العمل الكاثوليكي . ومن هناك يستقبلون موكب غبطته القادم من القدس ، فيتقدمون في مسيرة رائعة حتى ساحة المهد حيث يكون رئيس وأعضاء بلدية بيت لحم وممثلو الحكومة والاهالي في انتظار وصول الموكب .

وعند وصول الموكب امام دار الحكومة في ساحة المهد ، يترجل غبطته ومن معه من سياراتهم ويصافح مستقبليه ثم يرندي غبطته بزة دينية خاصة بهذه المناسبة ، ويتابع الجميع مسيرتهم في موكب ديني الى داخل كنيسة المهد ، يتقدمهم الموكب الذي كان مصطفا على جانبي الساحة من كهنة ورهبان وراهبات وطلاب وطالبات المدارس .

ويشق الموكب طريقه بين الالاف من جمهور الحشد الكبير من الاهالي والسياح والوافدين الى بيت لحم ، وقد امتلأت أسطحه وشرفات البنايات المطلة على ساحة المهد بأهالي بيت لحم وجوارها . وتكون اعداد كبيرة من مصريي التلفزيون والصحافة العالمية يلتقطون الصور التذكارية لارسالها الى سائر انحاء العالم .

ويدخل موكب الرهبان والراهبات وغيرهم داخل الكنيسة والبطريرك في المؤخرة ويسير بجانبه رئيس وأعضاء بلدية بيت لحم وممثلو الحكومة ووجهاء بيت لحم ومنطقتها ، وعندما يصل غبطة البطريرك مدخل كنيسة المهد ، يقف غبطته ويدير وجهه نحو مدينة بيت لحم ويباركها . ثم يشكر مستقبليه من ممثلي الحكومة وضباط الشرطة ويصافحهم فيعودون الى دوائرهم ، ويدخل غبطته مع مرافقيه الى الكنيسة .

ويكون في استقبال غبطته في داخل باب كنيسة المهد ، رئيس دير الفرنسيسكان في بيت لحم فيرحب بغبطته ، وبعدها يتابع الموكب سيره الى كنيسة المهد ، ثم يعرج الى المدخل الشمالي المؤدي الى رواق القديس جيروم ، ونم الى كنيسة القديسة كاترينا حيث تقام صلوات خاصة بعيد الميلاد تستمر أكثر من ساعتين . وبعدها يحل البطريرك ضيفا على دير الفرنسيسكان المحاذي لكنيسة القديسة كاترينا .

وفي الساعة الحادية عشرة والنصف ليلا ، يدخل غبطته الى كنيسة القديسة كاترينا وتبدأ صلوات قداس منتصف ليلة عيد الميلاد . وفي هذا الوقت يدخل الى الكنيسة رئيس بلدية بيت لحم ومندوبو الحكومة وقناصل الدول اللاتينية في القدس ، وهم قناصل فرنسا وايطاليا واسبانيا والنمسا ، ليحضروا قداس منتصف ليلة عيد الميلاد .

وعند انتهاء القداس تجري الدورة التقليدية من كنيسة القديسة كاترينا الى مغارة المهد ، يترأسها غبطة البطريرك . ثم يعود الموكب ثانية الى كنيسة القديسة كاترينا ، وتنتهي بذلك الاحتفالات الدينية بعيد الميلاد ، ويكون الوقت قد قارب الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، ويعود الجميع الى بيوتهم .

اما في احتفالات عيد الميلاد في سنة ١٩٤٩ ، كانت بيت لحم تحت رعاية السلطات الاردنية والسلطات المصرية ، وعليه جاء موكب غبطة البطريرك من القدس تحرسه الخيالة الاردنية . وعند قبر راحيل استقبله مع المستقبليين ستة من الشرطة العسكرية للجيش المصري على دراجاتهم البخارية فكانت طليعة الموكب أكثر من مائة جوال من الكشافة على دراجاتهم ، ثم الشرطة العسكرية المصرية على دراجاتهم البخارية ، ثلاثة منهم على الجانب الايمن ، وثلاثة على الجانب الايسر .

وجرت العادة منذ سنة ١٩٣٥ م ان يخرج أكبر عدد ممكن من الكشافة الجواله على دراجاتهم الهوائية لاستقبال غبطة البطريرك عند قبر راحيل ، ويبقى

بأقي الكشافة مع عصيهم في ساحة المهديساعدون الشرطة في حفظ النظام . ويكون فريق الجوال في طليعة موكب المستقبلين حتى يدخل مدينة بيت لحم عند قبر راحيل في الذهاب والاياب . وعندما يصل الجوال الى ساحة المهد في طليعة الموكب وخلفهم رتل طويل من سيارات المستقبلين والرسامين ، ينزل الجواله بدراجاتهم الى الشارع الفرعي على اليمين ويسندون دراجاتهم أمام دار سليم ناصر ودار حنا فليل ، ثم يعودون مسرعين الى ساحة المهد ليساعدوا في حفظ النظام مع باقي الكشافة .

وفي سنة ١٩٤٩ م كنت منضمًا الى فرقة كشافة المهد وكنت رئيس الجواله فيها ، فكان لي الشرف ان اكون في طليعة الموكب الكشفي ومعى اكثر من مائة جوال من مختلف الفرق على الدراجات العادية ، خرجنا على رأس موكب استقبال غبطة البطريرك في هذا العام . وبعد استقبال غبطته عند قبر راحيل حسب العادة المتبعة تابع الموكب مسيرته الى بيت لحم من شارع النجمة حتى ساحة المهد ، فوضعنا دراجاتنا جانبًا امام دار ناصر واسرعنا الى ساحة المهد ، وكان البطريرك قد ترجل من سيارته وصافح مستقبليه ، فتشابكت أيدي الجواله مع بعضهم مكونين طوقًا حول البطريرك ومستقبليه ، كما هي العادة في كل عام .

في عام ١٩٤٩ م كانت القدس العربية ومناطق بيت لحم ورام الله ونابلس وطولكرم وقلقيلية وجنين تحت اشراف الجيش الاردني ، وقد عينوا السيد جمال طوقان حاكمًا عسكريًا أردنيًا لهذه المناطق . فحضر بنفسه الى بيت لحم للاشراف على الاحتفالات بعيد الميلاد ، تمشيًا مع عادة كانت متبعة في عهد الانتداب البريطاني ، حيث كان يحضر الى بيت لحم من القدس للاشراف على احتفالات عيد الميلاد بالنيابة عن الحكومة ضابط الشرطة فايز بك الادريسي ، رئيس شرطة القرى في منطقة القدس ، الذي بقي في وظيفته هذه سنوات طويلة حتى نهاية الانتداب سنة ١٩٤٨ م .

وسار موكب عام ١٩٤٩ م ، من ساحة المهد الى كنيسة المهد كالمعتاد ، تطوق الموكب الشرطة وخلفهم طوق الجواله والكشافة حتى وصلوا الى اول بلاط ساحة الكنيسة . وهنا التفت السيد جمال طوقان الذي كان يرافق غبطة البطريرك ، التفت عفا خلفه الى جهة المدينة فشهد ان الكشافة هي الحارس الحقيقي للموكب والشرطة . فانتفض بانفعال وصاح في الشرطة كيف تسمحون للكشافة ان تكون خلفكم . وكنت بقربه فقلت له يا سيدي هذه هي العادة في كل عام منذ سنوات طويلة ، فحملق في بغضب ليرى من هذا الذي يرد عليه ، ولكنه لم يتكلم وربما كبح غيظه عندما راني امامه بلباس الكشافة ، وقد شاهدني مرارا خلال الساعة الماضية على رأس موكب الكشافة بالدراجات عند قبر راحيل وعلى امتداد الطريق الى ساحة المهد . المهم امر الشرطة بعصية ان تفك طوقها ، وان تعيد طوقها خلف الكشافة ، ففعلت الشرطة كما امرت .

استقبال البطريرك في بيت لحم
في زمن الاتسراك



أخذت هذه الصورة لاستقبال البطريرك في بيت لحم في أواخر القرن
المنضي بدليل :

١- تمثل أسفل الزاوية اليمنى من الصورة مكان مقبرة الروم الارثوذكس في بيت لحم
الواقعة امام كنيسة المهد ، وتظهر المقبرة بدون سور . فقد اقيم سور المقبرة
سنة ١٩٠٥ م .

٢- يظهر في أعلى الزاوية اليمنى دير الاباء السالزيان ، ويظهر في طرفه بناء
كنيسة قلب يسوع الاقدس فقط ، وبدون بناء دير الراهبات الذي يحاذي الكنيسة .
وهذا القسم من دير الراهبات بني حوالي سنة ١٨٩٠ م .

أما البناية التي تظهر في وسط الجانب الايمن من الصورة فهي السرايا القديمة في بيت لحم ، وقد بنيت بعد سنة ١٨٧٣م ، بأمر السلطان العثماني كما جاء ذكره في فصلنا عن حريق مغارة المهد في سنة ١٨٧٣م . فالطابق الاول كان القسم الامامي منه يستعمل مركز الشرطة وخلفه السجن . والقسم الذي الى جهة المدينة كان محكمة الصلح . والطابق الاعلى كان يشغل نصفه لدار البلدية والنصف الآخر لدائرة الصحة وخلف البناية كانت تسوية تستعمل اصطبلًا لخيول البوليس الراكب الذي كان يسمى الفرسان .

المأذنة الظاهرة في وسط الصورة هي المأذنة القديمة لجامع عمر بن الخطاب في بيت لحم ، الذي بنى سنة ١٨٦٢م فوق قطعة من الارض قدمها دير الروم هدية للسلطان العثماني لكسب وده وتلبية مطالبهم في اعمار كنيسة المهد . وقد هدم هذا الجامع القديم واقام مكانه في سنة ١٩٥٤م بناية جامع عمر الجديدة التي نراها في يومنا هذا .

أما الدار ذات الطابقين المحاذية لجامع عمر هي دار فريد مسلم واخوانه هدمت عند توسيع ساحة المهد الحالية في سنة ١٩٦٥م . ويقول اصحاب هذه الدار انه يوجد تحت دارهم كنيسة قديمة ينزل اليها بدرجات الى قاعة مقامة على عمدان . ورغم احتجاج اصحاب الدار ، فقد هدمت بالقوة بدون أي مراعاة لما تحتها من اثار قديمة .

الفصل الثالث

الاماكن المقدسة في بيت لحم

المباني حول كنيسة المهد

لم يستطع الباحثون ان يعينوا بالضبط اماكن اديرة القديسين جيروم وبولا لعدم تيسر ادلة او كتابات تبين هذه الاماكن ، ولكن تيسر للباحثين ان يثبتوا هؤلاء النساك . يعتقد بعض المؤرخين ان هذه الاديرة كانت مكان دير الارمن الحالي وآخرون يرجحون أنها كانت مكان كنيسة القديسة كاترينا حاليا ودير الفرنسي سكان .

وانضح للباحثين ان هذه الاديرة قد بنيت خلال سنوات ٣٨٦ و ٣٨٨ ، بأموال بولا . فالدير الخاص بالرهبان كان واقعا شمال الكنيسة ، ولاحقا في سنة ٣٩٨ م ، نظرا لازدياد وصول اللاجئين الى بيت لحم ، اضطر القديس جيروم ان يبيع البيت الصغير الذي كان يملكه في دالماتيا ، ليواجه المتطلبات الملقاة على عاتقه . فبعد ان استولى الافريق على روما سنة ٤١٠ م تدفقت منها اعداد كبيرة من اللاجئين الى بيت لحم ، بسبب اضطهاد الامبراطور الروماني للمسيحيين في بلاده .

كان الدير حصينا جدا وله برج للمراقبة ، وفي هذا البرج احتفى القديس جيروم في سنة ٤١٦ م ، عندما هاجم قوم من الرهبان المنشقين دير جيروم فبي بيت لحم ، محاولين احراقه بالنار وارتكبوا الكثير من الاعمال العنيفة وقتلوا الشمساس . وكان الهجوم عنيفا جدا لدرجة ان القديس جيروم ذكر في كتاباته بعد سنتين من هذا الحادث ان الخراب لا يزال يعم نواحي كثيرة من ديره في بيت لحم ، وأضاف قائلا انه أفضل الف مرة للمرء ان يأكل خبزا جافا من ان يفقد ايمانه .

وفي سنة ٤٢٠ م توفي القديس جيروم ومن ذلك الحين لم يجد الباحثون اي ذكر لاديرة جيروم في بيت لحم . اما دير الراهبات الذي كان بجانب كنيسة المهد لم يتأكد احد من مكانه بالضبط . لكنه كان يحوي خمسين راهبة ، وكان تحت اشراف استوكيوم ، وتبعها في الادارة بولا الصغيرة حفيدة بولا الام المؤسسة ، وهي ثلاثة واخر رئيسة لدير الراهبات في بيت لحم .

وبعد سنة ٤٣٩ م لم يذكر التاريخ شيئا عن رهبان وراهبات اللاتين فسي بيت لحم . ربما قد تلاشت حياة الرهبنة في بيت لحم لسنوات طويلة . في سنة ٨٠٠ م اقيم دير للرهبان البندكتيين ، لكن بنسبة اخف من السابق اي بأعداد قليلة ، اما مكان دار الضيافة التي بنيت لايواء الحجاج والزوار فلم يذكر احد عن مكان وجودها بالضبط . ويرجح انها كانت مكان دير الارمن الحالي . كذلك

تدل بعض الكتابات أن بعض الرهبان والنساك سكنوا في بيت لحم قبل مجيء القديس جيروم إليها ، وكانت أماكنهم حول كنيسة الميلاد .

في عهد البيزنطيين أضيفت عدة غرف في شمال الكنيسة مكان دير الارمن الحالي ، واستعملت أحداها مكاناً للمعمودية ، كذلك كانت مقبرة بيزنطية على أول طريق بيت ساحور ، مكان ملعب مدرسة تراسنطا القديم . وفي سنة ١٩٣٨م وجد بالصدفة أثناء بعض الحفريات في هذا المكان حجر قبر مكسور نقش عليه اسم بوعاز وراعوث وبجانبه أربعة قبور أخرى .

ولما احتل الصليبيون بيت لحم أقاموا عدة مباني حول الكنيسة في بيت لحم ولا تزال نشاهد بعضها حتى يومنا هذا في دير الروم . وهذه المباني المختلفة لها ميزات مشتركة ، المنظر الخارجي الفخم والمنسق بالجدران السمكية لمقاومة الهجوم وعوامل الزمن ، وحجارتها من مختلف الأحجام ، وأحيانا مربعة الحجم وضخمة .

وفي القرون الوسطى كانت المباني حول الكنيسة محاطة بسور طوله أقل من ألف متر ، ولا يزال بعض هذه المباني قائما بشكل جيد حتى يومنا هذا . وشمال كنيسة المهد اقيم دير القديس اغسطين والذي أصبح منذ سنة ١٣٤٧م ، أي سنة سكن رهبان الفرنسيين في بيت لحم ، ديرا للرهبان الفرنسيين وفي جنوب الكنيسة يقع برج الحرس ، الذي حول فيها بعد مسكن للرهبان اليونان وعرف باسم دير الروم في بيت لحم . وفي الجهة الجنوبية الغربية اقيمت غرف كبيرة ، وكانت تستعمل مسكنا لاسقف بيت لحم ودار الحكم فيها لكنها مع مرور الايام تحولت الى طائفة الارمن واصبحت تعرف باسم دير الارمن في بيت لحم .

كان دير القديس اغسطين واسعا ، مبني على تلة تحاذي كنيسة المهد من جهة الشمال ، بشكل يتعذر الوصول اليه من ثلاث جهات ، أي حصينا جدا بطبيعة موقعه وبنائه ، ومحيا بسور وأبراج حراسة . وأضيف الى هذا الدير ضمن السور الخارجي عدة غرف وبعضها ذات طابقين ، أما غرف النوم بحسب العادة السائدة في ذلك الحين فقد كانت مشتركة وتتسع كل غرفة واسعة لنوم عدة أشخاص .

ومنذ سنة ١٣٤٧م بعد استقرار الارباء الفرنسيين في بيت لحم ، اجروا عدة تغييرات او تحسينات على ديرهم حسب الحاجة وحسب متطلبات كل وقت . ولكن كان يتم كل شيء ضمن حدود الدير القديم ، أي بدون توسيع مساحته . وكان للدير كنيسة للصلاة باسم القديسة كاترينا الاسكندرية ، لكن هذه الكنيسة أعيد بناؤها وأصبحت في وقتنا الحاضر كنيسة رعية اللاتين في بيت لحم . تجري فيها مراسيم العمد والزواج والصلاة على الموتى قبل دفنهم والجنايز والاحتفالات الدينية للرعية في مختلف الاعياد والمناسبات الدينية .

كنيسة المهدي عبر التاريخ

دعنا ننظر الى كنيسة المهدي من خلال عيون الذين عاشوا في بيت لحم ، او زاروها خلال القرون الماضية ، فكل واحد منهم يصف الاماكن المقدسة بأسلوب يغير الآخرين ، ونستنتج منهم جميعاً تاريخاً شاملاً لمدينة بيت لحم وكنيستها .

من القرن الرابع حتى القرن الحادي عشر

في سنة ٣٣٠ م ذكر زائر للاماكن المقدسة جاء من بوردو ما يلي :
« هناك ، حيث ولد السيد المسيح اقيمت كنيسة بأمر الامبراطور قسطنطين كانت من أبهى الكنائس واروعها » .

في سنة ٣٣٥ م جاء تأكيد آخر من ايوسيبيوس من قيصرية . ان الكنيسة في بيت لحم قد اقيمت فوق مغارة غامضة . تشبه اخرى في جبل الزيتون وثالثة في القدس اقيم فوق كل منها كنيسة بأمر الامبراطور قسطنطين . كان شرف كبير لبلاد فلسطين ان احتوت على ثلاث مغاور زين الامبراطور قسطنطين كلا منها ببناء فخم مزدان بأبهى زخرف . وفي سنة ٣٣٧ م عاد ايوسيبيوس فذكر ، ان الامبراطورة هيلانة كانت ورعة جسداً ، فقدمت كل ما استطاعت اليه من زينة وستائر مزخرفة لتزيين كنيسة بيت لحم ، اكراما للذكرى ولادة مريم العذراء للمخلص في ذلك المكان . ثم قال اما ابنها الامبراطور فجعل مغارة الميلاد تتللا بما قدمه من جواهر وزينة ، بالاضافة الى كرم والدته الامبراطورة التي قدمت مجموعة من افخر الستائر الملوكية مزركشة بالفضة والذهب .

في سنة ٣٩٠ م تركت اوثيريا ، اول امرأة حجت الى الاماكن المقدسة ، تركت دفتر مذكرات يومية لرحلتها جاء فيه عن بيت لحم ما يلي :

« يعجز الانسان ان يصف الزينة الباهرة التي شاهناها في كنائس الصعود ، ومكان وجود الصليب ومغارة مولد المسيح في بيت لحم في ذلك اليوم ، اثناء الاحتفال بعيد الغطاس . فلا نشاهد اي شيء اخر سوى الذهب والحجارة الثمينة والحريز ، فنشاهد ملابس الكهنة الثمينة وقد حيكّت من الحرير ووشيت بالذهب . وكذلك الحال بالنسبة للستائر التي تكسو جدران الكنيسة من الداخل . كذلك الاوعية المقدسة بكل انواعها التي استعملت في ذلك اليوم ، كانت مصنوعة من الذهب ومرصعة بالحجارة الثمينة . ولا ادري ماذا اقول عن زينة مباني هذه الكنائس التي اقامها الامبراطور قسطنطين تحت اشراف والدته ومصادر ثروته مملكته ، فكانت مزدانة بالذهب والموزاييك والرخام الثمين » .

أن الوصف كان مقتضيا ولكنه كاف للاستنتاج الكثير عن حالة هذه الكنائس .
فالبناء الذي أقامه الامبراطور قسطنطين فوق المغارة مباشرة ، فانه وامه قد
انفقوا عليه مالا كثيرا وبالتالي كانت الزينات باهظة التكاليف ، والارض مبلطة
بالموزاييك ، والهيكل وما حوله ملبس بالرخام الفاخر ، والقناديل مصنوعة من
الذهب الخالص .

ان كنيسة الميلاد التي بناها الامبراطور قسطنطين بقيت قائمة حوالى
قرنين . وذكر اتيخيوس Eutychius بطريرك الاسكندرية في سنة ٨٧٦ م ، انه
في سنة ٢١ من حكم الامبراطور جوستنيان ثار السامريون في فلسطين ، فنهبوا
الكنائس ، ودمروها ، واشعلوا فيها النيران ، واحرقوا ، وقتلوا أعدادا
كبيرة من المسيحيين ، وساموا من بقى حيا منهم بعد ذلك أنواع العذاب ، حتى
قتلوا اسقف نابلس ومن كان معه من الرهبان . وصلت اخبار ثورة السامريين
وما جرى على ايديهم من تخريب وقتل ، الى مسامح الامبراطور جوستنيان ، فأرسل
جيشا كبيرا ، أخمد ثورة السامريين بعد ان قتل منهم اعدادا كبيرة ، واستعاد البلاد
من ايديهم ، وفرضت عليه عقوبات صارمة .

فلما استقرت الأمور طلب بطرس بطريرك القدس من مار سابا ان يذهب
الى القسطنطينية ، ويطلب من الامبراطور أن يعفى سكان فلسطين من الضرائب
لسوء حالتهم ، فلبى الامبراطور طلبه . وزاد عليه مكرمة فوقها ، فانتدب مندوبا
خاصا عنه ، وزوده بأموال طائلة ، وطلب من نائبه في فلسطين أن يسلم مندوبه
جميع عائدات الضرائب في فلسطين حتى يتمكن من تنفيذ البناء الذي أمره به
الامبراطور ، وزوده بالمهندسين والبنائين والعمال المهرة وكل ما يلزمه ، وأوصاه
بأن تكون كنيسة المهد اوسع وأخف من الكنيسة التي هدمت ، وحتى أخف من
كنيسة القدس . وبعد مرور عام من العمل فان الامبراطور شك في أمانة مندوبه
واتهمه باختلاس بعض الأموال فأمر بإعدامه وتم تنفيذ الأمر .

ويستدل مما ذكره بطريرك الاسكندرية اتيخيوس أن تدمير الكنيسة لم يكن شاملا
في ثورة السامريين ، ولكن الامبراطور شاء أن يهدم كنيسة قسطنطين ويبني غيرها في
مكانها تكون أطول من الاولى وذات ثلاث حنيات لتكون على شكل صليب كبير .
ومنذ ذلك العهد ، أخذت كنيسة المهد شكلها الحالي .

ويؤكد بطريرك الاسكندرية في مخطوط جمال الكنيسة من الخارج ومن الداخل
وجود أرضية موزاييك مطعمة بالذهب وبلاط الرخام الجميل يزين أرضية وجدران
الكنيسة ، ولم يكن ، في العالم أجمع ، مثيل لجمال كنيسة المهد في ذلك العهد .

في سنة ١١٠٦م زار الاسقف الروسي دانيال كنيسة المهد فوصفها بما يلي :
« أنها كنيسة واسعة ، شيدت على شكل صليب فوق مغارة المهد ، يغطيها
سطح خشبي وفوقه طبقة من المعادن جدرانها مزدانة بالصور والموزاييك ، وفيها

خمسون عامودا ، كل واحد منها مكوّن من قطعة حجرية واحدة ، ويرتكز على قاعدة صخرية كبيرة ، ويعلوه تاج حجري مزخرف . لها ثلاثة أبواب طولها عند الهيكل الكبير ٥٠ خطوة وعرضها ٢٠ خطوة وتحت الهيكل الكبير توجد مغارة المهد حيث ولد السيد المسيح ، وهي كهف واسع جميل .

من القرن الثاني عشر حتى وقتنا الحاضر

خلال هذه المدة لم يجر أي تغيير لشكل البناء الحالي لكن أجريت تصليحات مختلفة من الداخل بسبب التلف مع مرور الزمن ، أو العبث بأيدي الحكام من وقت لآخر حسب أهوائهم وميولهم ، وفي سنة ١٩٥٦ م قام الاب برنارد اميكو Amico بوضع رسومات للاماكن المقدسة في بيت لحم ، تبين شكلها مع مقاساتها بدقة .

لقد ذكر بعض الزوار للاماكن المقدسة بوجود أبراج أجراس مقامة فوق الكنيسة لكن لم يذكر أحد منهم مكانها ، في سنة ١٣٢٢ م ذكر دي منديل J. Maundville ان الكنيسة مقام عليها أجراس بديعة عليها نقوش جميلة . وقد ذكر الاب فيليكس Filex Faber في سنة ١٤٨٠ م ، ان الشرّكس عندما حكموا فلسطين أمروا بإزالة الاجراس من فوق الكنائس بصرف النظر ان كانت كبيرة او صغيرة ، وحتى انهم أمروا بإزالة الاجراس من فوق كنيسة القبر المقدس في القدس . وقد ذكر بعض المؤرخين ان أجراس الكنائس قد أزيلت في سنة ١٤٥٢ م بأمر السلطان محمد الثاني وربما قبل ذلك بقرن .

في سنة ١٨٦٣ م ، عثر أثناء بعض الحفريات التي جرت قرب مطبخ دير الفرنسيّسكان في بيت لحم ، على ثلاثة أجراس ومعها بعض الاواني المقدسة مدفونة في الارض هناك . وفي سنة ١٩٠٦ أثناء الحفريات لاقامة مبنى الكازاتونا بجانب المهد ، عثر على ثلاثة عشر جرسا مدفونة هناك ، من مختلف الأحجام والرنات « صوت رنين الجرس » ، وكان منقوشا باللاتينية على أصغر جرس ما معناه بالعربية « صوت الرب » .

منذ عهد ما قبل الصليبيين كان السقف من خشب الارز مدعوما بعوارض متعاكسة لتحمل السقف . وبقي شكل السقف على ما هو عليه حتى يومنا هذا . وتشير بعض مذكرات الرهبان انه جرى تبديل سقف كنيسة المهد مرتين : الاولى في سنة ١٤٨٠ م والثانية في سنة ١٦٧١ م ، قام به اليونانيون . وبالإضافة الى ما تقدم فقد قام الاباء الفرنسيّسكان بصيانة جذرية للسقف سنة ١٦٠٧ وسنة ١٦١٧ م .

في سنة ١٤٦١ م ذكر روتشورت La Rochechourt وأعبر عن أسفه الشديد للتلف الكبير الذي أصاب سقف كنيسة المهد . فذكر ان الشراكسة مانعوا في أي إعادة بناء أو تصليح مهما كان نوعه ، وانهسا لاجوبة ، ببركة الطفل الذي ولد هناك ، ان السقف لا يزال متماسكا فلا يسقط على رؤوس المصلين .

في سنة ١٤٨٠م ذكر الاب فابر وصف الكنيسة المهد فقال عنها انها كنيسة واسعة تشبه مخزنا واسعا بلا قش ، وصيدلية بدون اوعية ، ومكتبة بلا كتب ، فان طيور الحمام والسنونو تطير بكل حرية داخلية الى الكنيسة وخارجة منها من خلال الثقوب الموجودة في السقف .

في سنة ١٤٨٥م كتب الاب سوريانو Suiano عن اعادة بناء السقف الذي جرى في سنة ١٤٨٠م . فقال لقد استعمل في بناء السقف الجديد اعمدة كبيرة من الخشب استوردت من الخارج ووضعت فوقها صفائح الرصاص . وفي سنة ١٥٦٦م ذكر الاب اميكو انه بسبب صفائح الرصاص التي تغطي سقف الكنيسة فان الابهاء الفرنسيين عاتوا كثيرا ، فلم يكذب احد جنود الانراك حتى يحاول ان يقطع او يقتلع شيئا من صفائح الرصاص هذه ليصنع منها رصاصات صغيرة يحشو بها بندقيته البدائية ، وكلما حاول احد الرهبان ان يمنعهم من ذلك كان يلاقى بالضرب والاهانة والشنائم .

وفي سنة ١٦٧٤م ذكر الاب نو Nan ان اليونانيين اضطروا ان يقوموا باصلاح سقف كنيسة المهد بسبب فقدان صفائح الرصاص من فوق السطح بواسطة اعداء الدين ، مما سبب تلف العوارض الخشبية لتعرضها للأمطار على مرور السنين ، واصبح كل شيء معفنا واسود اللون .

في سنة ١١٧٢م ذكر ثيودريك Theodrich ان الصليبيين قد نصبوا فوق سطح الكنيسة صليبا كبيرا من النحاس مزداناً بنقوش جميلة . وبالنسبة لارضية الكنيسة ذكر دانيال انها قد غطت ببلاط جميل من الرخام الابيض . وفي سنة ١٥٥٣م ذكر راهب اسباني ان كل ارضية الكنيسة كانت مغطاة بأبهى بلاط الرخام الابيض ، ولكن الاتراك خلعوه واخذوه وبلطوا به ارضية المسجد الأقصى .

في سنة ١٦٢٨م ذكر الاب قورازمي Quaresmi ان ارضية الكنيسة والمكان العلوي مكان الهيكل قد بلط بالبلاط المرمرى الجميل ، ولكن جاء من دمر ارضية الكنيسة وانتزع هذا البلاط الجميل . فوضع محله مزيجا من كسر الفخار المدقوق والكلس ، واصبحت ارضية الكنيسة حمراء (أي عملوا مادة كما يسميها العامة وغطوا ارضية الكنيسة) . وهذا النوع من الطين كان يستعمل حتى مطلع القرن العشرين في فلسطين في قصارة آبار مياه الشرب المحفورة في الصحراء او الغور . أما بلاط ارضية الكنيسة الحالي (أي ما بين الاعمدة) فقد وضع في سنة ١٨٤٢م عندما قام اليونانيون بتصليح اثر الخراب الذي لحق بالكنيسة من زلزال سنة ١٨٣٤م ، وقد اخذ البلاط من منطقة بيت لحم من المحاجر المعروفة بالموردة قرب مكاتب التربية والتعليم الحالية في بيت لحم .

وقد ذكر المرحوم الاب البيروتو ريشاني خوري طائفة اللاتين في بيت لحم من سنة ١٩٣٥ - ١٩٥٢م ، في كتاب تاريخ الابهاء الفرنسيين في بيت لحم من سنة ١٣٤٧ - ١٩٤٧م ما يلي :-

« دخل الالباء الفرنسييون بيت لحم سنة ١٣٤٧ م . ومع ان التاريخ لم يحفظ لنا اليوم والشهر اللذين دخلوا فيها هذه المدينة المحبوبة ، لكنه حفظ لنا السنة . ومنذ حل الالباء الفرنسييون في بيت لحم تولوا كنيسة المهد بعنايتهم وأحيوا المراسيم الدينية في مهد الخلاص ، وردوا للكنيسة والمهد بهاءهما ورونقهما الديني . وكانت هذه اولى اعمالهم ، بعد ان حصلوا على مأوى النجاة اليه ، ليستريحوا من عناء النهار واتعاب الليل .

ففي سنة ١٣٩٥ م خابر رئيس دير بيت لحم حضرة الرئيس العام في القدس في امر ترميم كنيسة المهد لان سقفها كان متداعيا ، ورصاصة اكل عليه الدهر وشرب . فاقتنع حضرته بلزوم ترميم ما يجب ترميمه ، والعمل على تجديد الخشب والرصاص ، فالتجأ الى السلطان (برقوق) وحصل منه على فرمان مؤرخ في ٢٠ شوال سنة ٧٩٧ هجرية الموافق للثامن من شهر اب سنة ١٣٩٥ م . ومن ثم خابر حضرة الرئيس العام ملوك الافرنج ومسيحيي اوربا طالبا المساعدة ، وقد حصل على ما يلزم من حسنات ومساعدات ، لدفع اجرة العمال وثمان الرصاص والخشب اللازم لسقف كنيسة المهد . ولكن ذلك لم يتم في زمن الملك المذكور بل في زمن ولاية ابنه (فرج) ، بعد ان تجسم الالباء الفرنسييون اتعابا جمة والاما شتى ، كالضرب والحبس والاهانات . ولولا ان الرب لطف بعباده ، وحنن قلب نائب السلطنة في الشام المدهو (ثغري بردي) لما تم لهم ما تمنوا وابتغوا فمالوا منه خمسة مراسيم متتالية ، تاريخها: السادس عشر والثامن من ربيع الاول ، والرابع والعشرون مكر من ربيع الآخر ، والسادس عشر من جمادى الاولى . وكلها في سنة ٨١٤ هـ . الموافقة لسنة ١٤١١ م . فامتثلت السلطنة الفلسطينية لاوامر السلطان برقوق واوامر كافل الملكة الشريفة الشامية وصدرت الفتاوى الشرعية ، باجازة الترميم وابدال اخشاب ورصاص سقف الكنيسة .

كان على الالباء الفرنسيين ان يهيئوا الطرق ويعبدوها لسير العربات وجلب الاخشاب عليها من اسكلة غزة الى بيت لحم . فاستأذنوا السلطة بذلك حسب منطوق فرمانات . فصدر الامر باعداد الطريق ، وكتبت بذلك حجة شرعية تاريخها الثالث عشر من جمادى الاخر سنة ٨١٤ هـ الموافق في ٢٢ ايلول سنة ١٤١١ م . وبعد اتمام معدات الترميم باشر الالباء الفرنسييون العمل ، واعادوا لكنيسة المهد رونقها بعد ان صانوها من التداعي .

وقد رمموا كنيسة المهد فبنوا العضادة التي تدعم بناء الكنيسة ، كما انهم سنة ٩٧٢ هـ . اعادوا ترميم الكنيسة وظل شانهم كذلك على توالي الايام الى زمن السلطان براد الرابع ، الذي بأمر منه سلبت حقوق الالباء الفرنسيين من أماكن مقدسة كثيرة ومن ضمنها كنيسة المهد .

ولا يظن القاريء ان الالباء الفرنسيين كانوا يحصلون بسهولة على الاوامر السلطانية ، فما سجله التاريخ ، وما تقر به فرمانات السلطانية

العديدة ، كاف ليؤكد ان ما لاقاه الابطاء الفرنسيون في بيت لحم من متاعب والام كان فوق طاقة الانسان . وان الاضطهادات المتوالية التي ذاقوها ، والسجون التي دخلوها ، وانواع العذابات والجلد حتى الموت التي تحملوها ، لم ينحملها الرهبان المذكورون الا رغبة في حفظ حقوق ابناء الكنيسة الكاثوليكية في المقامات المقدسة ، لنظل لهم حريسة الزيارة والتعبد فيها وخصوصا في المحل الذي ولد فيه المخلص .

ولم تقتصر عناية الابطاء الفرنسيين في بيت لحم على الاماكن المقدسة فقط ، بل تعدتها الى العناية بالزوار الذين كانوا يؤمنون ببيت لحم فحموهم من ظلم السلطات المحلية ، ودافعوا عنهم وتوسطوا لدى السلاطين وحصلوا منهم على فرائمانات عديدة ، يأمرهم بها ارباب الحكم في فلسطين ان يرفعوا عن الزوار المظالم والمغارم التي يلحقونها بهم . ولأجل راحة الزوار في بيت لحم بنى الابطاء الفرنسيون دارا قريبا ديرهم (كازانوف) لينزل فيها الزوار على الرحب والسعة . وكثيرا ما كانوا يدفعون عنهم الحقوق الديوانية ورسم دخول وامثال ذلك وهكذا يرجع كل زائر الى بلاده بعد ان يكون قد اتم زيارته واشبع نفسه من التعبد ، مشيعا باللفظ والحنو والعناية التي استقبل بها عند دخوله مدينة السلام .

وكان الابطاء الفرنسيون يقيمون المراسيم الدينية في كنيسة المهد فيتقاطر المسيحيون لحضورها . ولكن تلك الكنيسة التي امتلكوها الى سنة ١٧٥٧م اغتصبها منهم الروم بفرمان من (مراد الرابع) . ولكنهم استعاضوا عنها بالكنيسة المشادة على اسم القديسة كاترينا البتول الشهيدة بعد ان رموها ، وبدأوا يقيمون الحفلات الدينية فيها .

كنيسة المهد في الوقت الحاضر

عندما يلقي الزائر أول نظرة على كنيسة المهد من الخارج قبل دخوله أياها ، يلفت نظره شكل الكنيسة الذي هو أقرب الى الحصن المنيع منه الى الكنيسة ، فواجهة الكنيسة الاصلية كان لها ثلاثة مداخل ، الرئيسي في الوسط وهو أعلاها ومدخلان على جانبيه الايسر والايمن سدا بالحجارة في العصور السابقة . وقد بنيت هذه المداخل في عهد الامبراطور جوستنيان عندما أعاد بناء كنيسة المهد في مكان كنيسة قسطنطين .

والمدخل الاوسط اذا تأمل الزائر بناءه ، يجده قد صغر حجمه ثلاث مرات . مقوس الباب الاعلى هو ما كان عليه في عهد الامبراطور جوستنيان . ثم صغر الباب بقوس أصغر من السابق في عهد الصليبيين في القرن الثاني عشر . ثم صغر الباب الى حالته الحالية في سنة ١٥٠٠ م في زمن المماليك ، لمنع دخول الجمال والخيول الى الكنيسة ، تاركا مدخلا صغيرا وضيقا مما يضطر الداخل الى الكنيسة أن يحنى رأسه ويثني ركبتيه ان كان طويل القامة ، وكان هذا الباب يقول للداخل : احن قامتك أيها المتكبر اذا كنت محبا للرب . فكانت الكنيسة على مر العصور تستعمل حصنا يلتجئ اليه سكان بيت لحم في أيام الضيق كلما تعرضوا لغزو او حرب . وآخر مرة التجأ اهالي بيت لحم الى كنيسة المهد كان يوم الاربعاء الموافق ٦-٧-١٩٦٧ .

أما البابان الجانبيان فالايمن قد اختفى خلف جدار دير الارمن ولا زال طرف قوسه الاعلى بارزا قليلا منه عند هذه الزاوية . والباب الايسر الذي هو من جهة دير اللاتين يمكن مشاهدة أعلاه بعد الدعامة المقامة قرب الباب الصغير . وأقيمت الدعامة هذه في العصور السابقة لدعم جدار الكنيسة عندما تعرضت لبعض الزلازل عدة مرات . وكان بين الابواب شبكا كان سد أحدهما بالحجارة ولا يزال ذلك بارزا للعيان ، والشبكا الثاني بقي مفتوحا في وسط الدعامة .

وبعد أن ندخل من هذا الباب الصغير الى داخل كنيسة المهد ، نقف في ايوان معتم ، كانت له ثلاثة أبواب عالية واسعة ، تقابل المداخل الثلاثة الاصلية للكنيسة . وقد سد البابان الجانبيان بالحجارة لدعم البناء ، وبقي الباب الاوسط فقط ، يدخل منه مباشرة الى الكنيسة ذات البهاء والجلال . وقد اعتاد اهالي بيت لحم منذ القدم أن يسموا داخل الكنيسة (بين العمدان) لوجود اربعة صفوف من الاعمدة تقوم عليها الكنيسة .

وهذا الايوان او الرواق معتم وبسيط التركيب وقد بقي على قدمه .

ويوجد الى يمين هذا الايوان باب صغير يصعد منه الى دير الارمن المسمى
للكنيسة . وفي اليسار من هذا الايوان باب اخر يؤدي الى حجرة كانت في السابق
تستعمل مدرسة لتدريس الاحداث من الروم الوطنيين ثم استعملت في عهد
الانتداب البريطاني مقرا لشرطي الحراسة المناوب في الكنيسة ، منذ مطلع القرن
الحالي حتى يومنا هذا .

وتدخل من هذا الايوان الى داخل كنيسة المهد من خلال باب خشبي عليه
نقوش تمثل من القرن العاشر حتى الثالث عشر . وهذا الباب تبرع به
شخصان ارمنيان في سنة ١٢٢٧ . وقد نقش على الباب باللغة الارمنية ما يلي :

صنع باب كنيسة ام الاله المباركة عام ٦٧٦ بأيدي ابراهيم والاب اراكل
زمن هيثوم بن قسطندي ملك ارمينيا ، ليرحم الرب ارواحهم ، والتاريخ الارمني
٦٧٦ يقابل سنة ١٢٢٧ ميلادي . اما الكتابة بالعربية فتقرأ (انتهى العمل
بصنع هذا الباب بعون الله تعالى في أيام سيدنا السلطان المالك المعظم في شهر
رمضان عام ٦٢٤ هـ) .

وعندما ندخل من هذا الباب الخشبي الى داخل الكنيسة التي تبلغ مساحتها
حوالي ١٢٠٠٠ مترا مربعا مقسمة الى ثلاثة اقسام ، صدر واسع وجناحين من
الجهة اليمنى وجناحين من الجهة اليسرى يقسم بينها اربعة صفوف من الاعمدة
الحجرية الوردية اللون ، قطعت من محاجر بيت لحم من المكان المعروف في
يومنا هذا بارض الصليب (تصغير كلمة الصليب) خلف دير الطنطور من جهة
الغرب ، قطعها ونحتها مهندسو الامبراطور جوستنيان ، ومن هذا المكان
قطعوا ونحتوا الاعمدة التي بنوا عليها كنيسة العذراء مريم في القدس .

وفي كل صف احد عشر عمودا ، وكل عمود مؤلف من قطعة واحدة يرتكز على
قاعدة حجرية ، وفوقه تاج من الحجر كورنثي النقش له صليب بارز . وطول
العمود مع القاعدة والتاج ٧٠ متر . وتمتد على رؤوس هذه الاعمدة عوارض
خشبية ضخمة منقوشة من اسفلها . ويقوم فوق صفي الاعمدة على جانبي
الصدر الشمالي والجنوبي جدار من كل جانب ارتفاعه (٩٦٠ مترا) ويتخلل كل
جدار عشر نوافذ متوسطة الحجم اعلاها قوسي الشكل ، تضيء داخل الكنيسة .
ويرتكز على اعلى الجدار من كل جانب العوارض الخشبية الضخمة الساندة
لستف الكنيسة الخشبي .

وكانت شبابيك في جوانب الكنيسة الجنوبي والشمالي حتى عهد الصليبيين ،
ثم سدت بالحجارة لدعم جدران الكنيسة ، ولا تزال هذه الشبابيك ظاهرة للعيان في
جدران الكنيسة من الخارج . وربما سدت لاسباب امنية او لتقوية جدران
الكنيسة .

وكانت جميع جدران الكنيسة منقوشة بابدع الصور ، يمثل كل منها حدثا مما جاء

ذكره في الانجيل . فهذه الصورة تمثل ميلاد السيد المسيح والمجوس يقدمون له الهدايا ، واخرى تمثل يوحنا المعمدان وهو يعمد المسيح في نهر الاردن ، واخرى تمثل العشاء الاخير للمسيح وتلاميذه ، وصور اخرى غيرها تلفت مع مرور الزمن ، ولا تكاد تميز في وقتنا الحاضر . والموزاييك في ارضية الكنيسة يشهد بجمال وفخامة هذه الكنيسة خلال العصور الماضية .

وفي الجناح الجنوبي من الكنيسة ، على يمين الداخل ، يوجد جرن للمعمودية ، مئمن الاضلاع ، منحوت من حجر وردي احمر من نفس حجارة الاعمدة . وفي العصور السالفة كانت تجري طقوس عماد في هذا الموقع للحجاج والزوار ، ومعظمهم كان ينذر ان يعمد ابنائه في كنيسة المهد في بيت لحم .

والى يمين هذا الجرن يوجد باب يؤدي الى دير الروم . وهذا الباب يفتح فقط في الاعياد الاحتفالية لخرج منه المطران والاكليروس والشعب الى دير الروم بعد انتهاء صلوات العيد ، ليتقدم الشعب بتهانيه الى المطران والاكليروس .

في سنة ١٩٣٤ قامت دائرة الآثار العامة لحكومة الانتداب في فلسطين باجراء حفريات حول قواعد الاعمدة في كنيسة المهد لتتأكد من سلامة هذه القواعد وقوة احتمالها فاكشفوا أن الاساسات قوية وعميقة ، تنخفض حوالي مترا عن ارضية الكنيسة مما يدل على وجود ارضية اخرى اعماق من الارضية الحالية . فباشروا في حفر ارضية الكنيسة فوجدوا على عمق ٧٥ سنتمترا ارضية اخرى مغروشة بالموزاييك ولكن معظمه كان نافيا . فعملوا جدران جانبية حول الاقسام الغير التالفة وعملوا لها غطاء خشبيا واعادوا طمر ارضية الكنيسة . وعليه يجد الداخل لزيارة كنيسة المهد في يومنا هذا ، بعض الاقسام المغطاة بأبواب خشبية ، ويشاهد نحتها ابداع اشغال الموزاييك .

كذلك شملت الحفريات في سنة ١٩٣٤ الساحة امام الكنيسة فوجدت اساسات جدران مختلفة لم تكن ذات قيمة تذكر ، فردمت الساحة ثانية وجري تبليطها ببلاط جديد نشاهده اليوم في وقتنا الحاضر . وكان القسم الجنوبي من الساحة الذي يحاذي دير الارمن على بنصف متر تقريبا من باقي الساحة ولكن بعد الحفريات جعلت جميع اقسام الساحة متساوية في ساحة واحدة رحبة كما نشاهدها اليوم .

اما القسم الامامي من الكنيسة فيكون من ثلاث حنيات : اوسطها وهي اعلاها ارضا ، فتقع فوق ظهر مغساة المهد ، ويصعد اليه من الامام من صدر قائمة الاعمدة بأربع درجات ، وينزل منه بمثلها من جهة اليمين الى الحنية الجنوبية ، وبأربعة درجات اخرى ينزل منها الى جهة اليسار الى الحنية الشمالية . وهذه الحنيات الثلاث مع صدر الكنيسة يكون شكل بناء الكنيسة الذي يشبه شكل الصليب . وفي هذا القسم الامامي فان السقف يستند على ستة اعمدة حجرية

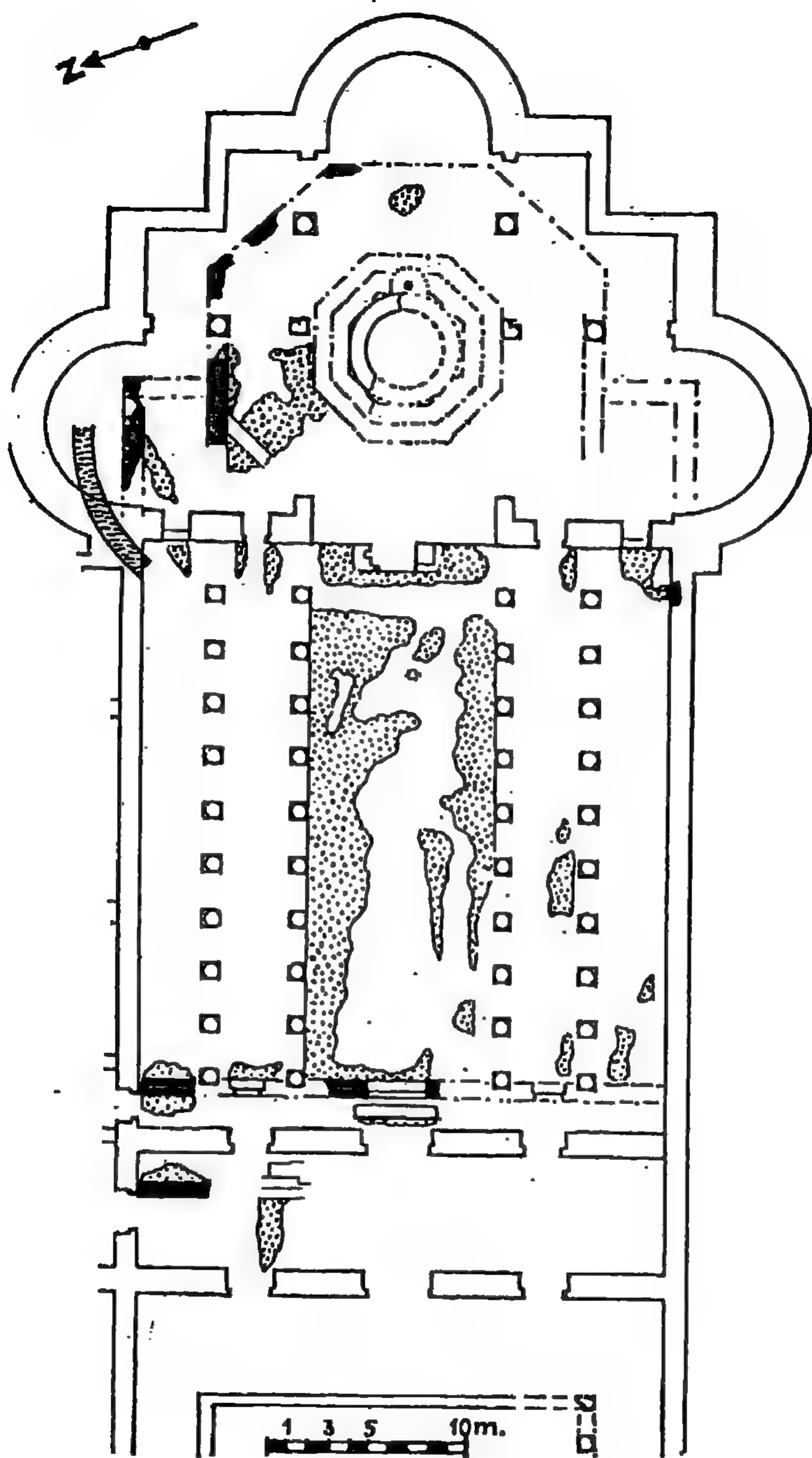
أكبر حجما من الـ ٤٤ عامودا الأخرى في القسم الأمامي من الكنيسة . وأرض
الكنيسة في هذا المكان لا تزال مبلطة ببلاط الرخام الأبيض منذ العهد القديم .

فالحنية التي في الوسط في اتجاه الشرق ، تكون نهاية الكنيسة وفيها يقع
الهيكل . والحنية الثانية في اتجاه الشمال ، وهو المكان الذي يعود للارمن في كنيسة
المهد ، ولهم فيه هيكلان حيث يقيمون فوقهما صلواتهم ، فالاول مكرس لاسم
السيدة العذراء ، والثاني ويقع بقرب مدخل المهد الشمالي ، مكرس للمجوس .
وفي أقصى هذه الحنية الشمالية يوجد باب يؤدي إلى كنيسة القديسة كاترينا
ودير الاء الفرنسيسكان . وتحيط هذه الحنية مباشرة تقع مغارة القديس
جيروم ومجموعة مغاور أخرى سيجي ذكرها في هذا الفصل . وأما الشبائيك
في هذه الحنية فقد جرى إقفالها بالحجارة في القرون الماضية .

وأما الحنية الجنوبية فلها ثلاثة شبائيك لا تزال على حالها تضيء داخل
الكنيسة . وأما الشباك الأوسط فقد وسع حتى أصبح بابا يصعد إليه بـدرج
مزدوج على جانبي الحنية يؤدي إلى ساحة في وسط دير الروم . وعلى الجانب
الشرقي من هذه الساحة تقع كنيسة صغيرة باسم مار جريس وفيها بئر ماء .
ويليها برج المراقبة الذي بناه الصليبيون في القرن الثاني عشر . وقد سقط القسم
الأعلى من هذا البرج في حوالي سنة ١٥٩٦ م .

وفي هذه الحنية الجنوبية صلى الخليفة عمر بن الخطاب لما زار كنيسة
المهد برفقة البطريرك صفرونيوس ، بعد أن تسلم القدس . وقد أعطى الخليفة
صكا للبطريرك بأن لا يصلي أحد من المسلمين في هذا المكان إلا أفرادا وأن لا
يؤذن فيه ، كما سيأتي ذكر هذا في فصل لاحق من هذا الكتاب عن الفتوحات
العربية .

وفي حفريات سنة ١٩٣٤م ، اكتشفت تحت الحنية الجنوبية كهوف ، وفيها
مجموعة جماجم بشرية ، يغلب على الظن أنها كانت تستعمل مقبرة في أيام
الصليبيين وما قبلهم . وقد أقام دير الروم بناية خاصة عند مدخل هذه الكهوف . وفي
هذه الساحة تقع جرسية دير الروم التي بنيت سنة ١٨٣٢م .



خريطة كنيسة المهد

خريطة كنيسة المهـد

تمتد هذه الكنيسة من الغرب الى اتجاه الشرق . فواجهة المدخل تقع تجاه مدينة بيت لحم ، وكان لها ثلاث ابواب سد منها الطرفان وبقي الباب الاوسط .

ثم يدخل من الباب الاوسط الى ايوان معتم نوعا ما كان له ايضا ثلاث ابواب تقابل ابواب جدار الواجهة . وقد سد ايضا البابان الجانبيان بعد بنين الكنيسة بعدة قرون لتقوية الجدارين وبقي المدخل من الباب الاوسط .

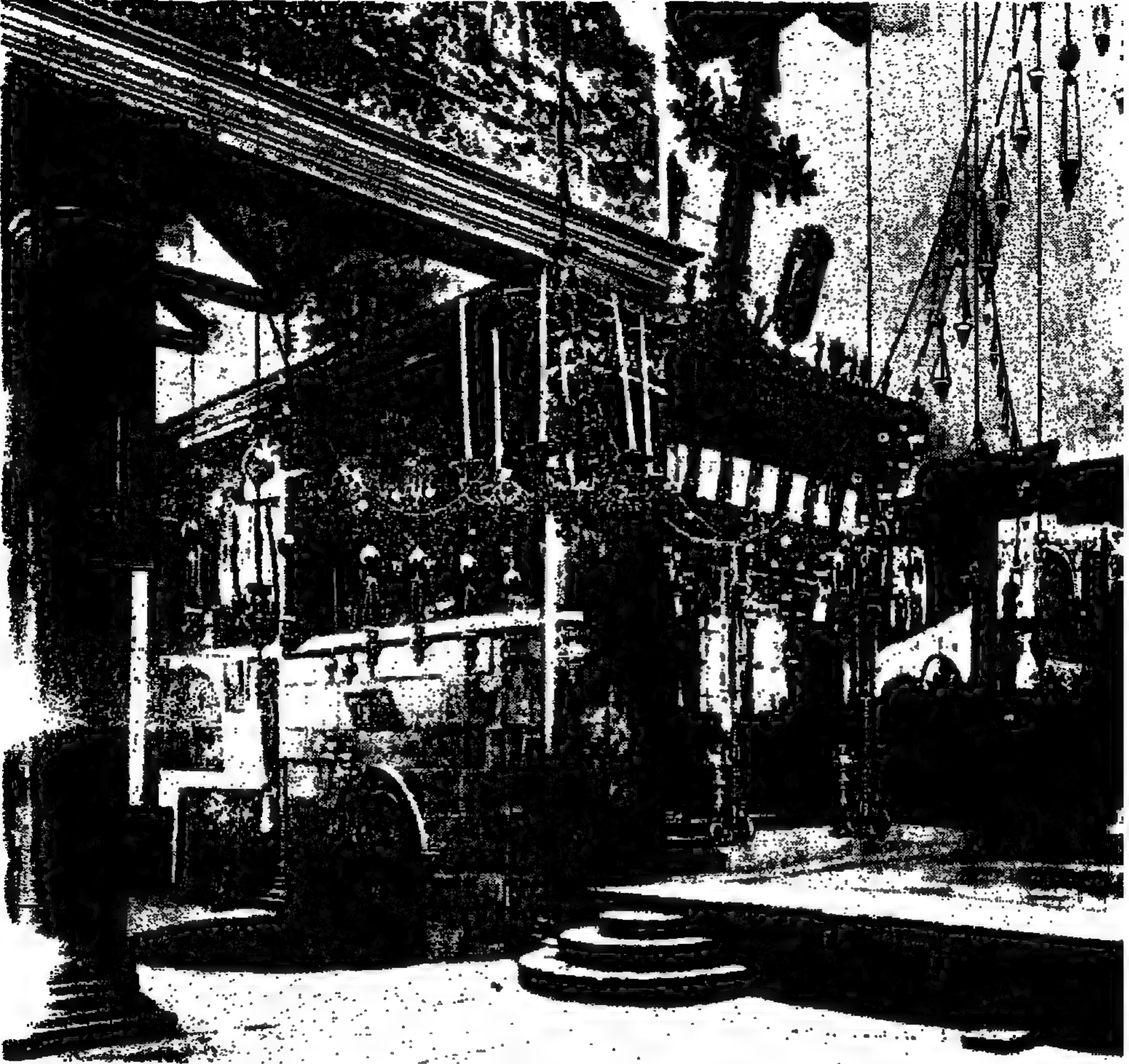
من هذا الباب يدخل الزائر الى قاعة فسحة مقامة على أربعة صفوف من الاعمدة الحجرية وكل صف مؤلف من احد عشر عامودا . وبذلك يقسم هذا المكان الى قاعة في الصدر وجناحين على اليمين وجناحين على الشمال .

والقسم الامامي مكون من ثلاث حنيات على شكل صليب . فالحنية التي على اليمين هي المعروفة باسم الحنية الشمالية .

وبين الثلاث حنيات تقع الحنية الامامية للكنيسة وتشمل مغارة المهـد تحتها ، وفوق المغارة مقام الهيكل ، ويعرف بظهر المهـد . وفوق ظهر المهـد تقام الاكاليل والعماد ويصلى على الموتى قبل دفنهم .

والحنيات الثلاث مقام سقفها على ستة اعمدة ضخمة ، اربعة اعمدة امامية وعمودان بعدها .

الهيكل فوق ظهر المهد



القسم الاوسط من الكنيسة ، اي الحنية الامامية فهي أعلى بمتر واحد عن
يسة ، ويقع تحت هذا القسم مغارة المهد . واعتاد العامة ان يسلموا
ن بظهر المهد . وفوق هذا المكان اي ظهر المهد يقيم الروم الارثوذكس
في مختلف الاعياد والمناسبات . وفي هذا المكان تجري الاكاليل والصلاة
ى قبل دفنهم .

أما الهيكل المقام في هذا المكان فيرجع عهده إلى سنة ١٧٦٤م وقُد جرى تزيينه في سنة ١٨٥٣م . ومصنوع من الخشب المحفور وله ثلاثة أبواب للطقوس الدينية . ومقسم طوليا إلى ثلاثة أقسام ، ويعلوها ١٤ صورة للرسل والقديسين ، مرسومة بالطريقة البيزنطية وهذه الأيقونات هدية من العائلة القيصرية الروسية آنذاك . وقد قام بهذا الحفر عدد من أهالي بيت لحم اشتهروا منذ القدم بهذا الفن ، فجاء عملهم صورة جميلة لبداية الفن المحلي . وأمام حاجز الهيكل يوجد عدة شمعدانات كبيرة ، ومنهما اثنان بطول مترين ، صنعا في نورمبرج في ألمانيا في سنة ١٦٦٧م . بطلب من رئيس الدير آنذاك المدعو بنيامين .

يمثل النصف الأيمن من هذه الصورة ظهر المهد ، وهو يرتفع قليلا عن أرضية الكنيسة ويصعد إليه بثلاث درجات من اليمين وثلاث من الشمال ، وثلاث من وسطه . وتقع تحت هذا المكان مغارة المهد حيث ولد السيد المسيح عليه السلام

والجانب الأيسر من الصورة هو قسم من الحنية الشمالية لكنيسة المهد ويظهر في وسط هذا القسم المدخل الشمالي لمغارة الميلاد . وهذا القسم مع الباب مبني بالرخام منذ زمن القرن الثاني عشر للميلاد في عهد الصليبيين .

وفي احتفالات عيد الميلاد بعد صلاة منتصف الليل ، تقام دورة احتفالية من كنيسة القديسة كاترينا المجاورة ، وينزل إلى مغارة المهد من هذا الباب . وتقع كنيسة القديسة كاترينا ملاصقة للحنية الشمالية لكنيسة المهد ويربط بينهما مدخلا ، وكان الأرمن قد حصلوا على إذن من السلطان العثماني بإغلاق هذا الباب سنة ١٨١٩م ، وأعيد فتحه بمجهود القنصل الفرنسي سنة ١٨٣٦م .

وتحت هذه الحنية تقع مغاور القديس جيروم التي جاء ذكرها في هذا الكتاب وينزل إلى هذه المغاور بدرجات من مؤخرة كنيسة القديسة كاترينا الملاصقة .

الحائط الفاصل على ظهر المهد



أقام الرهبان اليونان هذا الحائط حول ظهر المهد اثر خلافات استمرت سنوات بينهم وبين الرهبان الفرنسيين وكان ذلك في سنة ١٨٤٢م . وقد أزيل هذا الحائط في سنة ١٩١٩م بواسطة ممثل الانتداب البريطاني في فلسطين سير رونالد ستورس ، بموافقة الجهات الدينية المختصة ، حيث كان هذا الجدار يشوه منظر كنيسة المهد .

مغارة المهد عبر التاريخ

هذا المكان الذي يعرفه الناس حالياً باسم المهد ، هو عبارة عن المغارة التي ولد فيها السيد المسيح . فقد أشار الى هذا المكان لوقا الانجيلي ، الاصحاح الثاني (٦-١) بما يلي :

« ولما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية في أيام هيرودم الملك اذا مجوس من المشرق قد جاءوا الى اورشليم قائلين اين هو المولود ملك اليهود . فاننا راينا نجمة في المشرق واتينا لنسجد له . فلما سمع هيرودم الملك اضطرب وجميع اورشليم معه ، فجمع كل رؤساء الكهنة وكتبة الشعب وسألهم اين يولد المسيح . فقالوا له في بيت لحم اليهودية . لانه هكذا مكتوب بالنبي : وانت يا بيت لحم ارض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا . لان منك يخرج مدبر يرعى شعبي اسرائيل . »

وقد ذكر القديس الشهيد جوستين St. Justine Martyr عن هذا المكان في سنة ١٥٥م التفسير التالي : « وبما ان القديس يوسف لم يستطع ان يجد له مأوى في قرية بيت لحم حيث كان اتخان الوحيد فيها ممثلاً بالقادمين ليسجلوا اسماءهم بموجب امر الامبراطور الروماني التجا الى اقرب مغارة من القرية . وبما انه من ابناء بيت لحم كان يعرف الكثير من هذه المغاور الطبيعية المنتشرة حول بيت لحم ، والنبي كان الرعاية يسكنونها مع مواشيهم في فصل الشتاء . وجاء المخاض فولدت مريم طفلها فلفته ووضعته في مذود للبهائم كان في تلك المغارة ، طلباً للدفع والوقاية من البرد الشديد » .

وذكر القديس جيروم في أحاديثه في سنة ٣٩٥م . « ان الامبراطور هارديان كان قد دنس هذا المكان في السابق عندما اقام معبداً لالهة الرومان فوق هذا المكان . أما الان فقد طهر هذا المكان واصبح مكان عبادة » .

واشار القديس جيروم في رسالة ثانية الى التغييرات التي طرأت على هذه المغارة بقوله : « انه كم يتمنى لو يستطيع ان يشاهد المذود الحقيقي الذي اضطجع فيه المخلص . أما الان فقد ازيل المذود الحقيقي البسيط ، واستبدل بمذود مصنوع من الفضة الخالصة اكراماً للمسيح » .

ويتابع القديس جيروم رسالته فيقول : « على كل الاحوال بالنسبة لي فالمذود الذي ازيل هو اعلى ما في الكون ، أما الذهب فقد وجد للبشر ، وان المذود الحقير هو اكثر لياقة ليضطجع فيه الفادي . اني اُجد الرب العلي ، فقد

اخبار ان يأتي المخلص للنور ليس في القصور وبين الذهب والفضة ، بل بين
الفقر . »

ذكر بعض الحجاج في سنة ٥٧٠م . « ان مغارة المهد صغيرة جداً ولا تزال
مزينة بالذهب والفضة . وان مدخل المغارة صغير وينزل اليه بدرج يبدأ
من وسط الكنيسة ويتجه من الشمال الى الجنوب . تم ينحني من الجنوب
الى الشرق . وهذا يؤكد انه كان للمغارة باب واحد فقط . »

ويرجع معظم المؤرخين ان المدخلين الحاليين لمغارة المهد ، اقيما في عهد
الامبراطور جوستنيان عندما اعاد بناء كنيسة المهد الحالية ، في مكان كنيسة
القديس قسطنطين . فقد رأى المهندسون ان يجعلوا للمغارة مدخلين ليسهلوا على
الحجاج والزوار النزول الى المغارة من باب والخروج من الباب الاخر فلا
يحصل اي ازدحام ، وخصوصا في ايام الاحتفالات الدينية .

في سنة ١٩٣٤م ، قامت دائرة الآثار العامة في القدس في عهد الانتداب
البريطاني ، قامت بعمل حفريات حول اعمدة كنيسة المهد ، للتأكد من ان هذه
القواعد قوية لدرجة تتحمل ثقل العامود وما يحمل فوقه من بناء . فوجدوا ان هذه
القواعد قوية ومرتكزة على الصخر مباشرة ، وان اساسها ينخفض حوالي
مترا واحدا عن سطح بلاط الكنيسة . كذلك وجدوا عدة دلائل تشير الى وجود
اشياء اخرى مدفونة تحت بلاط الارضية الحالية للكنيسة . فاصدر مدير الآثار
العامة امره بخلع جميع بلاط الكنيسة والتوسع في الحفريات ، فاكشفوا ان
الارضية الاصلية للكنيسة اوطأ من الارضية الحالية بحوالي ٧٥ سنتيمترا ،
وانها كانت مبلطة بالموزاييك . لكن معظمها قد اصابها التلف وبقيت اقسام
قليلة سالمة ، فاقاموا حولها جدراناً وفوقها غطاء من الابواب الخشبية التي نشاهدها
اليوم . وبعد انتهاء الحفريات اعيد البلاط الحجري فوق الاقسام التالفة .

وفي تلك السنة كنت في كل يوم عند الخروج من المدرسة ، اذهب مع رفاقي
الطلاب لتتفرج على الحفريات ، وقد تسنى لي في ذلك الحين مشاهدة الباب الاصيلي
لمغارة المهد . ويقع هذا الباب في صدر الكنيسة ، وتحت الدرجات التي يصعد
عليها الى ظهر المهد من وسط الكنيسة من بين الاعمدة . وينزل الى هذا الباب
بدرجات حجرية عرضها حوالي المتر تبدأ من الشمال الى الجنوب ، ثم تتجه الى
الشرق ببضعة درجات اخرى فتدخل مغارة المهد . لكن دائرة الآثار اعادت
اقفال هذا الباب مع الدرجات وتبليطها فوقها . ومن شاء التوسع في الاطلاع
على هذه الحفريات يمكنه مراجعة كتاب وضعه بالانكليزية ، المهندس المعماري
البريطاني الذي كلفته حكومة الانتداب في فلسطين بالاشراف على هذه الحفريات
وتقديم تقرير عن حالة كنيسة المهد المعمارية ولوازم صيانتها . وقد زاد من
قيمة هذا الكتاب ما تضمنه من صور فوتوغرافية تمثل مختلف مراحل الحفر
والاقسام الاخرى من الكنيسة واسم هذا الكتاب كما يلي : —

Structural survey of the Holy Land Church of Nativity - Bethlehem 1935. University press, London - Hampshire - Milford.

ونكر الحاج برنارد الحكيم Bernardo the wise في سنة ٨٧٠م ما يلي :

يوجد في بيت لحم كنيسة واسعة مكرسة باسم العذراء مريم . وتحت صدر الكنيسة يوجد مغارة محفورة في الصخرة ، مكان ولادة السيد المسيح . ولهذه المغارة باب من جهة الجنوب يستعمل للنزول وباب آخر من جهة الشمال يستعمل للصعود . وفي اتجاه الشرق من هذه المغارة يوجد المكان الذي ولد فيه الطفل يسوع ، وأقيم فوقه هيكل تقام فيه القداديس ، وتوجد مقابل هذا الهيكل تجويفة في الصخر ، هي المكان الذي وضع فيه الطفل في المذود بعد الولادة .

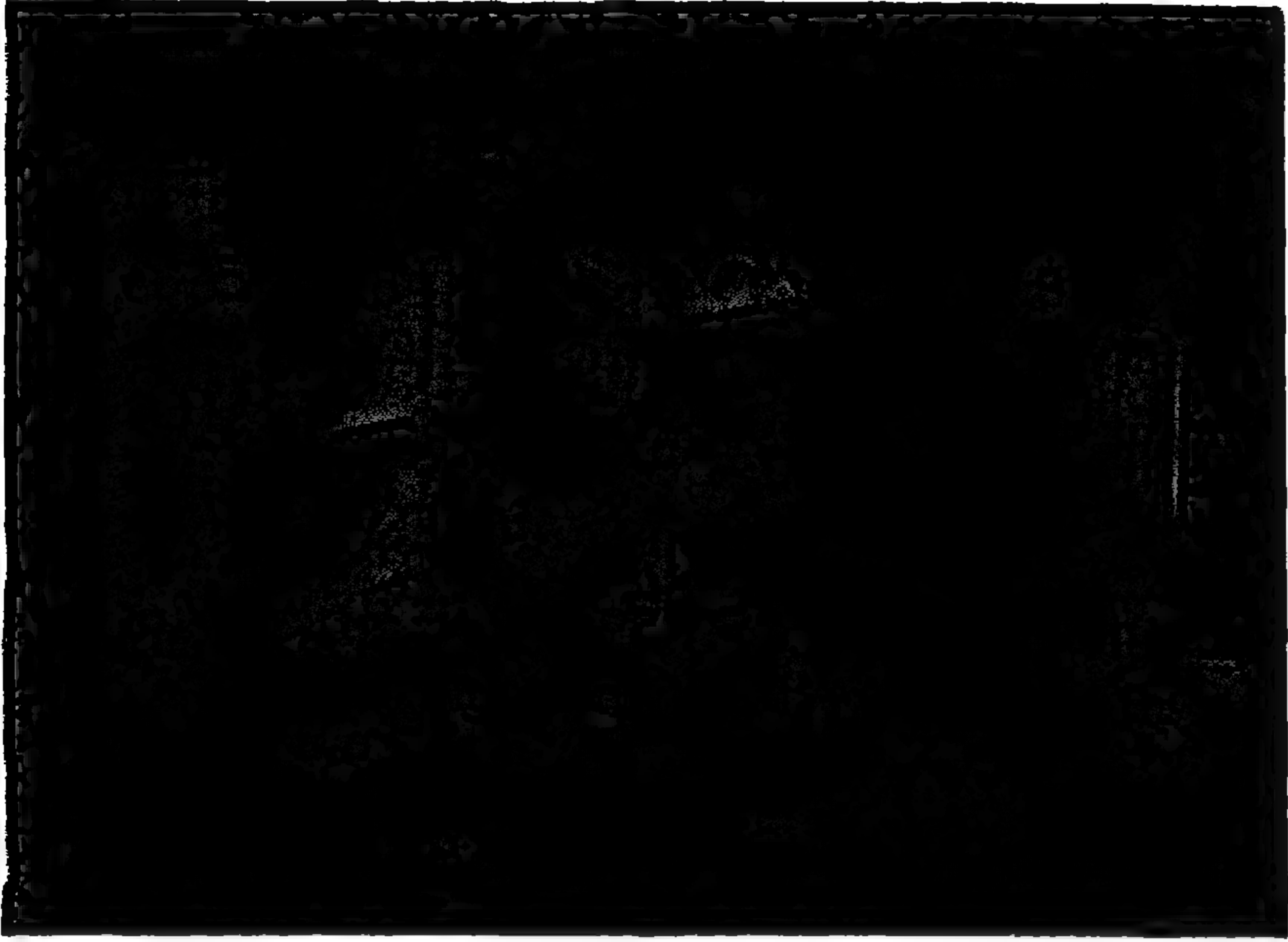
فالقديس جيروم نكر عن وجود هذا الهيكل في مغارة المهد . كذلك اشارت بعض الكتب الارمنية التي تصف مغارة المهد في القرن السابع الميلادي ، الى وجود هذا الهيكل هناك .

اما ويليبالد Willibald فقد ذكر في سنة ٧٢٣م . ان مغارة المهد تقع تحت الكنيسة ، ويوجد هيكل فوق مكان ولادة المسيح . كذلك يوجد هيكل صغير ، صنع بحيث يمكن حمله ونقله . فعندما يريدون ان يحتفلوا باقامة قداس في مغارة المهد ، يحملون الهيكل الصغير الى المغارة فيقيمون عليه القداديس ، ويبقى منها حسب الحاجة ، ثم يعاد ثانية الى الكنيسة .

في سنة ١١٧٢م . ذكر دانيال وثيريوك Danial and Theodrich انه يوجد هيكل واحد في مغارة المهد ، يتألف من بلاطة من الرخام ترتكز على اربعة اعمدة صغيرة ، وهذا الهيكل مقدس جدا ، ويوجد تحته نجمة محفورة في الرخام ، ومكتوب عليها : « في هذا المكان ، ولدت العذراء مريم الطفل يسوع المسيح » .

ما تقدم امثلة بسيطة عما ذكره الكثيرون عن مشاهداتهم في زيارتهم لكنيسة المهد في بيت لحم خلال العصور الغابرة . فقد ذكروا أيضا ان مغارة الميلاد والكنيسة كانت ارضيتهما مبلطة بالرخام الفاخر والموزاييك ، كذلك الجدران كانت مغطاة بالواح الرخام . ولكن هذه البلاطات أخذت تقل وتختفي بالاعتداء على الكنيسة ممن كان يحكم البلاد من الغزاة .

اما عن الموزاييك البديع الصنع ورسومات العذراء والقديسين داخل مغارة المهد والكنيسة ، فقد تغنى به الكثيرون ، مشيرين الى جماله ودقة صنعه والايدي الماهرة التي حققتة . مئات الحالات يجدها الباحث في كتب التاريخ تتحدث عن رسومات المجوس ساجدين للطفل يسوع وهم يقدمون هداياهم وغيرها من حوادث الانجيل ، وقد صورت بأبداع نصوص وتصوير .



منظر مغارة المهد كما كان في حوالي سنة ١٦٠٠ م .
عن صورة محفوظة في أحد الأديرة في إيطاليا

مغارة المهد في الوقت الحاضر

كما رأينا مما تقدم ان مغارة المهد تقع تحت هيكل الكنيسة مباشرة ، وقد كانت في اول عهدها يدخل اليها من باب يقع تحت الدرجات الحالية التي يصعد منها الى ظهر المهد . ولما أعاد الامبراطور جوستنيان بناء هذه الكنيسة أقفل مهندسون هذا الباب وجعلوا للمغارة بابين أحدهما للنزول والاخر للخروج ، وينزل منهما الى المغارة بعده درجات .

اما البابان اللذان نشاهدهما في الوقت الحاضر فيرجع عهدهما الى القرن الثاني عشر الميلادي ، أي الى زمن الصليبيين . فكل باب وما حوله مبني من الرخام الابيض المصقول . وكل باب عبارة عن قوس اكبر ويليه قوس أصغر منه ، وكل قوس له عامودان على جانبيه . فالباب الشمالي ينزل اليه بستة درجات من الحجر الوردي على شكل نصف دائرة ، ثم ينزل من الباب الى الداخل عشر درجات . وكل مدخل له باب حديدي من زمن الصليبيين أيضا . والباب الجنوبي نفس نموذج الباب الشمالي وينزل منه الى داخل المغارة ، بست درجات فقط .

وعندما تنتهي من نزول الدرجات ، تواجهك أرضية مستطيلة الشكل ، بمساحة ١٢٣٠ x ٣٥٠ مترا والمغارة تقريبا معتمة مضاءة بـ ٨ قنديلا . وفي القرن السادس رمت جدران المغارة الجانبية ، لتصلح لتلبسها ببلاط الرخام من الأرضية حتى السقف . اما الجدران الصخرية الطبيعية فيمكن مشاهدتها فوق مكان المذود .

اول ما يواجه الداخل الى مغارة المهد هيكل اقيم منذ القدم ، ويوجد تحته نجمة محفورة في الأرضية تشير الى مكان ولادة السيد المسيح . وعلى هذا الهيكل يقيم الروم والارمن صلواتهم في اوقات محددة لكل منهم .

ويقابل هذا المذود تجويفة في الصخر ينزل اليها بثلاث درجات ، ويسند سقفها عامود من الحجر الوردي من نفس حجر اعمدة الكنيسة ، طوله حوالي مترين يرجح انه من عمل مهندسي جوستنيان ليكون دعامة قوية يحمل ما فوقه من بناء . وفي زوايا هذه التجويفة يوجد عامودان من الرخام الابيض حفر عليهما الحجاج عدة صلبان صغيرة .

وفي هذا المكان وضع مذود من الرخام الابيض ، لان المذود الاصلي قد بلاشى حيث كان الحجاج في الماضي يقطعون قطعاً منه ويأخذونها الى بلادهم

بركة من الاراضي المقدسة . وسند السقف امام المذود عامود من الرخام الاخضر .

أما ارضية مكان المذود فقد اخذت عليها عدة تصليحات لتعوض النقص الحاصل من وطء أقدام ملايين الحجاج والزوار الذين زاروا هذا المكان . أما ارضية المغارة فانها حاليا مبلطة ببلاط الرخام ، الذي كان يوما ما ناصع البياض ، فأصبح في الوقت الحاضر داكنا من دخان القناديل ومن وطأة أقدام ملايين الأشخاص الذين داسوا فوقه على مرور الزمن .

وأمام المذود أقيم هيكل كرس باسم المجوس ، وعليه يقيم اللاتين قدايسهم في مغارة المهد . وفوق مذبح المجوس وخلف مكان المذود نشاهد صورتين بديعتين من رسم الفنان الايطالي جون فافليولي ، رسمت في القدس في سنة ١٨٧٥م ، ووضعت في مكانها انحالي سنة ١٨٨٥م . واحدة تمثل منظر المجوس والاخرى تمثل منظر الرعاة الساجدين للطفل . ورسم الفنان نفسه لوحة الجلوريا المعلقة على الحائط العلوي فوق المذود . وجلوريا هو الاسم اللاتيني للنشيد السماوي الذي جاء ذكره في الانجيل ، بأن الملائكة انشدته عند ميلاد السيد المسيح قائلين : « المجد لله في الاعالي وعلى الارض السلام وللناس الصالحين المحبة » .

وقد تعرضت مغارة المهد على مرور الزمن لعدة زلازل ونشوب حربية وقد جاء في كتاب حياة الاب انطون بلوني ، قانوني القبر المقدس ومؤسس مدارس الايمان في فلسطين ، تألف الاب المرحوم يوحنا النحاس السالسي ، والمطبوع بالمطبعة الشرقية بالاسكندرية في سنة ١٩٠٩م . اشارة الى الحريق الذي نشب في مغارة المهد في ٢٥ نيسان ١٨٧٣م . ما يلي :

« وهنا اذكر ان الاب بلوني تلقى في ١٩ نيسان سنة ١٨٧٣م ، تلغرافا من احدى المحسنات ترجوه ان يقدم على نيتها قداسا في المهد لاجل شفاء ابنها الذي كان له من العمر ٣ سنين وقد سقط في بركة ماء فكاد يختنق فيها ، وحيث ان مطالب كثيرة سابقة كان ينبغي وفاؤها ولا اجل هذا القداس الى ٢٥ من الشهر عينه . ففي هذا اليوم ذاته شفي الولد ورزقت المرأة ولدا اخر دعت به باسم يوسف اكراما لهذا القديس الذي خدم الطفل يسوع وتبناه على الارض . فلم تمض ساعتان من تقدمته الذبيحة الالهية واذا بمنازعة عظيمة حدثت بين الروم والاباء الفرنسيين فكان عدد الاولين لا يقل عن المائتين وهم مسلحون بالخناجر والعصي وغير ذلك فدمروا الهيكل الذي كان يخص الاباء الفرنسيين ، وحرقوا طنافس المغارة المقدسة والستائر التي كانت فرنسا قد اهدتها بعد استئذان الدولة العثمانية ، وجرحوا ثمانية رهبان وكانت جراح اثنين منهم خطيرة . ولولا توسط

تفصل فرنسا ارنست كربون وحزمه في اخماد نيران الثورة لكانت قد جابت
اضرارا فاحشة .

وأما قناصل اسبانيا وايطاليا والنمسا وانكلترا وروسيا فاحتجوا ضد
مثيري الثورة ، وطلبوا من دولتهم معاقبتهم او مطارتهم بقوة الجنود مع حفظ
حقوق فرنسا في حماية الشرق ، فتلافى جلالة السلطان الامر واصدر ارادة سنية
في تشييد ثكنة لمائة جندي ودار للحكومة في بيت لحم . واما متصرف اورشليم فآلف
لجنة تصدرها تفصل فرنسا فحكمت على الروم بغرامة ١١.٥٠٠ فرنك تعويضا
للأباء الفرنسيين ثم تجديد الهيكل المنقوض . وعزل اسقف الروم افنيميوس
مع راهبين آخرين وأمرت الدولة بوضع سجن على نفقنها لا تزال حتى الان
تستر جدران المغارة المقدسة .

وفي الوقت الحاضر نغطي ثلاثة جدران من المغارة بستائر من مادة
الاسبستوس قدمها في سنة ١٨٧٤م مارشال مكماهون رئيس جمهورية فرنسا
في ذلك الحين ، يتخللها ثقب تربط فيها جبال القناديل لرفعها او خفضها عند
تزييتها واشعالها . وخلف هذه الستار لا يزال بلاط رخام القرن الثاني عشر
يغطي الجدران . وعلى هذا الستار نوجد بعض الصور ، ولكنها ليست ذات
أهمية فنية .

وحول حنية مكان الولادة ومكان المذود توجد ستائر ثمينة تزين المكان ،
ولكنها في حرب دائم مع دخان القناديل وايداي الزوار . وضعت هذه الستائر
البديعة في مكان الستائر الثمينة جدا وذات الشكل الباذخ ، والتي احترقت
في حريق سنة ١٨٧٣م . والجانب الغربي من مغارة المهد مغلق بحائط يوجد خلفه
ممر يؤدي الى مغارة القديس جيروم ، أرضيته أوطأ من أرضية المغارة وسقفه
أعلى قليلا من سقف المغارة . ويوجد على هذا الحائط بضعة رسومات من
الدهان تمثل قديسين تشبه قاعة برج اجراس كنيسة .

ومن الصليبان المحفورة في قصارة الجدران يمكننا ان نستنتج ، انه منذ
قديم الزمان وهذا المكان مكرس ومكرم من قبل ملايين البشر . وأن وجود هذا
الحائط منذ القرن السادس يقلل من مساحة المغارة ، ولكنه يقرب المسافة
الى المغاور المجاورة التي يسكنها الكثيرون ، مثل القديس جيروم وبولا واستوكيا
ورفاقهم من المسيحيين الاولين .

مفسور جيروم في بيت لحم

لم يمض وقت طويل على بناء كنيسة الميلاد حتى أصبحت بيت لحم أهم مركز لحياة الرهبنة والتنسك للديانة المسيحية . فجاء اليها الكثيرون من الرهبان والراهبات وأقاموا فيها وحولها امتدادا الى الشرق في بيرة يوحنا المعمدان حتى شواطئ البحر الميت .

في سنة ٣٨٢ بعد الميلاد قدم الى بيت لحم للقامة فيها الكاهن صفروبيوس وسيبيوس جيرونيوس من بلدة ستريدون من مقاطعة دالماسيا وكان قصده ان يدرس الانجيل ويتعمق في تفهم معانيه ، فاستقر في كهف يقع تحت الحنية الشمالية لكنيسة الميلاد . وكان هذا الكاهن يقيم في رومانيا كان يقوم بمهام سكرتير البابا دماسوس (٣٢٦ — ٣٨٤ م) ولكن مهام عمله هذا لم تترك له اي وقت لتحقيق امنيته بالقيام بدراسة عميقة للانجيل ، لذلك فكر بالذهاب الى بيت لحم لينقطع عن العالم ويتفرغ كليا لتحقيق طموحه هذا وتحقيق هذه الامنية التي طالما راودت مخيلته منذ سنوات طويلة .

وقد درس جيروم اللغة العبرية على يد الحاخام بارحينا الذي كان قد اعتنق الديانة المسيحية ، والذي كان يدرسه بالليل وخفية في صومعته حتى اتقنها . فأقام في كهفه تحت الكنيسة مدة ٣٦ سنة باستمرار ، وعاش في حالة تقشف شديد وصلوات وعبادة . وكان جيروم نشيطا جدا في البحث في علم اللاهوت ، ودحض ادعاءات معارضي العقيدة المسيحية بالبراهين القوية والحجج الدامغة التي لا تدحض ، فثار هذا انتباه البابا القديس دماسوس ، فكلفه بمشروع ضخيم بأن يراجع التراجم اللاتينية للانجيل ، وان يضع نسخة جديدة للانجيل مأخوذة من النسخ الموجودة باللغتين العبرانية واليونانية فكان ناتج عمله هذا خلال عدة سنوات ، النسخة اللاتينية للانجيل التي عرفت فيما بعد باسم الفولجاتا Vulgata ومنذ ذلك الحين حتى يومنا هذا بقيت هذه الترجمة هي النسخة الرسمية للانجيل في الكنيسة الكاثوليكية .

وبعد مرور سنوات قليلة من استقرار القديس جيروم في بيت لحم لحق به كثيرون بعد تنصرهم ، ومن بينهم امرأة نبيلة سليلة أشرف العائلات الرومانية في ذلك الحين وهي من عائلات كراتشي Gracchi وسيبيوس Scipios وهي النبيلة بولا Paula ، وثم لحقت بهما ابنتها استوكيوم Estochium ثم لحقت بهما مجموعة كبيرة من السيدات من ائبل العائلات الرومانية في ذلك الحين ، فقدمت النبيلة بولا كل ثروتها لبناء دير القديس جيروم ورعايته من الرهبان ، ودير اخر لها وللراهبات اللواتي تبعنها ، ومنزل اخر خاص لاستقبال الحجاج والزوار

الوافدين الى بيت لحم للزيارة وللنبرك من الاماكن المقدسة ، فكان دير جيروم مكان مدخل كنيسة القديسة كاترينا حاليا ودير الراهبات في الجهة الشمالية من الكنيسة في مكان دير الارمن الحالي . وهكذا اصبح القديس جيروم الاب الروحي الاعلى لهؤلاء الذين عاشوا بكل نواضع وخشوع وتقوى نملا نفوسهم حرارة الايمان الوافر ، لدرجة كانت تلفت انتباه كل من زار بيت لحم في ايام حياتهم ، وكتب الكثيرون منهم عن حياة جيروم ورفاقه المنقطعين عن الدنيا والمنفرغين للعبادة .

وبالاضافة الى ترجمة الانجيل من النسخ العبرانية واليونانية ، فسان القديس جيروم كتب الكثير من الشروح والفسيرات لما جاء في الانجيل ، فكانت تدرس ونفحص بكل دقة من قبل بولوا وابنتها اسنوكيوم . وهكذا تكون فريق ثلاثي من المتعبدين لازموا بيت لحم مدى حياتهم ، وكانت بولا قد قالت عند وصولها الى بيت لحم : « هذا مكان آخرتي ما دام المخلص قد اختار بنفسه هذا المكان لولادته ولذلك فانا ايضا ارغب في البقاء في هذه البقعة وارغب ان ادفن فيها » . وقد تحققت امنيتها هذه ، فدفنت هي وابنتها والقديس جيروم في نفس المغاور . ولذلك يجد الزائر لتلك المغاور ثلاثة قبور ، وينزل الى هذه المغاور بدرجات من المؤخرة الشمالية لكنيسة القديسة كاترينا الراعوية في بيت لحم .

وجاء في رسائل جيروم بعد وفاة بولا ما يلي : —

« لقد حفرت ذكراك على حجر قبرك ، حتى عندما تنتهي ايامي يستطيع الزائر ان يعلم بانك من قبلي قد شرفت (اي اكرمك ونلت شرفا) وانك نسي بيت لحم دفنت » .

في سنة ٣٩٥ م . قسمت الامبراطورية الى امبراطورية شرقية وعاصمتها القسطنطينية واخرى غربية وعاصمتها روما ، كما هو معروف في التاريخ ، واصبحت الامبراطورية الرومانية الشرقية تسمى بيزنطية Byzantium نسبة الى بيزنطة ، وهي مدينة يونانية قديمة تقع على مضيق البوسفور . وقد بنى الامبراطور قسطنطين في موقعها عام ٣٣٠ م مدينة كبيرة فخمة كبيرة سماها القسطنطينية تخليدا لاسمه . وقد بقيت هذه المدينة تحمل هذا الاسم قرونا طويلة حتى جاء العهد العثماني وسماها الاستانة وتعرف اليوم باسم استانبول ، وهكذا منذ سنة ٣٩٥ م أصبحت فلسطين من نصيب الامبراطورية البيزنطية .

فلما حكم روما الامبراطور الاريكس فيزوكسس Alarics Visigoths في سنة ٤١٠ م ، اضطهد اصحاب العقيدة المسيحية من اتباع القديس بطرس اضطهادا شديدا ، مما حملهم على القيام بهجرة جماعية ضخمة الى اقطار الامبراطورية الشرقية البيزنطية طلبا للامان . وقد لجأ عدد كبير منهم الى بيت لحم ، لدرجة ان القديس جيروم عجز عن تقديم المأوى لجميعهم ، حتى اضطر ان يبيع بيتا له في بلدته سيرون ، وينفق ثمنه على مساعدة اللاجئين الى بيت لحم ، حتى نفذ كل ما تملك يداه .

وفي عام ٤٠٤م توفيت بولا ودفنت في القبر المعد لها في مغارة جيروم ، وفي عام ٤١٩م توفيت ابنتها استوكيوم ودفنت في القبر المعد لها بالقرب من قبر أمها في مغارة جيروم ، ألا ان رفاتهما نقلت فيما بعد الى روما . وفي عام ٤٢٠م توفي جيروم عن عمر يناهز الثانية والتسعين ، ودفن في نفس المغارة ، تنفيذا لرغبته وتوصيته لاتباعه بأن يدفن في هذا المكان . وقد ذكر الحاج بياسيزا في سنة ٥٧٠م بأن الكاهن المتعبد جيروم قام بحفر لحد له قرب مدخل مغارة الميلاد قبر فيه . وقد قيل ان رفات هذا الانجيلي قد نقلت الى كنيسة ثانية ، ربما الى القسطنطينية او روما . وفي القرون الوسطى كان القبر خاليا من الجثة ، وبقي لذكرى القديس جيروم .

في سنة ١١٧٢م ذكر ثيودريك Theodrich ، ليس بعيدا من مهد سيدنا يسوع المسيح يوجد قبر القديس جيروم المبارك ويقال ان رفاتة قد نقلت الى القسطنطينية بأمر الامبراطور ثيودوسيوس Theodosius الصغير مما جاء في رسالته يثبت ان القبر قد اعتدى عليه قبل مجيء الصليبيين الى بيت لحم . وذكر اميكو B. Amico الذي كان رئيسا لدير الفرنسيسكان في بيت لحم في سنة ١٥٩٠م ، ذكر بأن قبر جيروم حول الى هيكل نقام عليه القناديس وان قبره يرتفع عن الارض خمسة اشبار ، وبطول عشرة اشبار من الزاوية الى الزاوية ، ويعرض ثلاثة اشبار ونصف ، والقسم العلوي من القبر وكذلك جوانبه مبنية ببلاط الرخام الجميل . وذكر اخرون انه في المغارة المجاورة قبر ايسوبويوس . وبعد وفاة القديس جيروم انتخب مساعده ايسوبويوس خلفا له ، ولكن هذا الخاف ما لبث ان توفي بعد ذلك بسنتين ، فانفرط من بعده عقد الرهينة في بيت لحم . واما دير الراهبات فقد استلمت ادارته بولا الصغيرة حفيدة بولا المؤسسة .

في سنة ١٩٤٧م قام الاب باليرمو باجاتي Balerno Baghatti الذي كان يشغل منصب رئيس حراسة الارض المقدسة ، قام الاب المذكور بدراسة كل ما وجد من اثار أثناء تجديد مغارة القديس جيروم . وان الحفريات التي اجريت في ارضية المغارة والممرات المحيطة اخرجت الكثير من اثار القرن الثاني عشر .

جاء في وصف حياة القديس انطوني Antony التي كتبها القديس اثناسيوس انه في سنة ٣٧٥م . جاءت الى القدس المرأة الرومانية النبيلة المسماة ميلانيا Melania بعد ان امضت مدة من الزمن في مصر ، وكان يصحبها الراهب روفينوس Rofinus . وان ميلانيا قد بنت ديرا على جبل الزيتون في مكان صعود السيد المسيح الى السماء ، سكنته خمسون راهبة وان الراهب روفينوس استقر ايضا على جبل الزيتون ، حيث كان هناك عدة اديرة للرهبان واخرى للراهبات ، وان مجموعة هذه الاديرة قد تلاشت عندما توفيت ميلانيا وابنتها بسنوات قليلة .

رواق القديس جيروم

الرواق هو بناء مسقوف ، مقامة جوانبه على اعمدة يحيط بدير او فناء من جوانبه الاربعة . وهذا هو حال رواق القديس جيروم الذي يشاهده الزائر الى كنيسة الميلاد في بيت لحم ، عندما يدخل كنيسة الميلاد ويخرج من بابها الشمالي للدخول الى كنيسة القديسة كاترينا الراءوية لطائفة اللاتين في بيت لحم .

هذا الرواق احتل قمة المبانى التاريخية القديمة في فلسطين ، حيث اعتبر ابداع نموذج لاديرة القسرون الوسطى ، ويليه في الاهمية دير القديسة مريم والذي اقيمت مكانه حاليا كنيسة المخلص البرونسطانية في القدس وكنيسة القبر المقدس . فلا يوجد في وقتنا الحاضر سوى اماكن قليلة من المباني ذات القيمة الاثرية جدا .

في سنة ١٩٤٩ م قررت حراسة الاراضي المقدسة ، اي رئاسة رهبنة الفرنسيين في فلسطين ، قررت ترميم هذا المكان واعادته الى قديم عهده قدر الامكان . فأولت بهذه المهمة الى المهندس المعماري الايطالي الشهير بارلوزي A. Eerluzzi فكانت مهمة معقدة وصعبة بسبب قدم البناء وما واجهه من مساو العصور السابقة والعوامل الطبيعية الاخرى مثل الزلزال والحريق .

واما الجدران التي تحتوي على الاعمدة التي نراها اليوم كانت في تلك السنة مدفونة ضمن بناء اقيم على عده مراحل لدعم الجدران من السقوط . وكانت الساحة الموجودة حاليا في وسط الرواق مبني فوقها ست غرف كبيرة استعملت في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ومطلع القرن العشرين حتى سنة ١٩١٤م اي عندما أعلنت الحرب العالمية الاولى ، استعملت مدرسة للباء الفرنسيين لتعليم ابناء رعية اللاتين في بيت لحم . وكان يدرس في هذه المدرسة اللغات العربية والايطالية والفرنسية والحساب والتاريخ والمراسلات التجارية ، فكانت اول مدرسة من نوعها في بيت لحم بل في فلسطين كلها ، وفي وقت عم الجهل والامية فلسطين وبلاد الشرق .

وقد توقفت هذه المدرسة لمدة اربع سنوات خلال الحرب العالمية الاولى بناء على طلب السلطات العثمانية . ثم أعيد افتتاحها في سنة ١٩١٩م في الطابقين الاول والثاني من بناية الكازانوف التي بنيت في سنة ١٩٠٨م . فكانت هذه المدرسة تتوسع سنويا حتى شملت الصفوف الابتدائية فالاعدادية ثم الثانوية فكانت

نواة كلية تراسنطا الحالية في بيت لحم . وهكذا اخرجت هذه المدرسة خير رجاس
بيت لحم في القرن الماضي والقرن العشرين الحالي .

ومنذ سنة ١٩١٩م استعملت هذه الغرف مقرا ومركزا للجمعية الانطونية
الخيرية البيتلحمية حتى سنة ١٩٣٠م حيث جرى الحريق المعروف لمقر الجمعية فدمرت
هذه الغرف ، ورممت ثانية واستعملت مقرا لغرفة كشافة المهد التي تأسست
سنة ١٩٣٢م . ولنا عودة في الفصل القادم الى جولة تاريخية لهذه المدرسة
والجمعية الانطونية الخيرية وكشافة المهد ، لان اخبارها حوت الكثير جدا مما يهم جيلنا
الصاعد من البنين والبنات ، كي يطلعوا عليه ليروا كفاح ونضال اجدادهم ومن
بعدهم في بناء مجتمعنا الحالي في بيت لحم . وليروا كيف استطاعت الجمعية الانطونية
الخيرية التي تأسست سنة ١٩١٣م ، ان تستمر في الازدهار والتقدم حتى يومنا
هذا . وكيف استطاعت ان تنشئ وتدير دار العجزة الحالية في بيت لحم ، رغم
الحروب والاضطرابات التي سادت البلاد منذ مطلع القرن الحالي حتى اليوم .
فكانت دار العجزة التي اصبحت نرعى اكثر من ستين نزيلة من العاجزات ، كن
يوما خير أمهات ومصدر سعادة لعائلاتهم تنكر لهن الابناء والاحفاد وزوجاتهم ،
فحفظت لهن هذه الجمعية الحياة الكريمة في شيخوختهن .

فلما بوشر بالترميم في سنة ١٩٤٩م وكان الانتداب البريطاني على فلسطين
في نهاية مهده ، حيث كانت السلطات البريطانية تضع العقبات وتمانع في
الاصلاحات داخل الاديرة لاسباب في نفس يعقوب . فأزيلت جدران هذه الغرف
وسقوفها من وسط الساحة ، وبوشر بإزالة القصاره عن الجدران الجانبية
لهذا الرواق ، فاكشف ان الجدران هي مجموعة اقواس وكل قوس مقسم بالاعمدة
الى ثلاثة اقسام ، يساوي القسم الاوسط نصف القوس ويساوي كل جانب ربع
القوس . واتضح ان معظم هذه الاعمدة قد ازيلت من اماكنها واختفت . وبعضها
مائل منحرف عن مكانه للخارج ، واعمدة اخرى قد نلفت بفعل الحريق والزلازل
وعوامل الطبيعة خلال الزمن الطويل الذي مر منذ بنائها الاول . وكل جانب
مكون من أربعة اقواس فيكون مجموع اقواس جوانب الرواق الاربعة ستة
عشر قوسا .

واتضح ايضا ان اقواس الجدران لم تعد مدعومة بهذه الاعمدة ، وان معظم
تيجان هذه الاعمدة قد تفتت او فقدت . فجرى نحت اعمدة جديدة تشابه الاعمدة
القديمة في الحجم والشكل ، ونحتت تيجان حجرية بدل المفقودة او التالفة . وقد
كانت الاعمدة والتيجان الجديدة من حجري بيت لحم ، فقطعت من الصخر وشغلت
بأيدي نحّاتين مهرة من أبناء بيت لحم توارثوا مهنة النحت من الاء الذين
ورثوها عن اجدادهم .

وجرى ترميم هذه الاقواس واحدا واحدا بكل عناية ومشقة حتى اصبحت
على الشكل الذي نراه اليوم مطابقة تماما للشكل الاصلي . واذا دقق الزائر نظره

قليلًا في هذه الأعمدة استطاع أن يميز بكل سهولة الأعمدة والتيجان القديمة عن الأعمدة والتيجان الجديدة من لونها ، فالقديم داكن اللون نوعًا ما والجديد أبيض زاه . وقد أزيل الجدار الشرقي من هذا الرواق عندهما جرى توسيع كنيسة القديسة كاترينا الملاصقة للرواق في تلك السنة ، أي سنة ١٩٤٩ م .

فهذا الرواق يقع مباشرة في الجهة الشمالية من كنيسة المهد ، ويرتكز عقده على جدارها . ويوجد مدخل يؤدي من كنيسة المهد إلى هذا الرواق وهذا المدخل هو الممر التقليدي للمرور إلى كنيسة القديسة كاترينا في المناسبات الدينية الرسمية . فإن الدخول إلى كنيسة القديسة كاترينا يأتي من مدخل كنيسة المهد المعروف باسم الباب الصغير إلى بين الأعمدة ، ومنها يعرج الداخلون إلى الشمال للمرور من هذا الباب إلى رواق جيروم ، ومنه إلى كنيسة القديسة كاترينا الراحوية . ومن هذا المدخل التقليدي تدخل مواكب العرسان لعقد الأكاليل ، وكذلك مرور الجنازات إلى كنيسة القديسة كاترينا للصلاة على الموتى قبل الدفن . ومن هذا المدخل يدخل مواكب غبطة بطريرك اللاتين إلى كنيسة القديسة كاترينا الملاصقة ، لأقامة صلوات واحتفالات عيد الميلاد .

كنيسة القديسة كاترينا

ندخل الى هذه الكنيسة من المدخل الرئيسي لكنيسة المهد ثم ندخل من بين اعمدة الكنيسة الى باب صغير جدا في الجهة الشمالية يؤدي الى رواق القديس جيروم ومنه الى كنيسة القديسة كاترينا . وفي سنة ١٩٠٦م لما بنيت دار الضيافة « الكازانوفنا » جعل مدخل اخر جديد مشترك يؤدي الى الكازانوفنا والى رواق القديس جيروم المؤدي الى كنيسة القديسة كاترينا .

وفي سنة ١٩٨٠م لما جرى هدم الكازانوفنا لاقامة فندق ضخم ، وحديثا فتح باب قديم كان مقفلا ببناء سبيك مكانها ، وجعل المدخل البديل لمدخل الكازانوفنا ويؤدي مباشرة الى رواق القديس جيروم وهو المدخل الحالي ذو بابين واحد مقفل بباب حديدي واخر مفتوح لدخول المصلين والزائرين في اوقات النهار ، ويقفل من غروب الشمس حتى شروقها . اما المدخل من الكازانوفنا فقد اقفل بالحجارة في اواخر شهر تموز ١٩٨٤ .

حتى قبل سنة ١٣٤٧م كانت الكنيسة مكرسة باسم القديسة كاترينا الاسكندرية ، كما كانت تدل على ذلك الرسوم المختلفة المنقوشة على جدران الكنيسة ، ومنذ القرن الثاني عشر حتى القرن الثامن عشر لم يجر أي تغيير يذكر على بناء الكنيسة . ولكن عدد رعية اللاتين في بيت لحم تكاثر ، فلم تعد الكنيسة تكفي لاستيعاب نصفهم ، فكيف تتسع لجميع ابناء الطائفة والزوار في مواسم الاعياد ؟

وعليه جرى توسيع الكنيسة ، وصممت ثلاثة هياكل للصلاة ، الاوسط وقد امتد مكانه الى خلف الهيكل الاساسي وجعل على الجانبين هيكلا اصغر من الاوسط ، كرس اليمين للقديس انطون البادواني وكرس الهيكل الايسر للقديس فرنسيس الاسيزي . وجعل هيكل جانبي الى جهة الجنوب فوق مدخل مغاور القديس جيروم وكرس باسم العذراء مريم . والحق في الزاوية الجنوبية الشرقية من الكنيسة سكرستيا اي مكان حفظ ملابس الصلاة للكهنة ولـسـوازم القداديس ، وهكذا تضاعف اتساع الكنيسة . فالكنيسة كما تظهر في وقتنا الحاضر ، على النمط الروماني مقسمة الى ثلاث ردهات مفصولة بأقواس حجرية والقسم الاوسط يرتفع الى ضعف ارتفاع الجوانب اقيمت في قسم المرتفع مجموعة شبابيك تنير داخل الكنيسة .

وذكر المرحوم الاب البيرو ريشاني ابن الناصرة وخوري رعية اللاتين في

بيت لحم حتى سنة ١٩٥٢م ، في كتاب الفرنسيكان في بيت لحم ، عن كنيسة القديسة كاترينا ما يلي :

« كان الالباء الفرنسيكان يقيمون المراسيم الدينية في كنيسة المهد فينقاطر المسيحيون من داخل البلاد وخارجها الحضور هذه الصلوات . ولكن تلك الكنيسة التي امتلكوها الى سنة ١٧٥٧م ، أخذها منهم الرهبان اليونان بفرمان من السلطان مراد الرابع ، ولكنهم استعاضوا عنها بالكنيسة المشادة على اسم القديسة كاترينا البتول الشهيدة بعد أن رموها ، وبدأوا يقيمون الاحتفالات الدينية فيها في مختلف المناسبات » .

« ولكن مع مرور الزمن أصبحت هذه الكنيسة غير كافية لاستيعاب أبناء رعية اللاتين في بيت لحم لتزايد عددهم ، فضلا عن الوافدين الى بيت لحم للحج والزيارة والتبرك من الاماكن المقدسة . ولما زار امبراطور النمسا فرانسوا جوزيف الاماكن المقدسة في سنة ١٨٨٠م التمس منه الالباء الفرنسييون المساعدة لتوسيع كنيسة القديسة كاترينا وجعلها تتسع لجماعة المصلين والزائرين . لبس الامبراطور الطلب وأخذ على عاتقه دفع جميع التكاليف اللازمة ، وبوشر بالعمل انذي انتهى في سنة ١٨٨٢م . وفي الخامس عشر من آب من تلك السنة (أي يوم عيد العذراء مريم) دشن الكنيسة حضرة الحارس العام للراضي المقدسة » .

في سنة ١٩٤٨ حينما جرى ترميم رواق القديس جيروم الواقع أمام هذه الكنيسة جرى توسيع آخر للكنيسة الى جهة الغرب فزيد امتدادها اربعة أمتار أخرى اقتطعت من الجانب الشرقي من رواق القديس جيروم ، وجعل المدخل الرئيسي للكنيسة من هذه الناحية له باب عرضه ثلاثة أمتار ، والباب الجديد من البرنز مزدان بأربع صور ، فالأولى للقديس جيروم والثانية لرفيقه القديس ايسوببوس والثالثة الى النبيلة بولا والرابعة الى ابنتها استوكيوم . وهذا انباب من عمل الفنان الايطالي مورتيت A. Mortet في روما . وقبل إرسال هذا الباب الى بيت لحم جرى عرضه في معرض الفنون المقدسة الذي اقيم في روما في سنة ١٩٥٠ الذي اعتبر عام السنة المقدسة .

والدخول حاليا للكنيسة من ثلاث ابواب الاوسط في صدر الكنيسة من جهة الغرب أي من وسط رواق القديس جيروم . والثاني من الجنوب يوصل الى الممر الجنوبي لرواق القديس جيروم ، ومن باب آخر صغير بجانبه يصل كنيسة المهد من أمام هيكل الارمن . وهذا المدخل الواقع في أقصى يمين الكنيسة من جهة مفارة المهد له باب حديدي له أضلاع مشبوكة مع بعضها بحديد مزخرف بشكل فني ، من عمل الاب سلفيريو Selverio في سنة ١٧٠٠م .

وهذا الباب يقفل عادة بعد غروب الشمس أما الجزء العلوي من سياج الحديد فوق الباب فقد عمل في سنة ١٩٥٠م بعد أن قام اللصوص عدة مرات

في الدخول من فوقه الى الكنيسة لسرقته بعض محتوياتها . فكان اللصوص يقفزون من فوق هذا الباب للدخول الى الكنيسة والخروج منها من مكان دخولهم . ويقابل هذا المدخل من الجهة الشمالية مدخل يؤدي الى دير الفرنسيسكان والى الممر القديم لكنيسة القديس اغسطين القديمة والى المدخل الخارجي من جهة الكازانوفنا وهذا الباب مصنوع من الخشب السميك . وعليه كتابة تفيد انه صنع في سنة ١٧٢٩ .

وفي داخل الكنيسة وبالقرب من هذا الباب الخشبي يوجد تجويف في الجدار اعد لمراسيم العماد منذ القرن الماضي ولا يزال يستعمل لهذا الغرض حتى يومنا هذا . وجرن العماد من الرخام اقيم في مكانه سنة ١٧٣٤م ، كما تدل الكتابة المنقوشة على جانب الجرن .

وفي هذه الكنيسة يقيم بطريرك اللاتين احتفالات عيد الميلاد فيحضر من القدس في موكب خاص بعد ظهر يوم ٢٤ كانون اول من كل عام في احتفال خاص حيث يستقبل رسميا وشعبيا ، ويدخل هذه الكنيسة ويقيم صلاة خاصة لمدة ساعة . وحوالي الساعة الحادية عشرة ليلا يقام قداس منتصف الليل ويحتفل بعيد الميلاد ، كما جاء ذكره في الفصل السابق .

وفي كل عام منذ سنة ١٩٨٠ ينقل هذا القداس على شبكات التلفزيون بواسطة الاقمار الاصطناعية الى سائر انحاء المعمورة في بث مباشر . وهكذا يتسنى للملايين من سكان المعمورة مشاهدة هذه الاحتفالات والمشاركة في حضور قداس ليلة عيد الميلاد والدورة الاحتفالية التي تليه من كنيسة القديسة كاترينا الى مغارة المهد في نفس الوقت اثناء اقامتها في بيت لحم .



هيكل كنيسة القديسة كاترينا ، الذي بني بعد توسيع الكنيسة سنة ١٨٨٢م

القديسة كاترينا

تعرف باسم الشهيدة كاترينا الاسكندرانية . ولم أجد لها ذكرا في الكتب العربية ، حتى جاء الاب جبرائيل بريـر الكاهن الفرنسيكاني ، فأصدر كتابه المسمى « الى جبل الرب الى سيناء » بعد قيامه برحلة الى جبل الرب ، ودير سيناء في سنة ١٩٧٥م . وكان قد نشر اخبار رحلته هذه تباعا في مجلة السلام والخير التي يصدرها الالباء الفرنسيكان في القدس . وكانت معلومات وصورة تاريخية تنشر لأول مرة . وجاء في الكتاب المذكور اعلاه تفاصيل حياة وسيرة القديسة كاترينا الشهيدة نجلها للقراء بما يلي :

تزعم الاسطورة التي يرويها رهبان دير القديسة كاترينا في سيناء لمن يزورهم ، بأن كوستوس والد القديسة كاترينا كان ملكا على اكلية في اسيا الصغرى (حاليا تركيا) وكانت امها ابنة امير من طائفة السامريين واسمها سابينا .

ولدت كاترينا في عام ٢٨٩م . ولكنها عاشت وترعرعت في الاسكندرية ، منارة العلوم في تلك العصور الخوالي ، وقبلية النفوس المتعطشة الى العلم والفلسفة . ونهلت كاترينا من ذلك المعين ، فتفوقت حتى طارت شهرتها فأصبحت حديث المجالس والمنتديات في العصر ، لعلها الوير وذكائها المتوقد . وزد على ذلك ما انعم به الباري سبحانه تعالى ، على هذه الفتاة من جمال بارع وفتنة لا تقاوم . وعرفت فيما بعد باسم كاترينا الاسكندرانية نسبة الى مدينة الاسكندرية في مصر ، التي عاشت وترعرعت فيها .

وعادت الى اهلها في اسيا الصغرى واتفق ان مات ابوها بعد ذلك بقليل ، وخافت عليها أمها من الذئاب الخائفة الطامعة بجمالها وفتنتها ، فانزوت بها في مكان قصي من بلاد ارمينيا ، حيث يعيش ناسك عجوز اسمه حنانيا ، بغية ان تسدد خطاها في طريق القداسة وراح الناسك يعظها ويعددها لقبول سر المعمودية ، اذ انها لم تكن بعد قد تعمدت ، كمالوف عادة المسيحيين في القرون الاولى ، لا يقبلون سر المعمودية حتى يتثقفوا في امور الدين ويبلغوا نضوجهم الانساني والمسيحي .

وبلغها يوما ان الامبراطور مكسيمينوس امر باحراق كل من اعتنق الديانة المسيحية والتفنن في تعذيبهم انهم رفضوا العبادة لاله الدولة ، فأسرعت كاترينا واستأذنت الامبراطور وخاطبته بلهجة تنم عن جرأة وايمان وثقة بالنفس . واستحسن الامبراطور كلامها ودهش من بليغ حججها ، ثم اعتذر بأنه غير ضليع في المواضيع الدينية والفلسفية ، الا أنه سوف يصدر اوامره الى بعض علماء الاسكندرية وفلاسفتها المناظرتها في حفل عام ومشهود .

وسافرت الى الاسكندرية وجساء اليوم المعهود للمناظرة ، ووجدت نفسها أمام حشد غفير من الناس وأمام خمسين من ابرز علماء الاسكندرية وفلاسفتها . فراحات تجادلهم بكل شجاعة وتقرعهم الحجة تلو الحجة . وهم ينصتون اليها حابسين انفسهم ، وقد قفروا الانسواء بالدهشة والاعجاب . وحاول بعضهم الرد على حججها وتفنيد براهينها لامحامها فباعوا بالفشل ، وبارزتهم جميعا في كل فنون الجدل ، فاستمالت قلوب معظم العلماء والحضور من الجمهور ، واعتنقوا الدين المسيحي .

ولما علم الامبراطور بأخبار فوزها الساحق ، واقتناع الفلاسفة بصحة الدين المسيحي ، استشاط غضبا وأمر بحرقهم جميعا ، على أن يذيقوا كاترينا مسر العذاب وفادح الالام ، أملا بذلك زعزعة ايمانها . وزجوا بها في غياهب السجن بعد أن اثخنوا جسدها بالجراح وقيّدوا يديها ورجليها بالسلاسل الحديدية ، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل ، فلم تتراجع كاترينا عن عقيدتها .

وترامى الى سجن الامبراطورة واسمها فوستا ، الانتصار الباهر الذي احرزته كاترينا على علماء الاسكندرية وفلاسفتها ، وما لحق بها من عذابات في السجن . فاستبدت بها رغبة ملحة في رؤية كاترينا في سجنها ، فدخلت اليها ليلا دون علم زوجها الامبراطور برفقة بورفيريوس قائد الحرس في القصر فدخلت عليها لتجدها مستغرقة في صلاة حارة . وأمام هذا المشهد ، شعرت الامبراطورة بأن قلبها يذوب حبا وحنانا لهذه المخلوقة ، واذا بكاترينا تتنبا بأن الله سوف يكافئ عطفها وعطف قائد الحرس بأن ينعم عليهما بالامسيح .

وجن جنون الامبراطور فطار صوابه عندما ثيقن أن زوجته الامبراطورة وقائد حرسه قد اعتنقا الدين المسيحي . فأمر للحال بتعذيبهما وقطع رأسيهما مع مائتين من الحرس الذين آمنوا بالمسيح على مثال قائدهم .

وحاول الامبراطور أن يغري كاترينا أن تتزوجه لتصبح الامبراطورة ، فرفضت بكل شدة وازدراء . وأمر الجلاديين بتعذيبها حتى تلفظ أنفاسها الأخيرة . أما كاترينا فصلت إبان العذابات متوسلة الى الله أن يأمر ملائكته ، فيحملوا جسدها الى مكان بعيد حتى لا يتجاسر احد على تدنيسه بعد موتها . فما أن مدت عنقها للسياف ، وأهوى بسيفه عليها حتى غابت عن الابصار ، ولم يبق لها من أثر . وكان ذلك في ٢٥ تشرين ثاني (نوفمبر) من عام ٣٠٧ م . وتحفل الكنيسة الكاثوليكية بعيد هذه القديسة في الخامس والعشرين من شهر تشرين ثاني من كل عام .

وبقي جسد القديسة كاترينا مختفيا ، حتى وجده راهبان دير سيناء ، على قمم احد الجبال المحيطة بالدير ، فأحضره ودفنوه في داخل الكنيسة . ومنذ ذلك الحين أصبح ذلك الدير يعرف بدير القديسة كاترينا .

مغارة الحليب

عندما يخرج المرء من كنيسة الميلاد الى الساحة الخارجية ويسير في الشارع الملتف حول الكنيسة من جهتها الجنوبية ويتجه شرقا ، فانه بعد مسيرة خمس دقائق يصل الى منحدر يتجه شرقا فيشاهد امامه مدينة بيت ساحور وحقل الرعاة وسهل راعوث وجبل الفردوس مكان منزله هيرودوس . وعلى رأس هذا المنحدر يجد على يمينه كنيسة صغيرة تسمى مغارة الحليب او مغارة سيدتنا مريم كما كان يسميها العامة قديما .

وطبقا لرواية متناقلة منذ القرن السادس ، ان العذراء مريم قد اختبأت مع طفلها في هذه المغارة خوفا من هيرودوس وان القديس يوسف قد شاهد الملاك بالحلم وأنذره بالهروب بالطفل وامه الى مصر ، فأفاق من النوم وطلب من العذراء بالاسراع في الهروب ، وكانت العذراء ترضع طفلها فسقطت نقاط من حليبها على الأرض فتحول الصخر الى اللون الابيض .

ومنذ القرن السادس يزورها الحجاج والزوار القادمون الى بيت لحم ويأخذون معهم بعض القطع من جدران المغارة الى بلادهم في الشرق وأوروبا ، بركة من الأرض المقدسة . فكانت العادة ان تدق قطعة من صخر المغارة ثم تكبس على شكل قطعة صغيرة . وأقدم نموذج معروف من هذا النوع واحدة في مدينة أوفيدو Oviedo في اسبانيا منذ القرن السابع . والثانية قدمت هدية الى شارلمان الكبير في سنة ٨٠٠م . وبعدها حفظت في كنيسة مدينة بيكاردي Picardi في فرنسا . وأخذ جيرارد الثالث اسقف بيت لحم قطعة من هذا النوع الى معسكر الملك بالدوين الثالث قائد حملة الصليبيين اثناء محاصرة مدينة عسقلان في سنة ١١٢٣م .

وقد أصبح لصخرة المغارة صفة احترام ديني وساد الاعتقاد ان قليلا من تراب هذه المغارة اذا رش على ثدي المرضع زاد اندارا للحليب . وصار هذا الاستعمال شائعا طوال قرون طويلة حتى مطلع القرن العشرين ، فتذهب النساء المسيحيات والمسلمات على السواء الى هذه المغارة للتبرك وترش كل امرأة قليلا من حبات المغارة على ثديها . وكانت النتائج مذهشة ، وعلى نياتهن كن ينلن بركة من لدن الرب .

وان اول من لاحظ هذه الحالة يدعى بيرديكا Perdicea من أنسس Ephesus سنة ١٢٥٠م وعن طريقه زاد انتشار هذه العقيدة في خارج فلسطين . وطبيعي فانه مع مرور الايام زال شكل المغارة الاصلي واتسعت المغارتان بسبب الحفر المستمر .

وفي عهد الصليبيين بنيت في هذا المكان كنيسة . لكنه جرى بعد الصليبيين تدمير الكنيسة والدير في سنوات ١٣٤٩ و ١٣٥٣ ، ثم قام الاباء الفرنسيون بالاعتناء بهذا المكان واعادة حرمة ، وخططوا لبناء كنيسة فوق المغارة ودير للرهبان وجرسبة ومقبرة . وقيمت هذه المخططات أخلافا لتعذر الحصول على إذن بذلك من حكام البلاد . وفي سنة ١٤٩٤م استطاعوا القيام ببعض التصلحيات واقاموا هيكلًا لاقامة القدايس عليه .

وهكذا بقي هذا المكان خرابًا ، فيه حجرة تضاء بقناديل الزيت . وفي سنة ١٥٦٠م كبر السن ان هذا المكان بقي مزارًا فقط ، وان امرأة من عائلة الجبرية كانت تهتم بتنظيف هذا المكان ووضع الزيت في القناديل . وكان هذا المكان يعتبر ملك عائلات بيت لحم من طائفة اللاتين فقط .

وفي حوالي سنة ١٨٣٨ اعطي هذا المكان الى رهبنة الفرنسيون فاشادوا عليه البناء الحالي . ويوجد على يمين الداخل امام الكنيسة لوحة حجرية في الجدار منحوت عليها : « بارك يا رب من تعبوا في بناء هذه الكنيسة ، واعطوا الراحة الابدية لنفوسهم . سنة ١٨٣٨ » .

وفي سنة ١٩٣٥م قدم المهندس عيسى عبد الله حزيون وزوجته هيلانة واولادهما نذرا اكراما للسيدة العذراء ، فبنوا في مدخل كنيسة مغارة الحليب الاقواس والزخارف التي يراها الداخل لزيارة هذا المكان . بالاضافة الى ذلك زينوا الدرجات التي ينزل منها الى هذه المغارة بالزخارف الصدفية . كذلك قدموا خمسة مقاعد خشبية يتسع كل منها لجلوس ستة اشخاص ، يستعملها المصلون عند حضور القدايس في هذا المكان .

كنيسة القديس يوسف

وعلى مسيرة عشر دقائق السى الشرق من مغارة الحليب في نفس الشارع المار امامها تصل الى بيت فوقه جرسية صغيرة يعرف باسم كنيسة مار يوسف .
وتفيد التقاليد ان العائلة المقدسة (يسوع ومريم ومار يوسف) بقيت في بيت لحم مدة من الزمن ما بين سنتين الى ثلاث سنوات . وحسب شريعة موسى ادخلت العائلة الطفل الى الهيكل في القدس ليظهر (لوقا ٢: ٢٢) . والمجوس وجدوا الطفل في بيت لحم (متى ١١: ٢) . والانجيل يذكر ان العائلة المقدسة بقيت في بيت لحم بعد ميلاد الطفل ، ويغلب الظن انهم وجدوا مكانا التجأوا اليه في هذه الانحاء لما انتقل من مغارة الى بيت ليس فيه اي شك . فالقديس يوسف من عائلة قاطنة في بيت لحم وله فيها اقارب ومعارف ، فحنوا على حالته وساعدوه ببعض المأوى فضلا عن ذلك فان القديس يوسف كان نجارا ، وبامكانه العمل وكسب عيشه من عمله .

وخلال القرون الوسطى جسر محاولات بحث لتحديد اماكن في بيت لحم لاهياء ذكرى اقامة القديس يوسف في هذه المدينة . وجرت عدة محاولات لهذه الغاية على المنحدر الواقع شرقي مغارة الحليب حتى حقل الرعاة . وقد ذكر بعض الزوار انه امكن تحديد مكان يعود الى القديس يوسف ، على المنحدر شرقي كنيسة الميلاد ، وذلك في النصف الاخير من القرن الرابع عشر .

وكنيسة القديس يوسف الحالية بنيت في سنة ١٨٩٠م وقد شيدت فوق صخرة وبقايا مباني ذكرت من قبل عدد كبير من الزوار للاراضي المقدسة .
تجد عند الهيكل صخرة وخلف الهيكل حجرا كبيرا ربما يعود الى الهيكل الاصلي . واما بناء الكنيسة الصغيرة التي اقيمت لتحبي ذكرى بيت القديس يوسف تبرعت بنفقاتها السيدة اوديرت . وقد اقيمت على شكل بيت للسكن ، تحاشيا لاعتراضات السلطة الحاكمة في ذلك الحين ، حيث كانت تعارض في بناء كنائس . وفي ٢٠ اذار سنة ١٨٩٣م جرى تكريس هذه الكنيسة من قبل حارس الاراضي المقدسة في ذلك الحين الاب جيمس غزي .

وتحتفل الكنيسة الكاثوليكية بعيد القديس يوسف ١٩ اذار من كل عام . وفي هذا التاريخ من كل عام يقوم ابناء رعية اللاتين في بيت لحم بزيارة هذه الكنيسة بعد ظهر ذلك اليوم واقامة صلوات خاصة احتفالا بعيد القديس يوسف . كذلك تجرى اقامة القداديس في هذه الكنيسة عدة مرات كل شهر .

كنيسة حقل الرعاسة

إذا وقف المرء في الساحة الواسعة أمام كنيسة المهد ، فإنه يجد على يمينه شارعاً جيداً ينحدر إلى جهة الشرق يؤدي إلى مدينة بيت ساحور التي تبعد كيلومتراً واحداً شرقي كنيسة المهد . ومع مرور الأيام امتد البناء خلال القرن الحالي بين بيت لحم وبيت ساحور حتى تلاقي من الطرفين .

في القرن السابع عشر كانت بيت ساحور هذه تعرف باسم بيت ساحور النصراني ، تميزاً لها عن بيت ساحور الانتيكيا ، الواقعة على الجانب الأيمن من وادي النار إلى شرقي قرية سلوان . وحتى قبل ١٢٠ سنة كانت قرية بيت ساحور الانتيكيا يسكنها مسلمون أصلهم من الكرك ، وربما من سلالة الجنود الذين حضروا مع صلاح الدين الأيوبي في حملته ضد الصليبيين ، ثم هجرت هذه القرية في مطلع القرن الماضي .

والى الشرق من مدينة بيت ساحور يقع سهل واسع يسمى سهل راعوث التي تزوجت بوعاز البيتلحمي ، كما جاء ذكر ذلك في التوراة في سفر راعوث . وبموجب التقليد المسيحي المتوارث منذ القدم ، أنه في هذا المكان ظهر ملاك الرب إلى الرعاة الذين كانوا ساهرين على حراسة أغنابهم وبشرهم بميلاد الطفل يسوع المسيح ، كما جاء ذكره في إنجيل لوقا الإصحاح الثاني .

وذكر أيوسيوس (٢٦٥-٣٤٠ م) أن الرعاة الذين بشرهم الملاك كانوا في مغارة تبعد ألف خطوة إلى الشرق من بيت لحم ، بجانب برج أيدر . ويرجع أيدر هذا جاء ذكره عدة مرات في التوراة ، ويعتقد أنه بقي قائماً حتى القرن الثالث بعد الميلاد ، وأن موقعه كان في الجهة الشمالية الشرقية ، في المكان الذي يعرف حالياً باسم سير الغنم . وكانت الأرض المعروفة باسم سير الغنم تد اشتراها الأباء الفرنسيون قبل قرنين ، وقاموا بحفريات واسعة في هذا المكان في سنة ١٨٥٩م بأشراف الأب جوارماني . ثم أعيد التنقيب في سنة ١٩٥١ - ١٩٥٢م .

لقد اتضح من الحفريات أنه كان في هذا المكان ديران : الأول من طراز القرن الثالث أو الرابع بعد الميلاد ، والثاني من طراز القرن السادس بعد الميلاد . من الدير الأول وجدت أساسات الكنيسة وبعض الجدران المحيطة بها . أما كنيسة القرن السادس فقد دُمّرت ثم بني مكانها في وقت لاحق كنيسة جديدة مع امتداد قليل في الطول لجهة الشرق . وقد عثر من الكنيسة الأخيرة على مقدمة الكنيسة وجدران عدة أحجار مجاورة لها . وقد جاء في تقرير الأب كوربو بأن

حجارة كثيرة عائدة الى كنيسة القرن الرابع قد استعملت في بناء الكنيسة الثانية في القرن السادس ، وان اصل هذه الحجارة مأخوذة من بقايا كنيسة الميلاد التي بناها قسطنطين .

اما مكان الدير التي اقيمت في هذا المكان لم تكن احسن الدير في المنطقة ، فقد اقيمت في أماكن وعرة . وانما الكنيسة الثانية فقد اقيمت فوق الكنيسة الاولى بالضبط مما يدل ان هذا المكان له ذكرى خاصة . اما كنيسة القرن السادس فقد دمرت من قبل حكام فلسطين في القرن الثامن ، الذين حاولوا محو كل ما يشير الى الدين المسيحي ، فقد ازالوا بالازاميل كل نقوش تشير الى صليبان او غيرها . وعثر على غرف كثيرة عائدة الى الكنيسة الثانية ، أمكن تمييز نـسـوع استعمالها من بقايا محتوياتها : —

مخزن للادوات الفخارية ، مكان الجبس ، معصرة للزيتون ، مخزن التهوين ، أصطبل للحيوانات ، وعده أبار ماء واقنية كانت تستعمل لسقي البساتين حول الكنيسة .

اما الكنيسة الحالية التي نشاهدها اليوم في هذا المكان ، فقد بنيت في سنة ١٩٥٣ و ١٩٥٤ بموجب تصميم وضعه المهندس المعماري الايطالي بالوزي ، يوم وضع حجر الاساس ويوم تكريس الكنيسة نهار عيد الميلاد . وتقع الكنيسة فوق صخرة كبيرة تـكـرس مكان الانقاض وخارجها تمثل خيمة بدوي . بشكل متعدد الجوانب له خمسة جوانب مستقيمة ، وخمسة جوانب بارزة مائلة من الاعلى تجاه الداخل . على شكل خيام ويدخل النور الى داخل الكنيسة من زجاج سميك مثبت باسمنت في قبة الكنيسة ، يوحى للناظر اليه النور الباهر الذي انبثق للرعاة ليلة ميلاد المخلص .

وقد قام النحات الايطالي كامبيلوني Cambiloni بعمل ونحت التمثال البرونزي فوق عتبة المدخل والتمائيل البرونزية الاربعة التي تحمل المذبح الرئيسي في وسط الكنيسة ، والشمعدانات والصليبان . وقام المهندس نوتي بعمل الرسومات من الجبس في الحنيات الثلاث خلف المذبح ، والرسام منجيتي قام بنقش صور عشرة ملائكة في قبة الكنيسة من الجبس .

أبـار القـبـي داود

ان الزائر الى بيت لحم ، وقبل ان يصل الى كنيسة المهد بنحو نصف كيلومتر يشاهد على يمينه كنيسة متواضعة للسريان الكاثوليك تعرف باسم كنيسة القديس يوسف وقد بنيت سنة ١٩٢٩م . ويعدّها الى الشرق يقع منتزه يدعى منتزه العمل الكاثوليكي ، وهذا المكان اشتراه الابهاء الفرنسيون من ورثة حنا منصور في سنة ١٩٥٠م ويعرف باسم ابار الملك داود ، ويقع على جبل يشرف على كنيسة المهد وحقل الرعاة ويبيت ساحور حتى جبال مؤاب شرقا .

وفي اعلى هذا المكان توجد ثلاث ابار عميقة مملوءة بالماء ، يقال انها ابار الملك داود ، وقد جاء ذكرها في النوراة (صموئيل الثاني ٢٢: ١٤-١٧) وهو يتحدث عن حرب الملك داود مع الفلسطينيين ما يلي :

« وكان داود في مغارة عدلام وجيش الفلسطينيين نازلا في وادي الرفائيين ، وكان داود حينئذ في الحصن وحفظه الفلسطينيون حينئذ في بيت لحم فتأوه داود وقال من يسقيني ماء من بيت لحم التي عند الباب . فشق الابطال الثلاثة (من اتباع داود) محلة الفلسطينيين واستقوا ماء من ثربيت لحم التي عند الباب وحملوه واتوا به الى داود فلم يشأ ان يشربه بل سكبـه للرب وقال حاشا لي يا رب ان افعل ذلك . هذا دم الرجال الذين خاطروا بانفسهم فلم يشأ ان يشربه » . ومن هنا يستدل انه كان عند هذا الموقع باب لسور بيت لحم في ذلك الوقت . وأن الابار موقعها خارج سور بيت لحم .

وبجانب هذه الابار كانت هناك كنيسة مكان الساحة التي امام السينما الحالية في العمل الكاثوليكي . كذلك الى الشرق في القسم المنخفض توجد مقبرة محفورة في الصخر . في سنة ١٨٩٥م وجدت قطعة من ارضية موزاييك من بقايا ارضية الكنيسة التي كانت قائمة هناك في القرون الغابرة وهدمت من جملة الكنائس الكثيرة التي تم تدميرها قبل خمسة قرون . ووجدت كتابات باللاتينية من ١٩-٢٠ من المزمور ١١٧ :

افتح لي ابواب العدل ،
وسأدخلها واقدم شكري للخالق ،
هذه البوابة هي لله ،
والعدالة سوف تدخلها .

وهذه القطعة من الموزاييك مدفونة الان تحت ارضية الحقل ، ويصعب اجراء تنقيب جديد بسبب التغيرات التي طرأت فوق المنطقة . وعندما وجدت هذه

القطعة من الموزاييك اعتقد الكثيرون انها ضريح الملك داود ودليل ملموس فانه حسب التقليد اليهودي ان قبر الملك داود هو في مكان ما لا يزال مجهولا يقع على جبل صهيون الواقع ملاصقا لسور مدينة القدس من الجهة الجنوبية ، بينما يعتقد الكثيرون ان قبر الملك داود وابنه سليمان مدفونان في مكان ما في مدينة بيت لحم ، وعلى الأرجح في موقع كنيسة المهد .

وجدت تحت الكنيسة مقبرة أرضية لها عدة قبوات تحتوي على ١٨ قبراً ، كل قبو مكون من قبرين الى ستة قبور . في سنة ١٩٦٢م قامت حراسة الأرض المقدسة ببعض التنقيب باشراف الاب ميشيلا انجيلو تيزاني . وفي الحفريات عثروا على عدة قطع فخارية من القرن الرابع ميلادي ، ونقوش على الحائط تعود ما بين القرن الرابع حتى السادس . واهم هذه النقوش على الجدران شكل صليب من عهد قسطنطين من القرن الرابع محفور في الصخر عند مدخل المقبرة ، مما يدل على انها أرضية مقبرة مسيحية .

قبر راحيل

والقادم من القدس لزيارة بيت لحم يجد نفسه امام قبر راحيل او كما يسميها العامة منذ القرن الماضي « قبة راحيل » وكذلك يطلقون هذا الاسم على المنطقة المحيطة بها ، فيقول فلان ساكن عند قبة راحيل او ارضهم واقعة جهة قبة راحيل . وبعد قبة راحيل ببضعة امتار يكون مفرق الشارع المؤدي الى بيت لحم . اما الشارع الرئيسي فيستمر حتى مدينة الخليل ويتر السبع حتى يصل القاهرة .

وقد جاء في سفر التكوين الاصحاح ٣٥ ما يلي :

« ثم رحلوا من بيت ايل ولما كانت مسافة من الارض بعد حتى يأتوا الى افراتا ولدت راحيل وتعسرت ولادتها ، وجدت حين تعسرت ولادتها ان القابلة قالت لها لا تخافي لان هذا ايضا ابن لك ، وكان عند خروج نفسها لانها ماتت انها دعت اسمه ابن أونى اي ابن الامي . واما ابوه فدعاه بنيامين ، فماتت راحيل ودفنت في طريق افراتا التي هي بيت لحم ، فنصب يعقوب عامودا على قبرها » . وهو عامود قبر راحيل الى اليوم .

وتذكر الكتب الدينية القديمة ان يعقوب اقام فوق قبر راحيل أيضا نصبا تذكاريًا على شكل هرم ، جرت العادة على اقامته فوق القبور اليهودية . وفي سنة ١١٦٥م اضيف ١٢ حجرا للذكرى ابناء يعقوب الاثني عشر . وفي بعض الروايات انه كان ١١ حجرا فقط لان بنيامين كان مفقودا .

يعتقد اخرون انه في زمن البيزنطيين وربما في وقت لاحق بعده ، قد جرى نقل قبر راحيل الى مكان اخر مكرس للعبادة عند المسيحيين . وفي القرن الرابع عشر جرى تحسين لقبر راحيل وبني قبر حجري له ظهر مقوس . وكان الاب اميكو قد ترك رسما لمكان قبر راحيل في نهاية القرن السادس عشر يظهر ان الفستقية وفوقها بناء على شكل كنيسة صغيرة ولها اربعة اقواس اي كل جانب له قوس ، وهذه الاقواس الاربعة قد جرى سدها ببناء جدار حجري من قبل محمد باشا والي القدس في سنة ١٥٦٠م ، واستعاض عن الشكل الهرمي ببناء قبة . وفي القرن الماضي قام الثري اليهودي المعروف موسى مونتفيوري ببناء غرفتين حول القبر فأصبحت على الحال الذي نشاهده في وقتنا هذا .

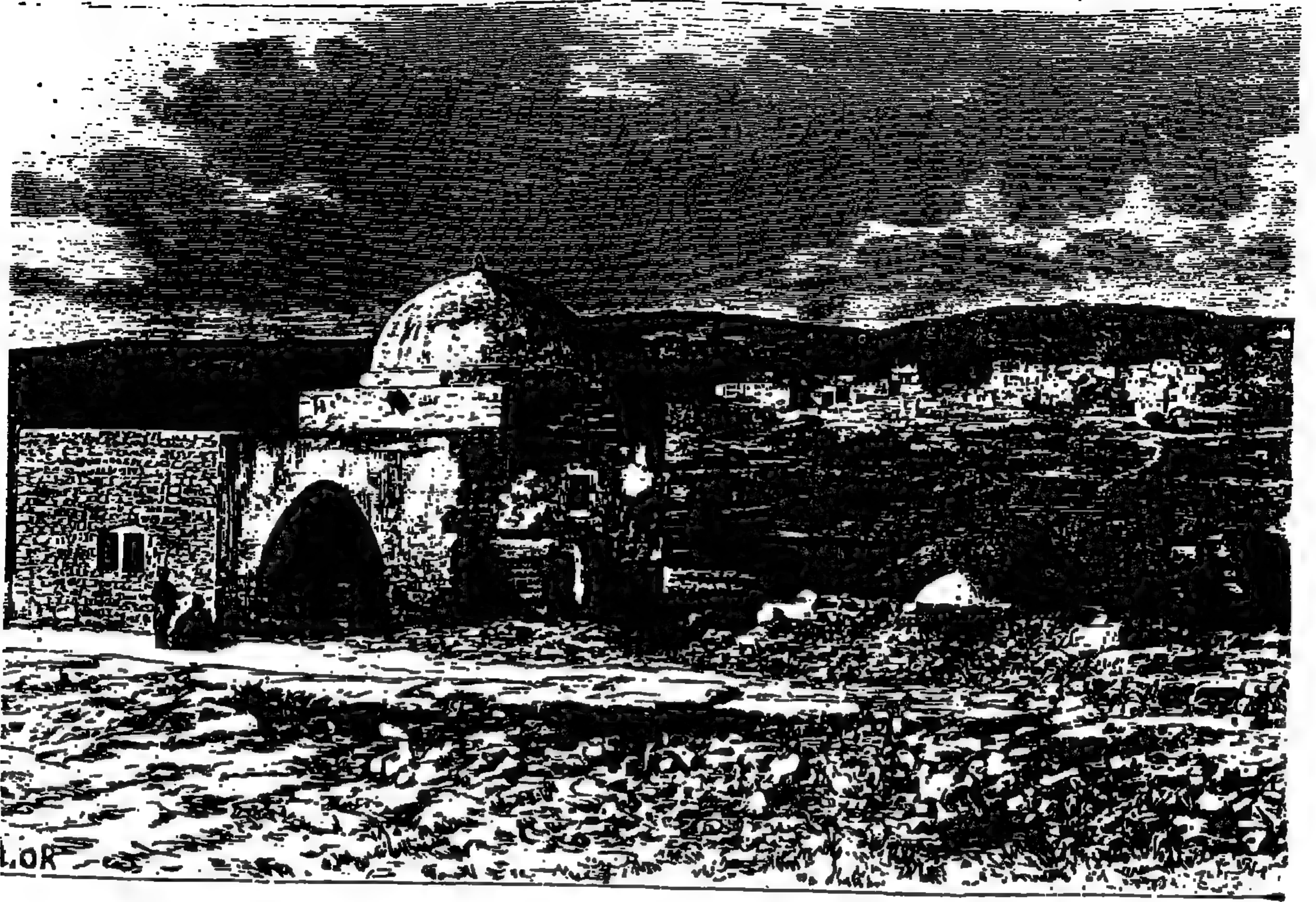
وقد اعتبر المسلمون هذا الموقع حول قبر راحيل مكانا مقدسا واتخذوا ما حوله مقبرة لموتاهم حتى يومنا هذا . ورغم ان اليهود والمسيحيين والمسلمين يقومون بتقديس ذكرى راحيل في هذا المكان فان الكثيرين من المؤرخين اثاروا الشك حول صحة كون هذا المكان هو قبر راحيل الحقيقي .

أما الاب الفرنسي كان لومباردي Lombardi قام بتفحص كل ما ذكر عن راحيل في نسخ الكتب المقدسة التي تشير الى افراتا ، فخرج بنتيجة ان قبر راحيل الحقيقي هو قرب حزما ، شمال القدس حيث توجد شواهد خمسة قبور معروفة باسم قبور اطفال اسرائيل ، وانه قد دفنت اربعة نساء اخريات من نفس القبيلة حول قبر راحيل . وهكذا فان فريقا من المؤرخين يؤكد ان قبر راحيل الحقيقي هو الواقع عند مدخل مدينة بيت لحم ، بينما يصر الآخرون ان قبر راحيل الحقيقي هو في قرية حزما شمالي القدس .

وكان حول المقبرة التي تحيط بقبة راحيل جدار مهدم فقامت دائرة الاوقاف الاسلامية في بيت لحم ببناء سور حجري مكانه . وأما الباب الحجري الذي يدخل منه الى البناية التي تحوي قبر راحيل ، فان هذا الباب بني في مكانه سنة ١٩٥٤ .

وهذا الباب كان أصلا المدخل الخارجي لبناية السرايا في بيت لحم ، والتي أحرقت سنة ١٩٣٨م . وأقيم مكانها مركز شرطة بيت لحم الحالي . فلما هدمت السرايا القديمة سنة ١٩٤٠م اشترى هذا الباب الحجري الاوقاف الاسلامية وبنوه مدخلا لجامع عمر في بيت لحم ، ذلك المدخل الذي كان مكان المدخل الحالي للمحكمة الشرعية الاسلامية في بيت لحم . فلما هدمت بناية جامع عمر القديمة في سنة ١٩٥٢م لاقامة البناية الحالية ، لم تكن هناك حاجة لهذا الباب ، فنقل وبنى في مكانه الحالي في مدخل بناية قبة راحيل . وهكذا يمر امام هذا الباب الواقع على الشارع العام بين القدس وبيت لحم ، بمر الكثيرون في كل يوم ذهابا وايابا ، ولا أحد يلفت نظره الى هذا الباب الحجري .

قبر راحيل



يقع قبر راحيل قرب مدخل بيت لحم على طريق القدس الخليل الرئيسي ، وقبل مائتي متر من المفرق المؤدي الى بيت لحم وكان هذا المكان يبعد كيلومترين عن كنيسة المهد والمدينة ، وفي القرن الحالي امتد البنيان واتسعت حدود بلدية بيت لحم حتى شملت المفرق لدخل المدينة وقبر راحيل وما بعده حتى دير الطنطور قرب مدينة القدس . وهذا المقام محترم من الاديان الثلاثة في البلاد .

هذه الصورة تمثل حال هذا المكان في اواخر القرن التاسع عشر الماضي . وتظهر خلف البناء على ظهر الجبل الى الغرب مدينة بيت جالا . وحول البناء تقع مقبرة للمسلمين في منطقة بيت لحم لا تزال تستعمل حتى يومنا هذا .

والبناء مكون من غرفتين ، الغرفة الداخلية وهي تحتوي على قبر راحيل بنيت قبل اربعمئة سنة في عهد الاتراك . والغرفة الخارجية حصل على اذن من الاتراك بينائها الثري اليهودي الانكليزي موثيه حايم منتفيوري في عام ١٨٤١ م وهي عبارة عن رواق شرقي بسيط ملاصق لغرفة المقام .

بداية عهد الاديرة في فلسطين

سبق ان ذكرنا في فصل سابق أن حياة الرهبنة والنساك ، وجدت في فلسطين منذ عهد الرسل . وانتشرت بنوع خاص حول مدينة بيت لحم ، وخاصة في المنطقة التي كانت تعرف في ذلك الزمان باسم صحراء او برية يهوذا ، ثم عرفت فيما بعد ببرية يوحنا المعمدان .

لم يترك التاريخ الا اخبارا قليلة عن النساك الاوائل ، لكن اشتهر منهم الكثيرون في القرنين الرابع والخامس من امثال جيروم ، والقديس افثيموس ، والقديس سابا ، والقديس تيودوسيوس صاحب دير ابن عبيد ، والقديس خاريتون فكانت اعمالهم ترفع من قيمة وانتشار المسيحية في كل مكان .

جاء هؤلاء النساك والمتعبدون ، الى فلسطين من كابودكيا Cappodicea في اسيا الصغرى ، واقام كل منهم صومعة له ينسك فيها ، واكثرها لا تزال اثارها بادية للعيان حول بيت لحم والقدس ووادي الاردن . وبينما كانوا رجال عبادة وفضيلة كان كل منهم له تفكيره المستقل وطريقته في التعبّد ، وله ايضا مقاييسه الخاصة في الامور الدنيوية والدينية .

وكان اول دير بني في فلسطين الدير الذي بناه القديس ايلاريون قرب غزة في سنة ٣٢٩ م . وفي نفس المدة كان القديس خاريتون يبني ديرا له في ممر ضيق في وادي نارة . ثم بعد ذلك بوقت قصير اقام اديرة للنساك في أماكن منعزلة في جنوبي بيت لحم .

في مطلع القرن الخامس الميلادي ، جاء الى فلسطين من كابودكيا القديس افثيموس واستقر في الدير المقام في وادي نارة . وفي وقت لاحق قام القديس افثيموس بالاشتراك مع القديس ثيوكتستوس باقامة دير جديد في الممر الضيق جدا من وادي مكيلك ، في برية يوحنا المعمدان . وفي وقت لاحق قام الاثنان ببناء دير آخر ، لا تزال بقاياها حتى يومنا هذا قرب الخان الاحمر على طريق القدس - اريحا .

في سنة ٤٨٣ م ، جاء الى فلسطين متعبداً آخر من كابودكيا ، واقام له ديره الاول في مغارة في وادي النار جنوبي بيت لحم . وكانت المنطقة مبرا ضيقا مهجورا ليس فيه احد من السكان . وحضر الى المكان عدد من الرهبان ، واقام كل منهم صومعة له يتعبّد فيها لوحده . وكانوا لا يجتمعون الا في صباح كل احد حيث يحضرون الى الكنيسة لاقامة القداس هناك .

ويذكر بعض المؤرخين انه كان في فلسطين في سنة ٦١٤ م ، سنة غزو الفرس لها ، كان هناك ١٣٧ ديرا عامرة بالنساك والرهبان . قام الفرس بتدمير معظمها ونهب من وجدوه فيها من الرهبان وغيرها ، بعد أن نهبوا كل شيء له قيمته . فقام البطريرك بمساعدة اصحاب الحمية بترميم ما أمكنه ترميمه من هذه الكنائس .

دير مار سسبابا

إذا انحدر المرء من بيت لحم الى بيت ساحور ثم سار الى الشمال الشرقي على الطريق الروماني القديم الذي يؤدي الى نهر الاردن ، فإنه بعد مسيرة عشرة كيلومترات في برية يوحنا المعمدان . يشاهد في ذلك المكان المهجور ديرا محاطا بسور وله برج مراقبة . هذا الدير اشبه بحصن منيع منه بدير للعبادة والتسكك ، سمي منذ القديم على اسم بانيه القديس سابا ، ويعرف عند العامة باسم دير مار سسبابا .

ولد القديس سابا في قرية ماتولسكابين مقاطعة كامبوديا في ولاية انقره نسي سنة ٤٣٩م ، ولما بلغ الثامنة عشرة من عمره جاء الى فلسطين لينقطع للعبادة هناك . فدخل دير باساريون الذي بني سنة ٤٣٨م قرب المدخل الشرقي لمدينة القدس . ثم انتقل الى دير القديس افثيميوس ، فلما وجد هذا الشاب صغير السن أرسله الى دير ثيوكتستوس ، فبقي هناك ١٧ عاما .

في سنة ٤٧٨م اختار ان يسكن في مغارة في وادي النار الواقعة في وسط المكان الذي بني عليه فيما بعد ديريه الحالي . وقد نال القديس سابا شهرة كبيرة بين الرهبان والاديرة ثم عرفت عنه من حسن الرعاية والادارة . وقد كلفه البطريك ساليتيوس في سنة ٤٩١م بأن يترأس جميع الاديرة والصوامع والنسك الذي في منطقته ، فاعتذر عن قبول المهمة لجسامة مسؤوليتها ، ولكن البطريك لم يقبل اعتذار مار سابا وقال له اعتبر هذا التكليف أمرا مقدسا فاضطر ان يلتزم به بحكم الطاعة للرؤساء المطلوبة من كل راهب .

وكان مار سابا معروفا بالعمل والجدوسعة التفكير ، وقد اختاره بطريك القدس مرتين ليكون رسوله الى اباطرة القسطنطينية . فاختير أول مرة بعد ثورة السامريين ، ليكون رسول بطريك القدس الى الامبراطور جوستنيان ليخبره بما فعل السامريون في القدس . والمرة الثانية كان رسول بطريك القدس الى الامبراطور انسطاس لامور تتعلق بحالة الاديرة في ذلك الحين .

وقد لاقى القديس سابا في عهد رئاسته مشاكل كثيرة من نساكه لتباين عقولهم واجناسهم . فترك الدير فترة الى القدس ثم عاد اليهم فثاروا عليه ثانية فتركهم حتى يوم تدشين كنيسة القيامة بعد تجديدها ، بعد اخماد ثورة السامريين في فلسطين . وقد حملته الاسقف الياس كتب توصية الى النساك الثائرين ، فشاط غضبهم ودمروا برج الدير ونهبوا ما فيه ، وغادره ستسون راهبا الى تقوع عام ٥٠٣م وبنوا لهم ديرا هناك . ومع ذلك لم تهدأ اضطراباتهم مما اضطر الامبراطور جوستنيان الى طردهم وارجاع كل منهم الى بلده ،

واحلال نساك اتقياء مكانهم ، فمنهم القديس سيريل من سكيثوبولس .

ويحيط الدير سور عال وعلى مدخله برج يدعى باسم الملكة افذوكسيا التي أمرت ببنائه عندما جاءت تجادل القديس افثيموس في ديانتة المسيحية عام ٥٥٥م فاعتنعت منه واعتنقت هي المسيحية بعد هذا اللقاء . وفي البرج خارج السور ترى قصرا يدعى قصر البنات او قصر القديس سمعان تؤمه السيدات اللواتي يجئن لرؤية دير مار سابا الذي يمنع دخول النساء اليه . وقد شيد عام ١٦١٢ م .

أما كنيسة الدير فواسعة ٢٤ x ١٩ أمتار وبشكل صليب يعلو سقفها قبة مستديرة . وتزين جدرانها ايقونات متعددة منها القديم ومنها الحديث . أما ايقونسطاسها فهي من الخشب الجميل النحت والنقش مطلي بالذهب . ويعضد جدران الكنيسة من جهتيها الجنوبية والشرقية ساندات ضخمة من البناء الخارجي . وتطل من فسحة واسعة شمال شرقي الكنيسة على الوادي السحيق وتري في غريه نبع ماء يزود الدير بماء الشرب ، هذا الابار المحفورة لجمع المياه فيها . وإلى الشمال الشرقي من الكنيسة مغارة كان يسكنها يوحنا الدمشقي في القرن الثامن ٧٣٦م ، توفي ودفن فيها في ١٢-١٢٩٦م لكن رفاته نقلت الى موسكو فيما بعد ، وحولت المغارة الى كنيسة باسمه . كذلك سكنه قوزما في نفس الفترة وتطل من شرفة الكنيسة على وادي قدرون ، حيث ترى الى الشمال مغارة تبعد حوالي ٣٠٠ مترا عن موقع الكنيسة كانت مأوى لصوفيا والدة القديس سابا .

ولما زار السائح الروسي دانيال من كيف البلاد المقدسة عام ١١٠٦ حتى عام ١١٠٨م زمن الحكم الصليبي مكث في دير مار سابا ستة عشر شهرا .

وكان الدير يحوي مكتبة هامة ، فيها الكثير من المخطوطات ، أمر البطريرك كيرلس ١٨٤٥-١٨٧٣ بنقلها الى دير المصلبة حيث المدرسة اللاهوتية جنوب غربي القدس خوفا على محتوياتها من النهب او الدمار . ومن هناك نقلت الى مركز دير الروم في القدس .

ومن سار في الوادي شرقي دير مار سابا يشاهد الخلوات والصوامع في الصخور الشاهقة حيث كان النساك يقيمون ويتعبدون ، وهي مهجورة في يومنا هذا .

أما دير مار سابا القريب الواقع شمال شرقي بيت ساحور فهو قصر حراسة فقط ، فيه معصرة زيتون قديمة ، وتحيطه ارض واسعة معظمها مشجر بشجر الزيتون . وقد رمم برج هذا الدير عام ١٩٧٩ على نفقة الاب الارشمندريت ينانيوس .

كذلك لا يسمح قطعيا للنساء بدخول هذا الدير ، ولكن يسمح لهن بالقاء نظرة

على الدير من فوق البرج المعروف باسم برج النساء ، والواقع على جهة يمين الداخل الى الدير . ويروي الاجداد نقلا عن اجدادهم ان والدة القديس سابا جاءت اليه لتزوره فمنعها من دخول الدير أيضا ، بل خرج للقائها خارج اسوار ديره .

توفي القديس سابا في اليوم الخامس من كانون اول سنة ٥٣٢م ، ودفن في ديره الذي عاش فيه . لكن في سنوات لاحقة نقلت رفاته الى مدينة القسطنطينية ، ومنها نقلها الصليبيون الى كنيسة القديس مرقس في البندقية ، بقيت هناك عدة قرون .

ولما زار البابا بولس السادس الاراضي المقدسة في الخامس من شهر كانون ثاني سنة ١٩٦٤م ، اتفق مع البطريرك المسكوني اثنناغورس وبطريك القدس فنيزكتوس ، على ارجاع رفات القديس سابا الى ديره . فأعيدت الى القدس في يوم ٢٦-١٠-١٩٦٤ ، ثم اعيدت الى دير مار سابا في احتفال ديني مهيب يوم ٢٥-١١-١٩٦٤ .

دير القديس ثيودوسيوس

ولد القديس ثيودوسيوس في كابونكيا سنة ٤١٤م ، وجاء الى فلسطين في سنة ٤٥٠م ، فأقام مدة من الزمن مع مواطنه لونقيتوس في دير برج داود الذي كان في القدس قرب حارة الارمن الحالية . وفي سنة ٤٥٥م التحق بالدير الذي بناه كاثيسما قرب بئر قاديسمو على طريق القدس بيت لحم ، شمالي دير مار الياس الحالي . وقد دمر الفرس في سنة ٦١٤م هذا الدير وغيره .

ثم بنى دير الحالي المعروف بدير ثيودوسيوس (دير بن عبيد) ، بعد أن أقام بضعة سنوات متعبدا في مغارة هناك ، تذكر عنها التقاليد انه في هذه المغارة نام المجوس عند رجوعهم الى بلادهم بعد زيارة الطفل في بيت لحم ، لئلا يشاهدوا هيرودس . ثم التحق به عدد كبير من النساك شاركوه السكن في تلك المنطقة ، فبنى في المكان ديرا واسما في سنة ٤٧٦م .

وكان في دير هذا تحت رئاسته حوالي ٤٠٠ راهبا قسموا حسب موطنهم الذي جاءوا منه وحسب لغتهم . فكان قسم للرهبان الارمن ، وآخر للرهبان اليونان ، وآخر للرهبان الذين قدموا من بلغاريا والصرب ، ومكان رابيع للذين يشكون من مرض في عقولهم او اجسامهم . ولكل قسم منهم كنيسة خاصة به للصلاة فيها . وبجانب الجميع كنيسة يجتمعون للصلاة فيها كل يوم احد .

في سنة ٤٩٢م قام البطريرك سالوسيتوس بتنصيب القديس ثيودوسيوس رئيسا عاما لهؤلاء النساك وفي ١١ كانون ثاني سنة ٥٢٩م توفي القديس ثيودوسيوس عن عمر ١٠٥ سنوات ، بعد أن كان قد توفي من رهبانه ٦٣ راهبا ، في زمن أقامته في فلسطين .

يذكر التاريخ ان هذا الدير قُدم هوجم ونهب مرارا من القبائل التي كانت ضاربة في المنطقة ، وقتلوا عددا من رهبانه ، وكان اشجعها الغزوة التي وقعت في سنة ٨٠٨م وسنة ٨١٣م ولكن الرهبان كانوا في كل مرة يصلحون الخراب على قدر ما تسمح به امكانياتهم .

في زمن الصليبيين اعيد بناء الدير واقامت كنيسة بيزنطية هناك ، وكان عامرا بنزلاته من الرهبان والنساك ، ولكن في عصور لاحقة لحق به الدمار والخراب على دفعات حسب مزاج الحاكم للبلاد في كل زمن .

في سنة ١٨٩٧م . قامت بطريركية الروم الارثوذكس في القدس بالعناية بهذا الدير ، وأزالوا الردم من فوق قبر القديس ثيودوسيوس ثم أقاموا كنيسة صغيرة هناك . وفي سنة ١٩١٤م قامت البطريركية بتأسيس بناء الكنيسة الحالية

فوق مكان الكنيسة البيزنطية القديمة ، وقد تم البناء نهائيا في سنة ١٩٥٢ م .

في نهاية الحرب العالمية الاولى ، وفي شهر كانون اول سنة ١٩١٧ وصل الجيش البريطاني الزاحف من مصر الى الخليل ثم الى بيت لحم فدخلها في صباح ٨ كانون اول سنة ١٩١٧ . نهربت فلول الجيش التركي من بيت لحم الى بيت ساحور في طريقها الى اريحا . وقد عسكر الجيش التركي في دير ابن عبيد وباشر باطلاق قذائف مدافعه من حول الدير الى مواقع الجيش البريطاني فسي اوطاس وبرك سليمان والدهيشة ، فردت عليهم مدفعية الجيش البريطاني بالمثل حتى اضطر الجنود الاتراك الى الانسحاب حتى نهر الاردن .

وقد كنا مرارا نزر هذا الدير كل عام في رحلة مع المدرسة باشراف الاستاذ مهيم جبور ، بين اعوام ١٩٣٣ - ١٩٣٧ م وكنا نشاهد الخراب المحيط بالدير ، ونشاهد ايضا عددا من قنابل المدفعية البريطانية المفروسة في الجدران ، ولم تنفجر . وكانت لنا زيارة اخرى كشفية مع فرقة كشافة المدرسة الاميرية في بيت لحم ، تلك المدرسة التي كان يسميها الاهالي المدرسة الوطنية . وكانت فرقة الكشافة فيها تسمى سرية كشافة بيت لحم الاولى ، حيث كانت اول سرية كشفية تأسست في بيت لحم حوالي سنة ١٩٣٠ م ، ثم سرية كشافة المهد في سنة ١٩٣٢ م ، و ثم سرية الكشافة الارثوذكسية وبعدها سرية كشافة الساليزيان في سنة ١٩٣٦ م التي دامت حتى سنة ١٩٤٠ م ، وكنت قد التحقت بها حتى صرت رئيسها حتى انحلت عند نشوب الحرب العالمية الثانية في ١-٩-١٩٤٠ ، حيث كان دير الساليزيان يعتبر من املاك ايطاليا التي انضمت الى محور برلين - روما في حرب ضد بريطانيا وفرنسا وحلفائهما .

عرب العبيدية

أما عرب العبيدية ، فهم من أصل يوناني ، كانوا يسكنون جزر ايجة أيام الامبراطورية البيزنطية ، ثم تمردوا على الامبراطور جوستيان سنة ٦٣٠ م . فحكم على زعمائهم بالموت . وكان في هذه الفترة قد جاء الى القسطنطينية القديس سابا صاحب دير مار سابا المعروف باسمه ، ليروي للامبراطور ما فعله السامريون في الديار المقدسة ، من هدمهم للكنائس في نابلس والقدس وسائر فلسطين ، وقتلهم للمسيحيين . فطلب من الامبراطور ان يبقي على حياة زعمائهم وان يقبل بنقلهم الى فلسطين ، وهو أي القديس سابا على استعداد لرافقتهم ، وليسكنهم قرب دير . فأجاب الامبراطور طلبه ، وسافروا مع مار سابا الى فلسطين واستقروا الى غرب دير مار سابا خدما وعبيدا لدير الروم ، ومن هنا جاءت تسميتهم العبيدية .

وكانوا يأخذون مبلغا من الحكومة في أيام دولة العثمانيين على حفظهم الطريق والاديرة من اللصوص وقطاع الطرق . وبقيت لهم هذه الحقوق حتى جاء ابراهيم باشا فأسقط عنهم هذا الحق ، غضبا عليهم بسبب انضمامهم الى الحركة المضادة لحكمه ، في سنة ١٨٣٤ م .

كان من جملة أعمال عرب العبيدية المكفين بها ، أن يجلبوا كل أسبوع أو كل شهر ، المؤن والمال من البطريكية في القدس ، الى الاديرة وصوامع الرهبان المنتشرة في المنطقة .

وفي عهد الانتداب البريطاني على فلسطين ، ترك عرب العبيدية بيوت الشعر ، وأخذوا يستقرون تدريجيا في بيوت حجرية ، كل في أرضه التي كان يزرعها بالحبوب ، بالإضافة الى تربية الاغنام . ومع مرور الايام أصبحت لهم مجموعات من المباني هنا وهناك ، وغرسوا أراضيهم بالزيتون والعنب ومختلف اشجار الفواكهة . ثم قامت بينهم بعض المدارس الابتدائية للبنين والبنات ، وبقيت تتدرج حتى الصفوف العليا ، والتحق المتفوقون من الاولاد بمدارس بيت ساحور وبيت لحم ، فنشأ منهم جيل من المثقفين تابعوا دراستهم الجامعية ، فتخرج منهم عدد لا بأس به كان له اثر كبير في تنظيم وترقي أهلهم .

ومن لم يسعفه الحظ من خريجي المدارس التحقوا بالمدارس المهنية وتعلموا مختلف المهن التي افادتهم كثيرا ورفعت من مستواهم المادي والاجتماعي ، فأنشأوا خلال العشرين سنة الماضية بيوتا حديثة لسكنائهم ، أدخلوا اليها كل مفيد من وسائل الحياة مثل الثلاجات والغسالات وغيرها ، وخصوصا لما تم ربط المنطقة بالتيار الكهربائي من شركة كهرباء محافظة القدس ، وتوصيل شبكة المياه اليهم من مصلحة مياه بيت لحم وبيت جالا وبيت ساحور .

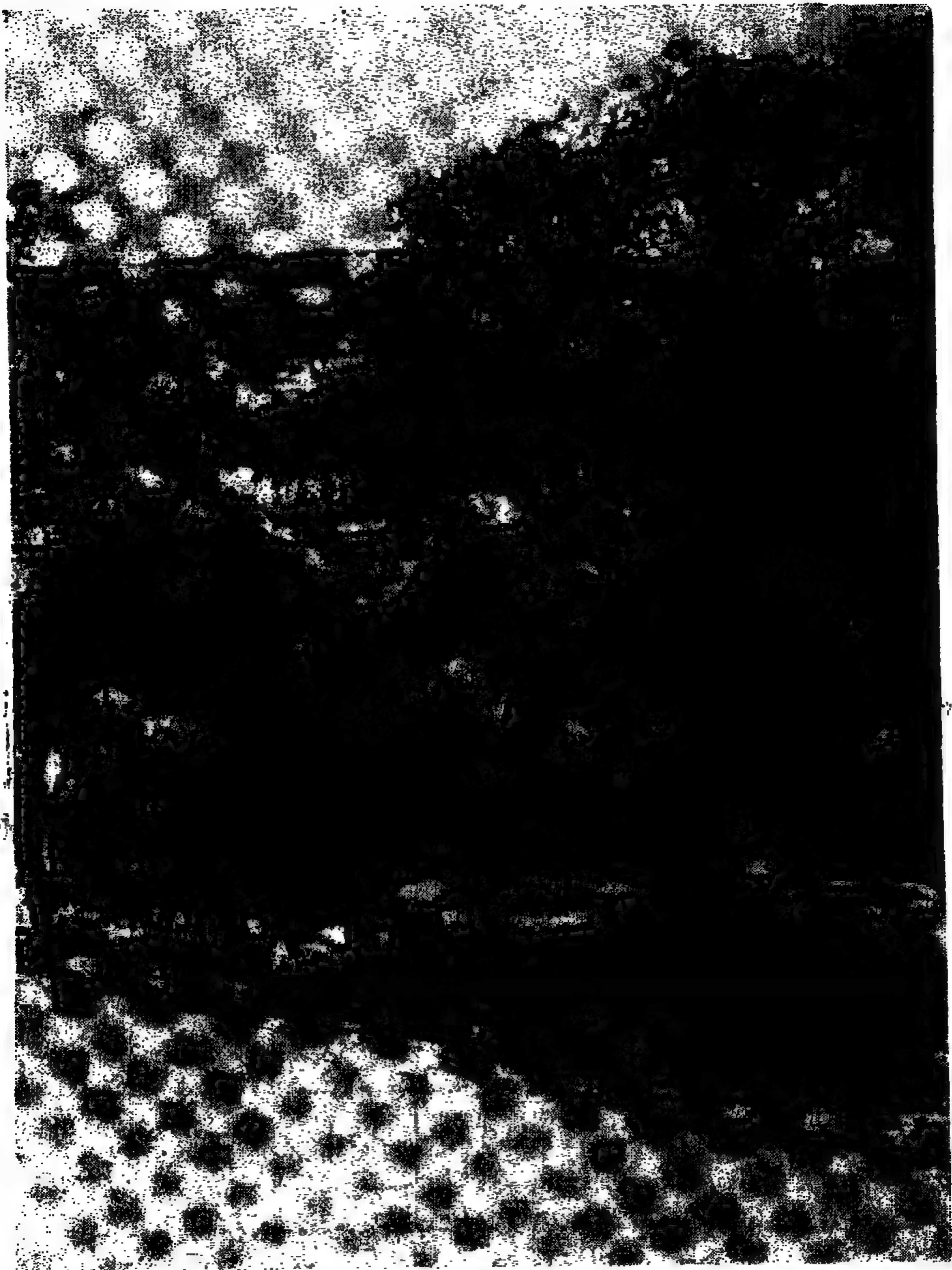
بئر قاديسمو

ان القادم من القدس الى بيت لحم ، بعد مسيرة كيلومترين ، يجد على يمينه بئرا تدعى منذ القديم (بئر قاديسمو) ، وهذا الاسم محرف عن اليونانية « كاثيسما » ، أي مكان الاستراحة . ومنذ القرن السادس عشر عرف أيضا باسم بئر المجوس ، لانه في هذا المكان ظهر النجم ثانية للمجوس .

وفي حوالي منتصف القرن الخامس ميلادي ، بني في هذا المكان كنيسة كرسيت باسم العذراء مريم ، بنيت على نفقة رئيسة الراهبات الثرية المدعوة هيسيليا Hecilia وفي هذه الكنيسة عاش مدة من الزمن الناسك ثيودوسيوس قبل أن يباشر ببناء الدير المسمى باسمه ، شرقي بيت ساحور ، والذي يعرف في وقتنا هذا بدير ابن عبيد .

يقع هذا البئر قرب دير مار إلياس على مشارف مدينة القدس ، وفي منتصف الطريق بين بيت لحم والقدس . وهذا البئر مقام على طريق القوافل بين الشام ومصر منذ ثلاثة الاف سنة والصورة تمثل بعض رجال احدى القوافل وقد وقفوا لبشربوا مع جمالهم من هذا البئر ، في مطلع القرن الثامن عشر الماضي ، ويمثل زي الرجال الزي المألوف لفلاح فلسطين في ذلك الحين .

سمي بئر قاديسمو قبل العهد المسيحي ، وهو اسم يوناني بمعنى بئر الاستراحة . وبعد العهد المسيحي عرف باسم بئر العذراء مريم حيث استراحت بقرية عند ذهابها الى بيت لحم للتسجيل مع خطيبها يوسف . ثم سمي ببئر المجوس الذين استراحوا بقرية عندما جاءوا من المشرق لمشاهدة الطفل الالهي الذي ظهر لهم نجمة في بلاد فارس .



بئر قاديسمو

دير مار الياس



وعندما يتابع المرء سيره الى بيت لحم ، فإنه بعد مسيرة اربعمائة مترا ، يشاهد على شماله ديرا قائما على شكل حصن قديم ، يقع على زبوة يمكن منها مشاهدة بيت لحم الى الجنوب ومشاهدة القدس الى الشمال في نفس الوقت . وقد بني هذا الدير في القرن السادس الميلادي ، في المكان الذي يعتقد أن النبي الياس قد استراح فيه اثناء هروبه من انتقام الملكة جيزابيل (الملوك الاول الاصحاح ١٩) ، في طريقه الى بئر السبع وثم الى جبل الرب في سسيناء .

ويعتقد أن بانيه هو بطريرك القدس عام ٤٨٦م ، بينما يعتقد آخرون أن بانيه هو البطريرك ايليا عام ٤٩٤-٥١٦م . وذكر آخرون أن هذا الدير قد أُمّر ببنائه هرقل ملك الروم سنة ٦١٠م ، وهدمه الفرس مع غيره من الاديرة ، عندما هزموا الروم واحتلوا فلسطين سنة ٦١٤م . وبعد طرد الفرس أعاد الامبراطور هرقل بناءه . وقد دمر هذا الدير فيما بعد بفعل الزلزال ، فأعاد

بناءه الامبراطور ايمانويل كومنينوس في سنة ١١٦٠ م .

ورمم الدير من قبل بطريركية الروم الارثوذكس في القدس عام ١٦٧٨ م ، ثم رمم ثانية في القرن التاسع عشر الماضي . ولحق بالدير بعض الاذى والخراب في عامي ١٩٤٨ م و ١٩٦٧ م في اثناء المنازعات العربية اليهودية ، لوقوعه في وسط خط الهدنة . اعيد تصليحه بعد كل مرة على حساب بطريركية الروم الارثوذكس في القدس . وآخر تصليحات كانت في سنة ١٩٧٦ م ، حيث جرى تصليح ارضيه الكنيسة ووضع بلاط حجري جديد لها ، وفتح للكنيسة مدخل مباشر من جهة الغرب ، حيث كان المدخل القديم من خلال الاروقة المجاورة للكنيسة . ثم بني سور للدير من الشمال والغرب والجنوب وخططت الحديقة الحالية الواقعة امام الدير .

وكانت تلاصق الدير من جهة الغرب معصرة للزيت قديمة ومهدمة ، رمت في سنة ١٩٧٦ م . وحولت الى قاعة استقبال للحفلات والاعراس . وفي هذا الدير تعقد اكاليل زواج كثيرة لاهالي مناطق بيت لحم والقدس ورام الله . فلا يخلو يوم أحد ، على مدار العام ، من وجود اكليل واحد واكثر ، يعقد في هذه الكنيسة ، ثم يجري استقبال المهنئين في قاعة الاستقبالات المذكورة اعلاه .

وعلى الجانب الغربي من الطريق العام المار امام هذا الدير ، والمؤدي من القدس الى بيت لحم والخليل ، يشاهد مقعد مستطيل من الحجر الابيض ، نصبت فيه السيدة اوديت زوجة الرسام الانجليزي (وليم هولمان هانت) بموجب اذن خاص من بطريرك الروم الارثوذكس في القدس . وقد نقش على جوانب وظهر المقعد من الداخل ، آيات انجيلية باللغات الاربع : العربية والانكليزية واليونانية والعبرية . وكان زوجها قد عاش في القدس بين عام ١٨٥٤ و ١٩٠٢ م . ورسم الكثير من الصور الدينية المشهورة في هذا المكان ، مثل : « الحمل الضال » و « نور العالم » وكثير غيرها .

وهذا الدير له عدد كبير من اشجار الزيتون المزروعة على مساحات واسعة في غربي الدير وشرقه ، لكنها مهملة لا يعتنى بها ، ويسكن هذا الدير راهب يوناني يعرف باسم رئيس الدير ، ويساعده راهب او اثنان .

يقع عيد مار الياس نهار ٢٠ تموز شرقي الموافق ٢ اب غربي . وتكون زيارة الدير يوم اول اب . اي في اليوم الذي يسبق نهار العيد ، لتقديم النذورات . ويكون نهار الزيارة مهرجانا شعبيا يؤمه المسيحيون والمسلمون على السواء من مختلف المناطق . وكثيرون من المسلمين في منطقة بيت لحم والخليل والقدس يسمون ابناهم باسم الياس ، تيمنا بالنبي الياس عليه السلام . وفي يوم الزيارة يكثر الباعة المتجولون على اختلافهم ، وتنصب الاراجيح قبل العيد بأيام وتبقى بعد العيد بأيام اخرى ، لتكون تسلية للأطفال .

دير الطنطور

ونتابع سيرنا من دير مار الياس الى بيت لحم ، فبعد نصف كيلومتر واحد ، نشاهد من جهة اليمين ، ديرا فوق ريوه يسميه العامة « دير الطنطور » ففي سنة ١٨٦٥م رغبت جمعية فرسان مالطة ان يقيموا لهم مركزا في فلسطين ، بالقرب من الاماكن المقدسة . كلفوا قنصل النمسا في القدس في ذلك الحين ، المدعو الكونت برنارد كاباجا ، بشراء ارض مناسبة . فاشترى لهم في سنة ١٨٦٨م هذا الجبل الذي كان يعرف باسم برج يعقوب وافراننا ، وقد تبرع بمعظم ثمن الارض الامبراطور النمساوي فرانسيس جوزيف .

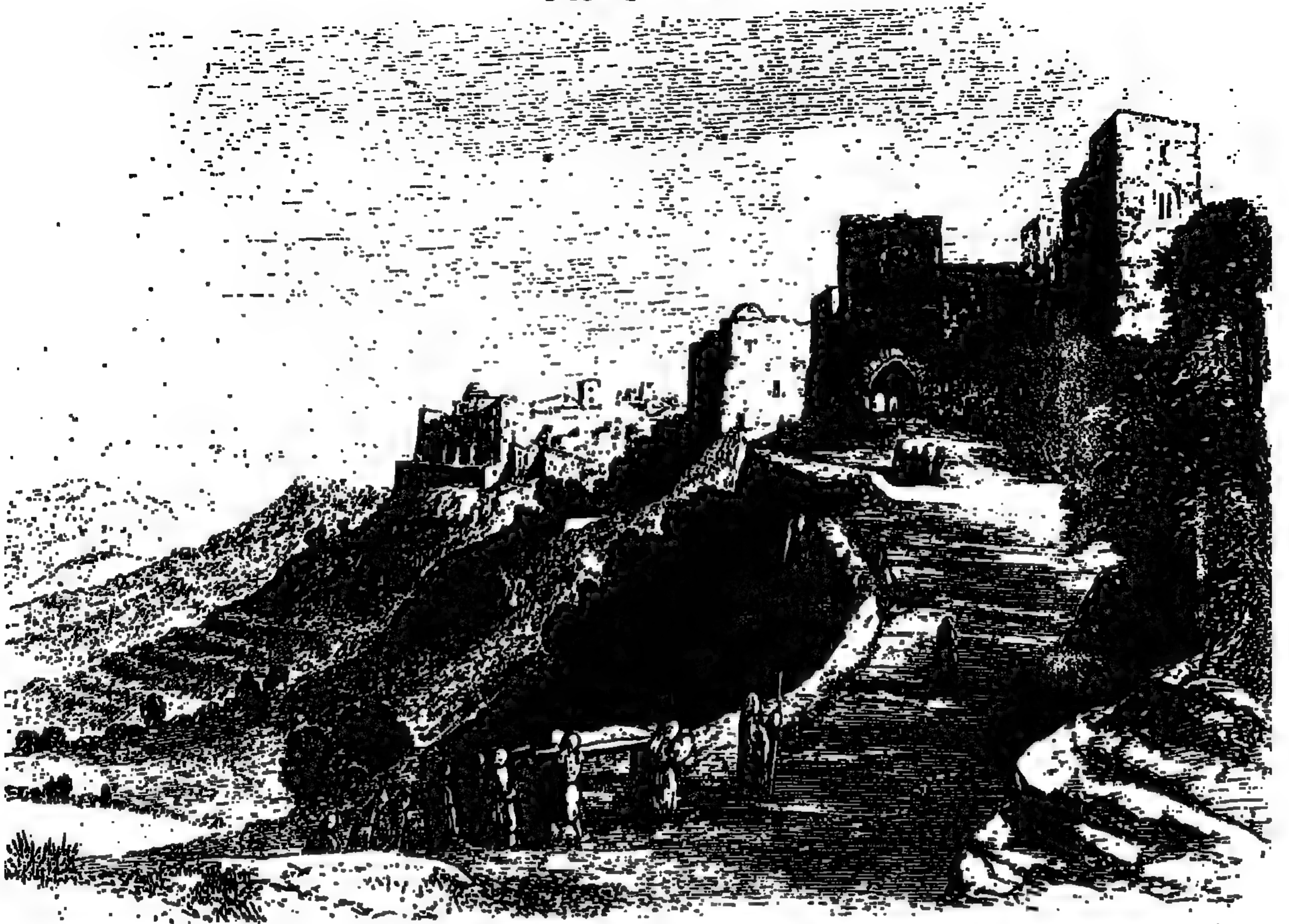
استلمت الجمعية المكان وباشروا ببناء مستوصف طبي ، افتتحوه في سنة ١٨٧٧م على شكل عيادة خارجية مجانية للسكان . وبقي سنة ثم حولوه الى مستشفى يتسع لسبعة اسرة وفيه طبيب جراح ومساعد وبعض الممرضين .

في سنة ١٨٧٦م اضيف الى بناية العيادة كنيسة ، وفي سنة ١٩٠٢م جرى توسيع المباني . وفي سنة ١٩٢٠م ، اعطي للمستشفى الايطالي الواقع في حسي المصراة بالقدس . في سنة ١٩٣٠م اعطي هذا المكان لدير السالزيان في بيت لحم ، بموجب عقد ايجار لمدة ٣٠ عاما ، ليكون مقرا لمدرسة الرهبان . وفي سنة ١٩٦٧م انسحب منه رهبان السالزيان وسلموه الى الجمعية التي تملكه .

في وقت سابق كان البروفيسور سكيسجاد Skysgaard ، من اساتذة الجامعة اللاهوتية في مدينة كوينهاجن بالدنمارك ، قد قدم اقتراحا الى المثلث الرحمات قداسة البابا بولس السادس ، بضرورة اقامة معهد خاص بالدراسات الدينية على مستوى عالمي . فلما زار البابا بولس السادس الاراضي المقدسة في مطلع شهر كانون ثاني سنة ١٩٦٤م ، تذكر الاقتراح فطلب من الاب هيسبرغ Hesbergh رئيس دير النوتردام في القدس ، ان يعمل على اقامة كلية الدراسات اللاهوتية على مستوى عالمي .

وبوشر بالبناء في سنة ١٩٦٥م . واشرف على التنفيذ المهندس يوسف الخوري . وفي سنة ١٩٧٨ كانت المباني جاهزة وبوشر بالدراسة وقبلت طلبات الالتحاق .

قوس الزراره

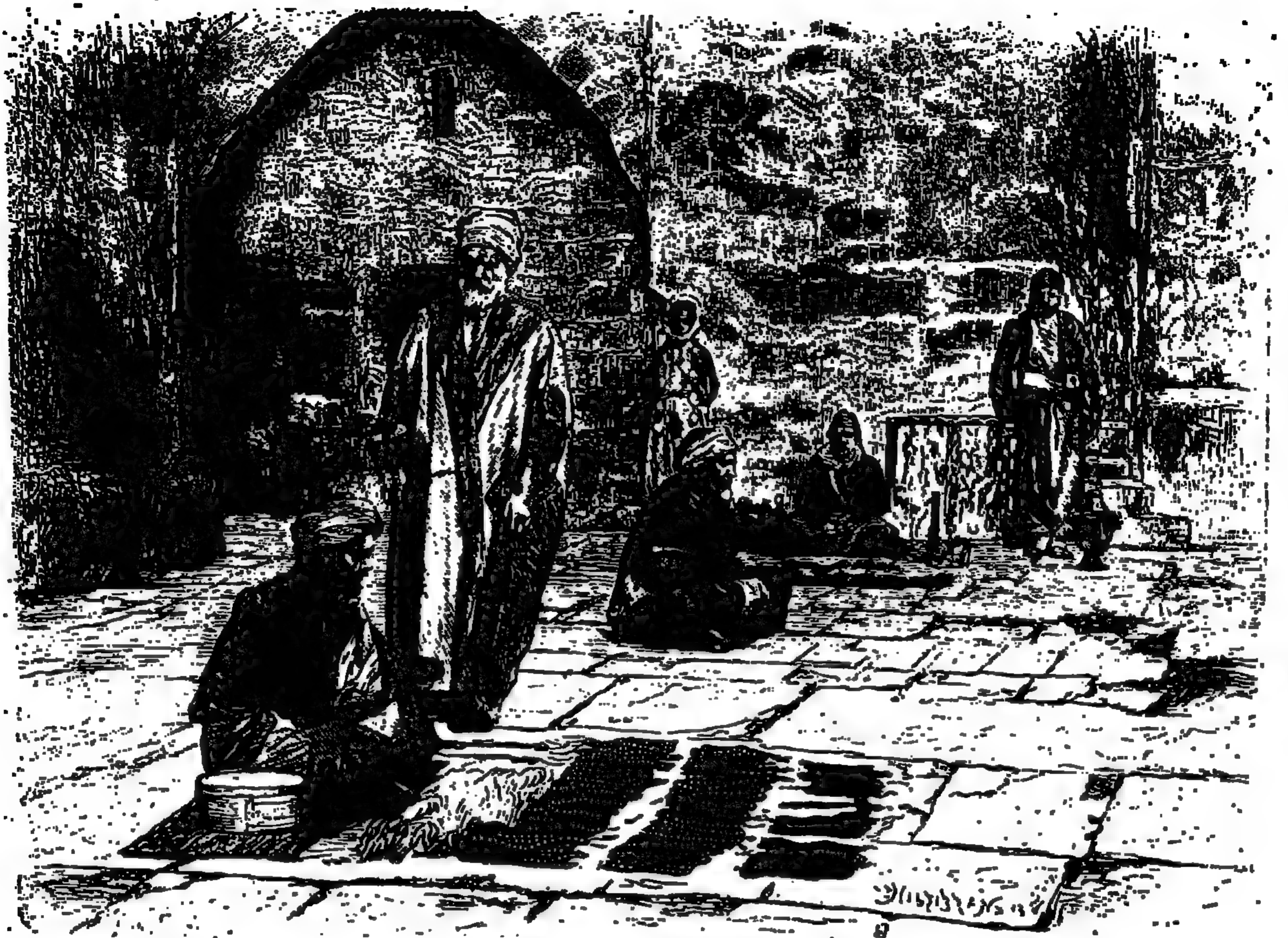


عرف هذا القوس منذ القدم باسم قوس الزرارة ، حيث يروي المسنون انه قبل مائتي عام حصل تعدي من العريان على مدينة بيت لحم ، فتصدى لهم — الاهالي في هذا المكان وحصروا المعتدين اي زروهم ، فاطلق عليه الاهالي قوس زرارة .

اما الزوار والرحالة الاجانب فسموه في مذكراتهم باب بيت لحم وقد كان هذا القوس المدخل الوحيد لبيت لحم للقادمين من القدس . وبقي كذلك حتى سنة ١٩٢٦م حين فتح الشارع الجديد المعروف باسم شارع المهد لكي يكون المدخل الرئيسي الى بيت لحم للقادمين من القدس .

وحتى يومنا هذا فان دخول البطريرك الى بيت لحم في عيد الميلاد يأتي من الطريق القديم المعروف سابقا باسم شارع رأس أفطيس ، وحاليا باسم شارع النجمة ، ويدخلون الى بيت لحم من هذا القوس . وهذه الصورة تمثل شكل هذا القوس في القرن السابع عشر . وقد بنيت بجانبه مدرسة راهبات مار يوسف للبنات وبنيات أخرى لسكنى الاهالي .

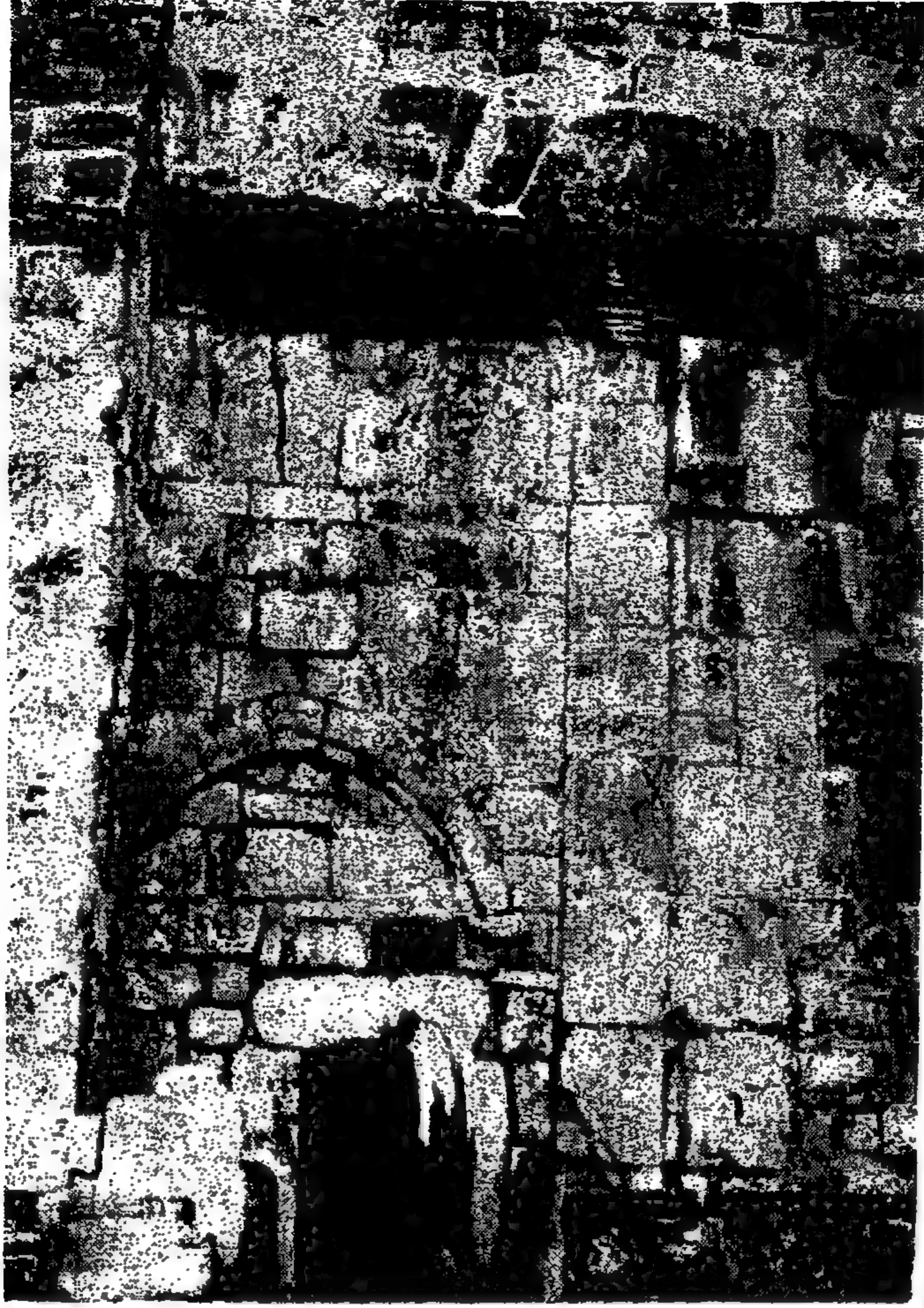
الباب الصغير القديم



يمثل هذا المنظر مدخل كنيسة المهد في القرن السابع عشر . ويظهر امامه بعض اهالي بيت لحم في لباسهم التقليدي في ذلك الحين . وبعضهم يعرض منتوجاته من المسابح لبيعها الى الزوار . وقد عرفت صناعة المسابح والاشغال الصدفية والحفر على قطع خشب الزيتون قبل ثلاثة قرون تقريبا ، وبقيت هذه الصناعة يتوارثها جيل بعد جيل حتى تطورت على ما هي عليه اليوم . فتاجر بها الكثيرون من اهالي بيت لحم الى الهند والفلبين شرقا والى روسيا شمالا وسائر اقطار أوروبا غربا حتى وصلوا معارض فلادلفيا في اميركا الشمالية سنة ١٨٧٢م .

وبعد الاحتلال البريطاني لفلسطين بوشر بافتتاح المحلات التجارية لبيع هذه البضائع والتي تعرف في وقتنا الحاضر باسم السنتوراي ، في القدس وبيت لحم والناصرة .

الباب الصغير خاليسا



هذا الباب هو المدخل الاوسط لكنيسة المهد ، وقد صغر مرارا مع مرور الايام حسب الظروف التي مرت على هذه الكنيسة .
فقوس الباب الاعلى هو ما كان عليه في عهد الامبراطور جوستنيان . ثم صغر الباب بقوس اصغر من السابق في عهد الصليبيين في القرن الثاني عشر ، ربما لاسباب هندسية ، لتقوية جدار واجهة الكنيسة ، ثم صغر الباب الى حالته الحالية سنة ١٥٠٠م في زمن الماليك لمنع دخول الخيل الى الكنيسة ، ثم صارت الكنيسة تستعمل حصنا لاهالي بيت لحم كلما تعرضت مدينتهم الى الغزو . وكان هذا الباب يقود للداخل ، احن قامتك ان كنت محبا للرب .
اما الدعامة التي تظهر بجانب الباب فقد اقامها الاباء الفرنسيون لدعم البناء عندما كانت كنيسة المهد في رعايتهم قبل ثلاثة قرون .

الفصل الرابع

انتشار الديانة المسيحية في فلسطين

تفيد الاناجيل واعمال الرسل ، انه بعد صعود السيد المسيح الى السماء من جبل الزيتون قرب اقدس ، نُشر الرسل (الحواريون) في سائر أنحاء فلسطين وما حولها ، تم ابتعدوا الى الاقطار التي تليها ، يبشرون بالعقيدة المسيحية . وكان سكان فلسطين والاقطار الاخرى ، اما من اصحاب العقيدة اليهودية او من مجموعات كبيرة من عبدة الاوثان الذين كانت لهم معابد كثيرة للاصنام اقامها اباطرة الرومان الوثنيون . وقد لاقى هؤلاء الرسل ومن تبعهم مختلف انواع الاضطهاد والمقاومة العنيفة ، تجدها تملأ بطون كتب التاريخ . ورغم كل هذا لم تنقطع العقيدة المسيحية من بلاد فلسطين وما حولها ، منذ ذلك الحين حتى يومنا هذا .

وكانت الاضطهادات تلحق تسارة بالمسيحيين من اصحاب العقيدة اليهودية وطورا من الحكام الرومانيين . فكم كنيسة بناها جماعة المؤمنين ثم جاء من هدمها . وكم اسقف ومؤمن مات شهيدا مـلات اخبارهم كتب التاريخ . مثلا قـام الامبراطور الروماني اديانوس باضطهاد المسيحيين في سنة ١٣٥م ، فامر باجلائهم عن كنيسة القبر المقدس في القدس ، وامر بدم المكان بكمية وافرة من التراب والحجارة . وغطى الارضية الاصلية وبلطها ، وبنى فوق مكان الجلجلة والقبر المقدس هيكلين وثنيين ، ونصب فوقهما تمثالي المشتري والزهرة ، ثم حول الارض المجاورة لها الى بستان .

اما في بيت لحم ، فهدم هـذا الامبراطور كنيسة للمسيحيين ، فوق مغارة المهد ، ليقم مكانها معبدا لادونيس ، وزرع حوله حرشا للاله ادونيس . واضطهد المسيحيين مرغما اياهم على تقديم القرابين لالهته . وكان بعمله هذا يحاول طمس معالم الاماكن المقدسة المسيحية باشادة معابده فوقها . لكن هذا العمل حفظ اماكن هذه المقدسات حوالي قرنين ، حتى جاء الامبراطور قسطنطين وازال هذه الاصنام واقام مكانها كنائس جليلة .

في سنة ٢٩٨م توفي ايمينيوس ، وخلفه على كرسي القدس زبدي ، ولكنه عد سنتين تنازل عن رئاسة الكنيسة الى هرمون سنة ٣٠٠م . وقد استمر هذا الاسقف في خدمة الكنيسة الى سنة ٣١٤م وكانت كل هذه المدة زمن اضطهاد عظيم للكنيسة والمسيحيين .

ففي أول الاضطهاد سنة ٣٠٣ م ، قبض على عدد كبير من المسيحيين في فلسطين وعذبوا بشتى انواع العذابات حتى الموت ، وبعضهم طرح طعاما للوحوش الكاسرة ، فكانوا شهداء ايمانهم رغم كل العذابات المتنوعة . جرى كل هذا ارضاء للامبراطور الروماني الوثني مكسيميانوس وتنفيذا لاوامره .

اما الاماكن المقدسة التي كانت مطهورة ومقاما عليها هياكل لالهة الوثنيين ، فانه رغم كل هذا ، كان المسيحيون يتوافدون الى بيت لحم والقدس لزيارتها والتبرك بهما ، أما الوثنيون فلم يمانعوا في هذه الزيارات اعتقادا منهم ان هذا السجود والتعبد لالهتهم المقامة فوق هذه الاماكن .

في سنة ٣١٤م توفي الامبراطور مكسيميانوس ، وخلفه الامبراطور قسطنطين وليكينوس الذي امر بحرية الايمان والعبادة ، في سائر انحاء امبراطوريته ، ومن ضمنها العقيدة المسيحية . فتحسنّت الاحوال ، وساعدت على انتشار الديانة المسيحية ، وتمتعت الكنائس بالراحة والاطمئنان وصار المؤمنون يؤمنونها في كل يوم .

وهكذا تبدل كل شيء في الشرق والغرب ، واصبح المسيحيون يتمتعون بحريتهم وحقوقهم ، واعيد ما اغتصب من اراضي واملاك لاصحابها ، وانتعشت حالة الناس وازداد عدد المسيحيين بسرعة في سائر البلاد . وانتشر الدين المسيحي في سائر انحاء فلسطين في القرى والمدن على السواء ، وكثر عدد الاساقفة ، اذ كان يقام لكل مدينة وتوابعها اسقف ليكون المرجع الاعلى لشؤون الدين فيها . لكثرت عدد الكنائس لتكون قريبة من اماكن سكى المؤمنين .

كانت قيصريّة مركزا لرئاسة الكنيسة ، اما اورشليم (ايليا) فقد كانت وقتئذ قرية صغيرة ، واسقفها كان تابعا لطران قيصريّة . وفي ذلك العهد ، قام على كنيسة القدس الاسقف مكاريوس الاول الذي كان رجلا صالحا وعالما جليلا ، نال حظوة كبيرة واعتبارا عظيما من سائر اساقفة فلسطين ، وخصوصا لما اظهره من حرارة الايمان وقوة الحجة في اثناء انعقاد المجمع المسكوني الاول ، الذي عقد في نيقية عاصمة ولاية بيشينية في اسيا الصغرى على شاطئ البحر الاسود .

والاسقف مكاريوس هو الواضع للمادة السابعة من قوانين المجمع المسكوني الاول ، وهي المادة التي تبحث عن درجة الاعتبار لكل من اساقفة فلسطين . وهكذا بلغت كنيسة القدس المركز الذي تستحقه بين الكنائس حتى لقبّت بحق باسم (ام الكنائس) فيما بعد ، وصار يعتبر رئيسها رئيسا لاساقفة فلسطين .

وتفيد كتب التاريخ ان القديس مكاريوس الذي حضر المجمع المسكوني الاول ، الذي اقيم بأمر الامبراطور قسطنطين العظيم في سنة ٣٢٥ م ، هو

الذي بين لهذا الامبراطور ان الاماكن المقدسة في فلسطين موجودة ولكنها مطمورة وتقوم فوقها هياكل وثنية ، الامر الذي يثير عواطف المسيحيين التي تلتهب لما لوجود هذه المقدسات في هذه الحالة . فانسف الامبراطور جدا ، ووعد بازالة هذه الهياكل الوثنية ، واعطاء الاماكن المقدسة حقها من التقدير والاحترام . وهكذا قرر الامبراطور ارسال والدته التقية القديسة هيلانة الى القدس ، ل اظهار هذه المقدسات ، وتطهيرها من ارجاس الاوثان . وزودها بالاموال الطائلة والمهندسين والبنائين وامهـر الصانع في بلده .

وفي سنة ٣٢٦م ، وصلت الملكة هيلانة ومن معها الى القدس ، وباشروا في البحث عن الاماكن المقدسة التي ذكرها القديس مكاريوس ، وهي مغارة ميلاد المسيح في بيت لحم ، والقبر المقدس في القدس ، ومكان صعود المسيح فوق جبل الزيتون . فبوشر حالا باقامة الكنائس فوق هذه الاماكن المقدسة ، وتولت الملكة هيلانة بنفسها امر المراقبة والاشراف على البناء وفقا لرغبة ابنها الامبراطور قسطنطين .

وهكذا لم تمض مدة وجيزة حتى قامت كنيسة القيامة فوق محل وجود الصليب والقبر المقدس ، وكنيسة ثانية في بيت لحم فوق المغارة التي ولد فيها السيد المسيح ، وكنيسة ثالثة في مكان عليـة صهيون مكان العشاء الاخير للمسيح مع تلاميذه . وتبعتهما كنائس اخرى كثيرة في انحاء فلسطين ، ومنها كنيسة فوق جبل الزيتون مكان صعود السيد المسيح الى السماء ، وكنيسة في حقل الرعاة في بيت ساحور ، وكنيسة في الخليل حيث مدفن البطارقة ابراهيم ويعقوب واسحق ويوسف عليهم السلام . وامتدت الكنائس في الناصرة ، وبحيرة طبريا ، وفي كل مكان ذكره الرسل في اناجيلهم ورسائلهم للمؤمنين .

وتوفي البطريرك مكاريوس سنة ٣٣٣م ، وخلفه القديس مكسيموس الثالث ، فكان خير خلف لخير سلف ، وساعده كثيرا في اعماله القديس ايلاريون وتلاميذه وغيرهم من الاساقفة الاخرين الذين كانت مراكزهم في سائر انحاء فلسطين وسيناء حتى الاسكندرية في مصر .

في سنة ٣٣٤م جرى احتفال بهيج اكراما لاهالي قصبة (مايوما) الذين اهدوا جميعهم الى الديانة المسيحية وكان سرور الامبراطور قسطنطين بهم عظيما ، وسمى هذه القصبة تعظيما لهم (قسطنطينية) وعرفت فيما بعد بالقسطنطينية واصبحت فيما بعد عاصمة الامبراطورية الرومانية .

جاء في الموسوعة البريطانية ، ان قسطنطين الكبير ولد بمدينة « نيش » من اعمال صربيا ، بتاريخ ٢٧ شباط ٢٨٨م ، وتوفي في ٢٢ ايار سنة ٣٣٧م ، عن عمر ٤٩ سنة . وفي ٢٦ تموز سنة ٣٠٦م توفي والده قسطنطينوس الاول ، وتسلم العرش مكانه ، وراح يحمل لقب (قيصر) في الشرق والغرب من مملكته .

كانت الامبراطورية الرومانية منقسمة الى مملكتين :-

١- المملكة الغربية وعاصمتها روما .

٢- المملكة الشرقية وعاصمتها بيزانوس .

وكانت فلسطين انثذ تحت سيطرة المملكة الرومانية الشرقية ، وكانت تعرف باسم (الدولة البيزنطية) . ولكن الملك قسطنطين وحد المملكتين بعد حروب استمرت عدة سنوات مع ليسينيوس ملك روما ، فكان النصر في النهاية حليفه ، فتم له ما اراد وفتح روما ، واصبح الملك غير المنازع للملكة الرومانية في الشرق والغرب . واقام على انقاض مدينة بيزانوس القديمة ، مدينة جديدة اسمها قسطنطينية تخليدا لاسمه ، وبنى حولها سورا حصينا ، واتخذها عاصمة ملكه . وبنى في القسطنطينية كنيسة اسمها « اجيا صوميا » اي الحكمة المقدسة .

ان اول من تنصر من اباطرة الرومان هو الامبراطور قسطنطين ، وسبب للنصرانية بالانتشار في مملكته ، وبذلك وقف الاضطهاد الذي مارسه اسلافه على المسيحيين اينها وجدوا . وتنصر عدد كبير من سكان مملكته وسكان البلاد المجاورة . ثم تنصرت امه الملكة هيلانة فاوكل اليها ان تذهب الى فلسطين لزيارة الاماكن المقدسة ولتشرف بنفسها على بناء الكنائس هناك . وكلمة هيلانة كلمة يونانية معناها (البارة الجمال) وكلمة قسطنطين كلمة لاتينية معناها « الحازم » .

المجامع المسكونية

كانت تطرا ظروف واختلافات في الاراء الدينية من وقت لآخر ، فاضطر اولياء الامور الى عقد مجامع خاصة من وقت لآخر لبحث هذه الامور ، يحضرها الاساقفة من سائر الانحاء ليبدو آرائهم في المواضيع التي تحت البحث . وبما انها كانت جامعة لكل الشعوب في المسكونة سميت بالمجامع المسكونية ، والمجمع يشبه ما يسمى في وقتنا الحاضر بالمؤتمر .

وتفيد كتب التاريخ انه عقدت المجامع التالية :

١- المجمع المسكوني الاول عقده الامبراطور قسطنطين سنة ٣٢٥ م ، في مدينة نيقية من اعمال بيشنية لقريةها من مدينة نيقودمية حيث كان مركز الملك حينئذ .

٢- المجمع المسكوني الثاني ، عقده الامبراطور الروماني ثيودوسيوس في مدينة القسطنطينية سنة ٣٨١ م ، ويسمى ايضا مجمع القسطنطينية الاول .

٣- المجمع المسكوني الثالث ، عقده القيصر ثيودوسيوس الصغير في مدينة افسس سنة ٤٣١ م .

٤- المجمع المسكوني الرابع ، عقده الامبراطور مركيانوس في مدينة خالكدون في ٨ تشرين اول سنة ٤٥١ م .

٥- المجمع المسكوني الخامس ، عقده الامبراطور يوستنيانوس في القسطنطينية ، سنة ٥٥٣ م ، ويسمى ايضا مجمع القسطنطينية الثاني .

٦- المجمع المسكوني السادس ، عقده الامبراطور قسطنطين الملقب يوغاناتوس في القسطنطينية سنة ٦٨٠ م ، ويسمى ايضا مجمع القسطنطينية الثالث .

٧- المجمع المسكوني السابع عقده الامبراطور يوستنيانوس الثاني في القسطنطينية في سنة ٧٨٧ م وعرف باسم مجمع نيقية الثاني .

وتذكر كتب التاريخ مجامع اخرى اقل اهمية منها : -

١- مجمع روما - عقد في مدينة روما سنة ٣٤٠ م .

٢- مجمع انطاكيا - عقد في انطاكيا سنة ٣٤١ م .

٣- مجمع سرديكي - عقد في مدينة سرديكي في سنة ٣٤٧ م .

ذكرنا هذه المجامع لعلها تكون ذات فائدة للمواطنين وخاصة الطلبة في ابحاثهم التاريخية . وكثيرا ما يرد مثل هذه الاسماء عند مطالعة كتب التاريخ وغيرها ، وبذلك يكون عند القارئ فكرة عن مكان وتاريخ انعقادها .

ثورة السامريين

في سنة ٤٧٤م . قام السامريون بثورة كبيرة في فلسطين ضد حكم الرومان ، واشتدت في منطقة السامرة (نابلس) ، وهجموا على الكنيسة المسيحية في السامرة ، وقتلوا كثيرين من المسيحيين ، وقطعوا الاسقف ترفنتوس اربا ، ثم هجموا بعدها على باقي فلسطين وأحرقوا كل كنيسة صادقتهم في طريقهم . فأرسل الامبراطور الروماني جيشا قويا من طرفه اخمد ثورة السامرة وقتل الكثيرين منهم بحد السيف . ومنع السامريون من الصعود الى جبل جرزيم للوجود في هيكلم هناك . وأقيمت على ظهر الجبل كنيسة عرفت باسم العذراء مريم ، بأمر الملك زينون ، لكن السامريين عادوا وهجموا على الكنيسة ودمروها ، فأرسل لهم الملك جنودا أشداء وضعوا حدا لثوراتهم وجازوهم بأشد العقاب .

في سنة ٥٣٧م ، توفي الملك يوستينوس وخلفه جوستينيانوس العظيم ، وفي عهده ثار اليهود والسامريون للمرة الثالثة في فلسطين . وكان مركز الثورة في نابلس ، حيث انتخبوا لهم ملكا سموه يولييانوس ، فأهلكوا كثيرا من المسيحيين وأساقفتهم بعذابات مختلفة . وهدموا وأحرقوا كنائس عديدة . فلما علم الامبراطور الروماني جوستينيانوس بهذه الثورة أرسل جيشا كبيرا بقيادة قائده يوحنا ، غشنت سهل الثوار وقتل أكثر من عشرين الفا وبعد ذلك حصنت الكنيسة التي على جبل جرزيم بأسوار عالية ، وأعاد بناء الكنائس التي احترقت من قبل السامريين .

وكان من بين الكنائس التي أعاد بناءها كنيسة المهد في بيت لحم ، التي أقامها فوق كنيسة الامبراطور قسطنطين . ورغم ان كنيسة المهد لم تكن مدمرة كليا ، الا ان الامبراطور رأى ان تقام مكانها كنيسة جديدة اوسع منها ، فكانت الكنيسة التي لا تزال قائمة حتى يومنا هذا . وقد لحق هذه الكنيسة الكثير من التصليحات والترميم ، وخاصة السقف الذي استبدل خشبه عدة مرات ، ولكن بدون مساس او تغيير لجدران الكنيسة ، سوى اغلاق المخلين الجانبيين وبعض الشبابيك بالحجارة .

غزوة الفرس لفلسطين

في سنة ٦١٣م قام ملك الفرس خسرو بهاجمة امبراطورية البيزنطيين ، فأرسل قائده « شارياراز » بجيش كبير ، فافتتح دمشق ، ثم ما حولها ، حتى وصل فلسطين في سنة ٦١٤م . وقد كانت لهذا القائد خطط حربية ماهرة حشرت العقول ، فكان يهاجم أولا مواقع معينة ثم يغير اتجاهه الى غيرها ، ثم يعود فيها لمناطق تركها في السابق .

فقد قام بحركة التفاف كانت زاويناها القصوى مدينة اللد . وبعد ان امتلكها مع السواحل افتتح قيصرية ، ومنها ارتدوهاجم القدس ، فلم تقاوم الا اسابيع قليلة ، حتى استولى عليها في ٢٠ ايار ٦١٤م . فترك للجنود العنان للقيام بنهب وتخريب ما طالته اياديهم في القدس . فهدم كنيسة القيامة ، ودكت معها جميع الاديعة التي بداخل القدس وخارجها ، وقتل الكثير من السكان ، وخاصة المسيحيون منهم الذين كانوا يذهبون في كل مكان . واستولى الفرس على خشبة الصليب ، واخذوها مع البطريك زخريا ووجهاء القدس وزعمائها اسرى الى بلاد فارس .

وكان نائب البطريك في ذلك العهد ، رجلا حكيما هاما اسمه مودوستوس ، فاهتم بلم شتات السكان ممن سلم من سيف العدو ، واستنهض الهمم لترميم القدس ، وبمساعدة المتنسك انتوخوس سطرانيوس تسجعوا السالمين من السكان ، فجمعوا الاعانات من كل مكان لتصليح القدس ومساعدة المنكوبين من السكان ، وحصلوا على اعانات من دمشق ومن صور ومن مصر وغيرها .

ويذكر المرحوم خليل ابراهيم قزاقيا في كتابه تاريخ الكنيسة الارثوذكسية عن غزوة الفرس لفلسطين القصة التالية :

« وكان سطرانيوس الناسك قد دون تاريخ خراب القدس على يد الفارسيين بخط يده باللغة الكرجية وترجمها المؤرخ مارس الى اللغة اليونانية وجاء فيها كته ما يلي : « بينما كان البطريك زخريا يرعى الكنيسة بأمانة ونشاط ، اتى الى بيت المقدس قوم منقسمون الى حزبيين ، الخضر والزرقي ، فحدثت في المدينة المقدسة القلاقل والاضطرابات المتواصلة . وفي ذلك الزمن استولى الفرس على سوريا بعد ان هزموا الجنود اليونانيين ، ثم هجموا على فلسطين ، فأخذوا السامرة (نابلس) وقيصرية أولا .

ثم تقدموا نحو القدس وطلبوا التسليم ، وكان البطريك زخريا راغبا في التسليم حقنا للدماء ودفعنا للدمار الذي كان مزمعا ان يحل بالمدينة . ولكن

الحزبين المذكورين الخضر والزرقي مانعا وقررا المدافعة عن المدينة لآخر نقطة دم تجري في عروقهم . وأرسل القديس ثيوفانس من ديريه يخبر الجنود اليونانيين المخيمين في أريحا فوصل الخبر متأخرا .

ان الفرس قضوا على الاديصرة والرهبان قبل وصول الخبر الى الجنود ، فهدموا الاديصرة وذبحوا من وجدوه فيها ، وبعدها ضيقوا الحصار على القدس ، فرفعوا الابراج حولها ، واقاموا عليها المنجنقات (راميات الصخور) ، ومنها كانوا يرمون المدينة وأسوارها بشدة . وفي اليوم العشرين من أيار ، شنوا هجوما عاما ، وتمكنوا من دخول المدينة ، فهرب الجنود القلائل الذين كانوا يدافعون عن المدينة واختبأ كثير منهم في الخنادق وأبار المياه ليصلحوا من سيف العدو .

وأما الشعب فكانوا يلجأون الى الكنائس والاديصرة والاحتباء فيها . وقد نجا مونسوس باختفائه في داخل مغارة صخرية ، أما الفرس فكانوا يعملون سيوفهم في كل من صادفوه في كل مكان ، فدخلوا الاديصرة والكنائس ، وذبحوا كل من وجدوه فيها بدون شفقة ، وانتشر السلب والنهب والحرق في كل انحاء المدينة ، وكان الدم يجري في الاسواق كالنهر . أما البطريك مع رؤساء المدينة فسيقوا اسرى الى بلاد فارس مع الغنائم الكثيرة والاثار المقدسة ، ومنها خشبة الصليب .

وكانت زوجة ملك الفرس كسرى (خسرو) مسيحية بارة . فالتهمت من زوجها ان يمن عليها بخشبة الصليب ، وان يهبها حياة البطريك ومن معه ليكونوا تحت رعايتها واهتمامها ، فلبى طلبها . وتوسلت الى زوجها أيضا باعادة الاماكن المقدسة في القدس ، وذلك غيرة منها عليها ، وتخفيفا لوطاة الكارثة التي حلت بالقدس وبالمسيحيين .

وبعد خمسة عشر سنة من دخول الفرس كان على كرسي الامبراطورية الرومانية هرقل . وكان ملك الفرس كسرى قد توفي ، وقام ابنه هرمز خلفا له . وقامت حرب جديدة بين هرقل وهرمز فندحرت الجيوش الفارسية عن فلسطين وسوريا ، وعقد الصلح بين الاثنين . وكان من أول شروط اعادة خشبة الصليب والبطريك زخريا مع جميع الاسرى ، وهكذا كان . فان هرمز اطلق سراح البطريك ومن كان معه ، وسلمهم خشبة الصليب ، فعادوا الى فلسطين .

وفي ٦ آذار سنة ٦٢٠م شهدت القدس يوما سعيدا من ايام تاريخها العظيم ، اذ دخلها عائدا الى ابنائها البطريك زخريا ورفاقه بعد فراق طويل ومؤلم . وكان يرافقهم الامبراطور هرقل حاملا على كتفه خشبة الصليب ، وسار الجميع بين حشد غفير وآيات البشعر والنصر تلوح على وجوههم ، حتى وصلوا الجلجلة حيث وضعوا خشبة الصليب في موقعها السابق . وكانوا اثناء سيرهم

ينشدون التراتيل الدينية ومنها : « خلص يا رب شعبك وبارك ميراثك ، وامنح
ملوكنا المؤمنين الغلبة على البربر ، واحفظ بقوة صليبك جميع المختصين بك » . ثم طاف
هرقل بعد ذلك انحاء القدس وشاهد ما حل بها ، فترك للبطريرك اعانات كثيرة
لاجل تصليح وترميم الكنائس ومساعدة الشعب ، ثم رجع الى سوريا بعد أن اقام
له واليا على فلسطين .

وبعد ذلك بقليل توفي البطريرك زخريا وانتخب مكانه القديس مودستوس ،
وبقي على كرسي الرئاسة سنتين . وفي هذه المدة اتم ترميم الكنائس المتهدمة من
الفرس ، ودير القديس سابا مع باقي الاديرة التي كان عربان احدى القبائل
قد اعتدوا عليها وذبحوا رهبانها بعد أن هدموها ونهبوا كل ما وجدوه امامهم .
وفي سنة ٦٣٤م توفي مودستوس واقيم خلفا له صفرونيوس الاول الذي يعتبر
البطريرك التاسع والخمسين للقدس .

الفتوحات العربية

في يوم الاثنين في ٢١ من شهر نيسان سنة ٦٠٩م ، ولد النبي العربي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة ابن لؤي بن غالب بن فهر القرشي الهاشمي . وأمه أمية بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن لؤي بن غالب بن فهر الزهرية القرشية . فقد محمد والده وهو في الثانية من عمره ، ووالدته توفيت وهو في السادسة من عمره فتولى أمره عمه .

ابتداً يتاجر وهو في السابعة عشرة من عمره ، جهات مصر والشام والقدس . وبدأ دعوته وهو في سن الأربعين ، وبقي ثلاث سنين ينشر مذهبه سرا خوفاً من بطش قبيلته قريش ، التي لم يكن ممن مصلحتها قبول مبادئه التي تقضي بتحطيم الأصنام ، مصدر رزقهم وثروتهم وواسطة نفوذهم بين القبائل .

وفي السنة الرابعة جاهر بمبادئه الدينية ، فاضطهد مع أتباعه من أهل قريش ، واضطر للمهاجرة إلى المدينة ويثرب وهو في سن الثانية والخمسين ، فاستقبله أهل المدينة باحترام ، ونصروه ولذا دعوا بالانصار ، وبمساعدهم تغلب على أعدائه في مواقع كثيرة ، وتوطدت دعائم دعوته ولم يبق له منازع ولا معارض في سائر الجزيرة العربية . وسارت سنة هجرته إلى المدينة بداية للحساب الهجري حتى يومنا هذا .

لم يكتف محمد باختضاع القبائل البدوية واعتناقها الدين الإسلامي ، بل طمع بأبصاره وهمته إلى الممالك العظيمة المجاورة ، التي تعرف عليها في سفراته التجارية مثل فلسطين وسوريا ومصر وما جاورها .

وعظم أمر محمد عند الجوار حتى أن كثيرين من الفرس واليهود أخذوا يخطبون وده ، ويطلبون الدخول تحت حكمه ، مشترطين على أنفسهم بأن يدفعوا له الجزية . وقد قصد هذه الغاية جماعة من رهبان طورسينا وطلبوا منه عهداً يخولهم المحافظة على دينهم وعلى ديارهم وأملاتهم الموجودة على الجبل المقدس ، حيث أعطيت أول شريعة الهية للعالم على يد موسى النبي . وكان قد تعرف عليهم وزارهم مراراً في رحلاته التجارية ، فكانوا يكرمونه وفادته وينزلونه على الرحب والسعة في أديارهم ومناسكهم . فوعدهم خيراً وأنه عن قريب سيزورهم في أماكنهم ، وما لبث أن أتم بوعده ، بعد مدة قصيرة ، وتوجه إلى جبل سينا حيث استقبل بكل احترام وترحيب .

وسلم الرهبان عهداً مهوراً بكفايده ، وهذه العهدة حفظت إلى العهد العثماني ، فقدمها رهبان الدير للسلطان سليم الأول متذرعين بها للحصول منه

على تأمين ومساعدة ، فقبل طلبهم . ولما استلم السلطان سليم الاول هذه العهدة قال : « انني لم أسر بامتلاكى مصر كما سررت لعثوري على هذا الكنز الثمين » . ثم اخذها معه الى مقر ملكه واحتفظ بها في خزائنه . واعطى رهبان طور سينا صورة منها طبق الاصل ، مصدقا عليها بختامه وتوقيعه . واعطى ايضا لكل رئيس دير من الاديرة في طور سينا نسخة باللغة التركية مصدقا عليها من المحاكم الشرعية ، وعليها اوامر الى المماليك والسلاطين وخلفائهم ومن يجيء بعدهم للعمل بموجبها .

وهذا نص العهدة النبوية لرهبان طور سينا كما ذكرها المرحوم خليل قزاقيا في كتابه تاريخ الكنيسة الرسولية الارثوذكسية :-

نص العهدة لرهبان طور سينا

« هذا كتاب كتبه محمد بن عبد الله بشير ونذير وامين الخلق اجمعين ، لوديعة الله في خليفة كي لا تكون حجة على الله بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما . كتبه لمن هم على دينه ، عهدا لاولئك القوم الذين هم على دين النصرانية . مس مشارق الارض الى مغاربها ، بعيدهم وقريبهم ، عريبهم وعجميهم معلومهم ومجهولهم . هذا كتاب ما عهده اليهم وكل من خالف ما فيه من العهد يكسرون مخالفا له ولغيره ، ومتعديا على ما امر به وقد افسد عهد الله ولم يصدق ميثاقه ، ولم يخضع له ، ويكون قد استهزا بدينه ومستحقا لعنته ، ان يكن سلطانا او كان غيره من المسلمين المؤمنين . نمتى كسان راهب او سائح مجعا في جبل او وادي او مغارة او معمر او سهل او كنيسة او معهد فنحن من ورائهم . واني لاذب عنهم بنفسي واعواني وانصاري وشعبي ، هم واموالهم واثوا بهم اذ انهم من رعيتي واهل ذمتي ، وادفع عنهم كل ما يكرههم ولا يكون عليهم جبر ولا اكراه ، ولا يتغير من كان عليهم قضاة منهم وظيفتهم ولا رهبانهم عن رهبانيتهم ، ولا اصحاب الخلوات عن الاقامة في صوامعهم . ولا يسلب احد سياجهم ولا يهدم بيت من بيوت كنائسهم ولا يطفئه ولا يدخل شيئا منها الى بيوت المسلمين .

ومن اخذ شيئا من ذلك فيكون قد افسد عهد الله وخالف رسوله حقيقة ، ولا يطرح خراج على قضائهم ورهبانهم . ولا من كان مشغولا في العادة منهم ولا شيء اخر غرامة كان او خراجا او مظلمة او اخرى ، فاني انا لحفظ ذمتهم في البحر والبر والمشرق والمغرب والشمال والجنوب . وايضا كانوا وهم في ذمتي وميثاق امانى من جميع الاشياء التي يكرهونها ، فلا يؤخذ خراج ولا اعشار ممن يتعبد في خلوة في الجبال ، ولا من يزرع في تلك الاراضي المباركة ، ولا احد يشاركهم في طريقهم ولا يشترك معهم بدعواه ان ذلك لغيرهم .

ويعطى لهم في اوقات المواسم من كل اربب قدحا لاجل مأكولهم فلا يقال لهم ان هذا كثير ، ولا يطالبون بخراج ، ولا يؤخذ من ذوي الخراجات ايضا ولا من

الافغنياء وارياب التجارة ، زيادة عن اثني عشر درهما في السنة عن كل رأس . ولا يكلف المسنون منهم زيادة عن الحسد المعين ولا يكلفهم أحد الى سفر او يلزمهم الى حرب او نقل سلاح ، انما المسلمون يحاربون عنهم ويجادلونهم على أحسن وجه أتباعا للآية الكريمة : « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن » . فيعيشون مرحومين ويمنع عنهم ما يكرههم او يضيق عليهم من كل داع اينما كانوا وفي أي محل نزلوا . واذا تزوجت امرأة نصرانية مسلما ، فلا يكون ذلك الا برضى تلك المرأة ، ولا تمنع الذهاب الى كنيسة وقت الصلاة ، وتحترم كنائسهم فلا يمنعون من تعميرها ولا من حرمة ديورتهم . ولا يلتزمون بنقل سلاح او حمل حجارة ، وانما المسلمون يذبون عنهم ولا أحد من الامة يخالف هذا العهد الى يوم القيامة وانقضاء الدنيا . هذا العهد الذي كتبه محمد بن عبد الله الى جميع ملّة النصراني ، اشترط جميع ذلك ليفي به ومعه أيضا الذين اثبتوا اسماءهم وشهادتهم وقد شهد الصحابة العظام عليه في آخره وهم :

علي بن ابي طالب ، وابو بكر بن قحافة ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وابو الدرداء ، وابو هريرة ، وعبد الله بن مسعود ، وعباس بن عبد المطلب ، والفضل بن عباس ، والزيير بن العوام ، وطلحة بن عبد الله ، وسعيد بن معاذ ، وثابت بن فقيس ، وزيد بن ثابت ، وابو حنيفة بن عتبة ، وهاشم بن عبيد ، ومعظم بن قريش ، والحرث بن ثابت ، وعبد العظيم بن الحسن ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعامر بن ياسر ، وكتب هذا العهد بخطه في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، علي بن ابي طالب ، وفي اليوم الثالث من المحرم والسنة الثانية من الهجرة .

وكانت دولة الرومان التي كان يقوم على رأسها هرقل ، في ذلك الزمان من أقوى الدول في ذلك العصر ، وكذلك كانت حال دولة الفرس التي كان يقوم على رأسها كسرى ، وكانت هاتان الدولتان تتناطحان وتعملان على نشر سيطرتهم على الامم المجاورة لهما .

ورغم هذا النصر الذي نالته البيزنطيون على يد هرقل ، والذي كان يتمناه المسلمون ، فان النبي محمدا عليه الصلاة والسلام ، رأى من الحكمة أن يدعو هرقل وقومه الى اعتناق الديانة الإسلامية .

ارسل النبي رسله الى كسرى ملك فارس ، والى المقوقس ملك الاقبط في مصر ، والى أمراء عمان واليمامة والبحرين ، والى الملك الغساني ملك الحيرة ، والملك الحارث الحميري ملك اليمن ، والى النجاشي . كذلك ارسل رسولا من عنده ، هو دحية بن خليفة الكلبي ، ارسله الى هرقل عظيم الروم ، يدعو الى الاسلام . وارسل مع الرسول كتابا الى هرقل ختمه بخاتمة الذي نقش عليه « محمد رسول الله » قال فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله الى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى اما بعد ، فاني ادعوك بدعاية الاسلام . اسلم تسلم . يؤتلك الله اجرک مرتين . فان توليت فانما عليك اثم الاريوسيين . يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ، ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله . فان تولوا قولوا اشهدوا باننا مسلمون » .

كان هرقل عندما دخل عليه رسول النبي العربي حية الكلبى ، في مدينة حمص وكان قد عاد يومئذ من المعركة التي انتصر فيها على الفرس . فتناول كتاب النبي من يد الرسول الذي حملته اليه ، وتلى عليه مترجما . فلم يفضى بل رد عليه ردا حسنا ، ولكنه في قرارة نفسه لم يكن راغبا في الاستجابة الى ما جاء في الكتاب . وقد ظل المسلمون يعدون العدة لفتح القدس . وقد جاءهم التوفيق على يد عمر بن الخطاب الذي تم له ذلك في السنة الخامسة عشر للهجرة الموافقة سنة ٦٣٦ م .

توفي النبي محمد نهار الاثنين من شهر ربيع الاول سنة ١١ هـ سنة ٦٣٢ م ، وخلفه ابو بكر الصديق الذي دام خليفته ٢٧ شهرا ، وبعد وفاته تعين خليفة عمر بن الخطاب ، وهذا اول من سمي بأمر المؤمنين في ١٦ جمادى الاخر سنة ١٣ هـ سنة ٦٣٤ م . وفي زمنه اخضعت بلاد الفرس وسوريا ومصر وخفق العلم العربي فوق قرطجنة ، فأوقعت هذه الفتوح العظيمة الرعب في قلوب الممالك والبلدان الاخرى الواقعة على سواحل الاطلسيكي والى الشرق من بلاد الهند حتى بحر الخزر .

فلما بويع ابو بكر الصديق خليفة على المسلمين ، قام برعاية شؤونهم على اكمل وجه ، واكمل وصية النبي بفتح بلاد الشام ، فأرسل الجيش الذي كان النبي قد أعده بقيادة اسامة بن زيد وأوصاه بما يلي :

لا تخونوا ، لا تغدروا ، ولا نغلوا ، ولا نمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا لله . وسوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . وكان يعني بالذين فرغوا أنفسهم ، الرهبان والنساك في صوامعهم واديّرتهم . ولما تولى الخلافة ابو بكر الصديق ، راح يستنفر القبائل العربية فلبى هؤلاء دعوته ، غطفوا اليه سراعا من جميع انحاء الجزيرة العربية ، واعتزم فتح بيت المقدس والشام وما حولها من بلدان . وجهز لهذه الغاية أربعة جيوش ، وعقد الويتها لأربعة من كبار القواد وهم :

١- عمرو بن العاص ووجهته فلسطين

٢- شرحبيل بن حسنة ووجهته الاردن

٣- يزيد بن ابي سفيان ووجهته البلقاء

٤- ابو عبيدة بن الجراح ووجهته الشام .

فانطلق كل جيش في اتجاه الوجهة التي عهد اليه بفتحها . ثم التحق بهم خالد بن الوليد ، قائد جيش العراق ، فلوله امارة الجيش المحارب كله . ووقعت واقعة اليرموك الشهيرة بين جيوش الروم والجيوش العربية ، فكان النصر حليف العرب . وكانت معركة اليرموك هذه من المعارك الفاصلة التي قررت مصر سوريا وفلسطين ، وأزالت سيطرة الروم عن الشرق كله .

بعد معركة اليرموك انتشرت الجيوش العربية في اتجاه دمشق والقدس لفتحها . فلما انتهى ابو عبيدة بن الجراح من فتح الشام ، سلم أمورها الى يزيد بن ابي سفيان ، ورجع هو ليتولى بنفسه قيادة الجيش الذي كان يحاصر القدس سنة ٦٣٥م . وكان مجموع الجيوش العربية التي توجهت لفتح القدس ، سبع فرق تتألف كل واحدة منها من خمسة الاف مقاتل بين فارس وراجل ، يقود كل فرقة عقيد . وكان عمرو بن العاص يفتح المدن الفلسطينية الواحدة بعد الاخرى . وفي هذه الاثناء توفي ابو بكر الصديق ، وتولى الخلافة بعده عمر بن الخطاب .

بقي القتال حول اسوار القدس أربعة شهور ، لم ينقض يوم واحد منها دون قتال الى أن قنط السكان فراروا أن التسليم اجدى . فطلبوا الامان وخرج فريق منهم يتقدمهم البطريق صفرونيوس لمقابلوا القائد ابا عبيدة ، وطلبوا منه الصلح . ولكنهم اشترطوا ان لا يسلموا المدينة الا لشخص الخليفة عمر بن الخطاب ، لما سمعوا عنه من العادل والرحمة . فوافقهم ابو عبيدة على طلبهم ، وأمر جنده بالكف عن القتال ، وكانت هنة استمرت الى ان جاء عمر بن الخطاب الى القدس ، حال استلامه كتابا من ابي عبيدة يخبره عن طلب الصلح وتسليم القدس له فقط .

ويذكر المؤرخون ان الخليفة عمر بن الخطاب جاء الى القدس من جهة جبل المكبر . فلما بلغ ذلك الجبل شاهد منه مدينة بيت المقدس ، هلل وكبر مسرارا وتبعه صحبه فهللوا وكبروا . ومن ذلك الوقت سمي هذا الجبل « جبل المكبر » .

فلما اقترب الخليفة عمر من (ايليا) تلقاه القادة والجنود بخيلهم ورماحهم ورجالهم ، واصطفوا لاستقباله صفوفاً متراسة وهم يركبون خيولهم ، يتقدمهم قائدهم ابو عبيدة شاكاً سلاحه وهو على بعيره ، يحيط به موكب عظيم من جنده وحاشيته ، وجرى اللقاء الحار بين أمير المؤمنين وقائده .

وبعد ان استراح الخليفة وقصص عليه ابو عبيدة ما جرى معه منذ ان غادر مكة حتى ذلك اليوم ، أمر من فسوره أن يبلغوا بطريق المدينة بوصوله ، فلبى طلبه حالا . وفي اليوم التالي خرج البطريق للقاء الخليفة ، يتبعه الاساقفة

والرهبان ، حاملين الصليب المقدس ، ولما وصلوا الى مقام الخليفة ، خفف
للقائهم وحياتهم بالسلام . ثم تحدثوا في شروط التسليم ، فكتب لهم وثيقة
الامان . التي عرفت فيما بعد بالعهد العمرية ، وسلمها الى صفرونيوس بطريرك
الروم .

وتنص النسخة الموجودة حاليا غسي بطريركية الروم الارثوذكس في القدس ،
وهي نسخة عن الاصل المحفوظ في مكتبة بطريركية الروم الارثوذكس بالفنار من
اعمال استانبول في تركيا ، تنص بما يلي :

صورة مرسوم سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه

« الحمد لله الذي اعزنا بالاسلام واکرمنا بالايمان . ورحمنا بنبيه محمد
صلى الله عليه وسلم . وهدانا من الضلالة . وجمعنا بعد الشتات ، والف
قلوبنا ونصرنا على الاعداء ومكن لنا من البلاد وجعلنا اخوانا متحابين . واحمدوا
الله عباد الله على هذه النعمة . هذا كتاب عمر بن الخطاب لعهد وميثاق
اعطي الى البطريرك المجل الكرم في قومه وهو صفرونيوس بطريرك الملة
الملكية في طور الزيتون بمقام القدس الشريف في الاشتغال على الرعايا
والقسوس والرهبان والراهبات حيث كانوا واين وجدوا وان يكون عليهم
الامان . وأن الذمي اذا حفظ احكام الذمة وجب له الامان والصون منا نحن المؤمنين
والى من يتولى بعدنا . وليقطع عنهم اسباب جوانحهم كحسب ما قد جرى منهم
من الطاعة والخضوع وليكون عليهم الامان وعلى كنائسهم ودياراتهم وكافة
زياراتهم التي بيدهم داخلا وخارجا . وهي القمامة وبيت لحم مولد سيدنا عيسى
عليه السلام . وكنيسة الكبرى والمغارة ذي الثلاثة ابواب ، قبلي وشمالى
وغربي . وبقية اجناس النصارى الموجودين هناك وهم الكرج والحيش .
والذين يأتون للزيارة من الافرنج والقبسط والسرمان والارمن والنساطرة واليعاقبة
والموارنة تابعين للبطريرك المذكور . ويكون متقدما عليهم لانهم اعطوا من حضرة
النبي الكريم الحبيب المرسل من الله تعالى وشرفوا بختم يده الكريمة وامرنا
بالنظر اليهم والامان عليهم . كذلك نحن المؤمنين نحسن اليهم اكراما لمن
احسن اليهم ويكون معانا من الجزية والفقر والمواجب ، مسلمين من كافة
البلايا في البر والبحر وفي دخولهم للقمامة يؤدي النصراني الى البطريرك درهم
وثلاث درهم من الفضة . وكل مؤمن ومؤمنة يحفظ ما امرنا به سلطانا ام حاكما ام والي
يجري حكمه في الارض ، غني ام فقير من المسلمين المؤمنين والمؤمنات .

وقد اعطي لهم مرسومنا هذا بحضور جم الصحابة الكرام تحقيقا .
عبد الله وعثمان بن عفان وسعد بن زيد وعبد الرحمن بن عوف وبقية الاخوة
والصحابه الكرام . فليعتمد على ما شرحنا في كتابنا هذا ويعمل به وابقاه في يدهم وصلى

الله تعالى على سيدنا محمد واله واصحابه وسلم والحمد لله رب العالمين . حسينا الله ونعم الوكيل . حرر في العشرين من شهر ربيع الاول سنة خامسة وعشر للهجرة النبوية . وكل من اطلع وقرا مرسومنا هذا من المؤمنين وخالفه من الان الى يوم الدين فليكن لعهد الله ناكثا ولرسوله الحبيب باغضا ومخالفا .

وقد كتب المؤرخ سعيد بن البطريق من كيفية تسلم مدينة ايليا لعمر بن الخطاب واعطائه عهده المشهورة للبطريرك صفرونيوس ما يلي : —

فخرج صفرونيوس بطريرك بيت المقدس الى عمر بن الخطاب ، فاعطاه ممر الامان وكتب له كتابا هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم من عمر بن الخطاب لاهل مدينة ايليا : انهم امنون على دمائهم واولادهم واموالهم وكنائسهم لا تهنم ولا نسكن . واشهد الشهود وفتح باب المدينة له ، فدخل عمر بن الخطاب المدينة واصحابه .

وكان اول عمل قام به عمر بن الخطاب هو زيارة كنيسة القيامة ، وبعد ان زارها جلس في صحن الكنيسة . فلما حضرته الصلاة ، قال عمر للبطريرك اريد ان اصلي ، فقال له البطريرك يا امير المؤمنين صل موضعك ، فاجابه عمر ليس ههنا اصلي . فأخرجه البطريرك الى كنيسة قسطنطين المجاورة ، وطرح له حصيرا في وسط الكنيسة . فقال له عمر ولا ههنا اصلي ايضا . فخرج عمر الى الدرجة التي على باب كنيسة مار قسطنطين مما يلي المشرق ، ف صلى وحده على الدرجة . ثم جلس وقال لصفرونيوس ، يا بطريرك اتدري لماذا لم اصل داخل الكنيسة ، فاجابه البطريرك يا امير المؤمنين لا اعلم بذلك . فقال له عمر لو صليت داخل الكنيسة ، كانت تتلف عليك الكنيسة وتخرج من يدك ، وكان المسلمون يأخذونها منك بعدي فيقولون ها هنا صلى عمر بن الخطاب . لكن ايتني بقرطاس اكتب لك سجلا . فكتب عمر سجلا على ان لا يصلي احد من المسلمين على الدرجة الا واحد فواحد ، ولا تجمع فيها صلاة ، ولا يؤذن عليها ، وسلم السجل للبطريرك .

ثم ان عمر قال للبطريرك : لقد وجدت لي عليك حق ذمام ، فاعطني موضعا ابني فيه مسجدا . فقال له البطريرك انا اعطي امير المؤمنين موضعا تبني فيه مسجدا ، عجز ملوك الروم عن بنائه ، وهي الصخرة التي كلم الله يعقوب النبي عليها . وسماها يعقوب باب السماء ، وسماها بنو اسرائيل قدس الاقداس . وهي في وسط الارض ، وكانت هيكل ابني اسرائيل يعظمونها . وحيثما كانوا اذا صلوا يولون بوجوههم اليها . على ان تكتب لي سجلا ان لا يبني في بيت المقدس غير هذا المسجد . فكتب عمر بن الخطاب له سجلا بهذا ودفعه للبطريرك .

وهذا المكان هو مقام فوقه في يومنا هذا مقابل كنيسة القيامة المسجد المعروف

باسم « مسجد عمر بن الخطاب » . ثم هدم مع مرور الزمن وأقيم مكانه المسجد الذي نراه حالياً .

وكان الروم قد تنصروا في عهد الملك قسطنطين ، وبنت والدته الملكة هيلانة الكنائس الكثيرة في القدس وبيت لحم وغيرها ، وكان مكان الصخرة وحولها خراباً ، فتركوه ورموا فوق الصخرة التراب حتى صار فوقها مزيلة عظيمة . وقد تركها الروم ولم يعظموها كما كان بنو إسرائيل يعظمونها . ولم يبنوا عليها كنيسة لقول السيد المسيح في انجيله « هوذا بيتكم يترك لكم خراباً » وقال أيضاً (انه لا يبقى فيه حجر على حجر لا يهدم ولا يخرب) فلهذا السبب تركها النصارى خراباً لم يبنوا عليها كنيسة .

واخذ البطريرك صفرونيوس بيد الخليفة عمر بن الخطاب وأوقفه على المزيلة وأشار إليه بمكان الصخرة . فأخذ عمر بطرف ثوبه وملاه تراباً من فوق الصخرة ورمى به في وادي جهنم خارج السور . فلما شاهد المسلمون ان الخليفة عمر بن الخطاب قد حمل التراب في حجره ، لم يتأخر أحد منهم حتى حمل التراب في حجره وفي الثياب وفي الاتراس وفي الزنابل والاجاجين ، والقوا بالتراب في وادي جهنم حتى نقوا الموضع ونظفوه واستبانست الصخرة . فقال قوم نبني المسجد ونصير الصخرة في القبلة . فقال عمر لا ، ولكننا نبني المسجد ونجعل الصخرة في آخر المسجد . فبنى عمر المسجد وجعل الصخرة في آخر المسجد .

أما ما جاء في العهدة من تسمية الارثوذكس (الملة الملكية) فقد ذكر عن هذا بروكوبيوس الملقب « عرب اوغلو » ، في مجموعته الخطية المبينة جميع وقائع البطريركية المقدسية ، والمحتوية على أهم المرسومات المعطاة للبطريركية ، والقائلة بالمحافظة على أماكن الزيارات ومقاماتها المقدسة ، فذكر ما يلي :

« في تلك الايام كان في القدس ، ثلاث شيع للنصارى . وعندما استقصى عمر القابهم منهم ، أجاب البعض انهم يعاقبة ، والبعض انهم نساطرة ، والبعض انهم موارنة . وعندما سأل الخليفة عمر البطريرك صفرونيوس عن لقب رعيته اجاب . يا امير المؤمنين أمهلني ثلاثة ايام لأفكر ، فلبى الخليفة طلبه . فأخذ البطريرك يصلي بحرارة لله ، متضرعاً لكي يهديه الى ما يجيب به امير المؤمنين . وفي اليوم الثالث فيما هو واقف في صلاة السحر « صلاة الفجر » في الكنيسة سابحاً في بحر الافكار والاهتمام بأمور الله التي لا تدرك ، وقع في ذهول ورأى ملاك الرب يقول له : « يا صفرونيوس خادم الله ، عند انتباهك ، فالكلمة التي تسميها أولاً من فم القارئ ، سم بها شعبك . فعندما انتبه البطريرك من ذهوله كانت أول كلمة سمعها من الشمس هو « ملكي والهي » ففرح جداً . وبعد انتهاء الصلاة ، ذهب رأساً الى عمرو وذكر له الحادث كله كما كان ، فتعجب الخليفة من رواية البطريرك وقال له : لقد تسمى النصارى بما اختارت من الاسماء أما انتم الذين وقفتم أنفسكم على خدمة الله الذي هو اله وملك ،

فبحق يجب أن تسموا « ملكيين » . وأمر بأن يقيد جميع المسيحيين الارثوذكس في فلسطين ومصر والشام بلقب (الامّة الملكية) .

وبعد أن زار الخليفة عمر كنيسة القيامة ، ذهب في اليوم التالي برفقة البطريرك الى بيت لحم لزيارة كنيسة المهد . وحين وقت الصلاة فصلى عمر في الحنية الجنوبية من كنيسة المهد وأعطى صكا للبطريرك بأن لا يصلي في هذه الكنيسة من المسلمين الا واحد فواحد ، وأن لا يرفع فيها اذان .

وبعد أن اتم عمر بن الخطاب زيارته لكنيسة القيامة ومكان الصخرة ، راح يتجول في شوارع واسواق بيت المقدس ، وكانت لا تزال تئن من الخراب الذي لحق بها من الغزو الفارسي ، الذي سبق الفتح الاسلامي باثنتي عشرة سنة ، فرأى أن يبدأ بالتنظيم الاداري والقضائي أولا .

ثم وضع التاريخ الهجري ، ودون الدواوين ، وقسم البلاد الى مناطق ، وعين عليها الامراء . ورتب البريد ، وأقام العيون « الاستخبارات » ، وعين قاضيا « مفتشا » يطوف على المأمورين ، ويحقق في الشكاوي . وأسس الحسية « البلدية » لمشارفة الموازين والمكايل ومراقبتها ولنع الغش ، وتنظيف الشوارع والازقة ، وهدم البناء المحدث في وسط السوق ، وحظر على الناس الازدحام في الطرق .

وحث الناس على التجارة ، فقال لا تلهكم الرئاسة وحبها ، لا يغلبكم الغرياء على التجارة فانها تلت الامارة ، وقضى عمر اياما في بيت المقدس يرتب امورها ، ووضع كل شيء في نصابه ، حتى استراح باله فاطمئن واعتزم الرجوع الى المدينة المنورة .

وبعد أن ودع قادته وجنده ، خاطبهم قائلاً :

« يا اهل الاسلام ، ان الله قد صدقكم الوعد ونصركم على الاعداء ، وأورثكم البلاد ، ومكن لكم في الارض ، فلا يكونن جزاؤه منكم الا الشكر . واياكم والعمل بالمعاصي ، فان العمل بالمعاصي كفر للنعم . وقلما كفر قوم بما أنعم الله عليهم . ثم لم يفزعوا لتوبة الا سلب عزمهم وسلط عليهم عدوهم » .

وقبل سفره الى الحجاز اقام عمر على بيت المقدس « يزيد بن ابي سفيان » على أن ياتمر بأوامر عبيدة بن الجراح . وانتدب للصلاة من بعده « سلامة بن قصير » وأما من الناحية العسكرية فقد أمر على فلسطين رجلين . فجعل « علقمة ابن حكم » على نصفها الشمالي وأنزله مدينة الرملة ، « علقمة بن مجزر » على نصفها الجنوبي وأنزله ايليا ، فنزل كل منهما في عمله مع جنوده .

ولقد عاد عمر ، فزار القدس مرة ثانية بعد عامين ، أي في سنة ١٧ للهجرة سنة ٦٣٩م وتعرف بعام الرماد ، اذ اجتاحت الحجاز عامئذ قحط شديد ، فجاء الناس وهلك الماشية . فأمر الخليفة عامليه أبا عبيدة وعمر بن العاص ، فأرسلوا الحبوب من سوريا وفلسطين الى البلاد الحجازية بطريق العقبة .

وقام عمر في زيارته الثانية لبيت المقدس ، يتفقد الأحوال الادارية والعسكرية للبلاد . فسمع الشكاوي فأسى الثكالى واليتامى ، وأعان الفقراء والمحتاجين ، ونظر في أمور الناس ومصلحتهم .

كانت اللغة اليونانية قبل الفتح الاسلامي وفي أوائله سائدة في بيت المقدس ، فأتت مع الفتح ، اللغة العربية تنافسها . وما الا بضع سنين حتى تلاشت الاولى وسيطرت الثانية . وفي خلافة عبد الملك بن مروان الغيت اليونانية . وقامت مكانها اللغة العربية ، وراحت هذه تستعمل في جميع مصالح الدولة ودواوينها . وضربت الدنانير الاسلامية فأصبحت الحكومة عربية بكل ما في الكلمة من معنى .

أما صفرونيوس بطريرك القدس لم يعيش مدة طويلة بعد فتح العرب لبيت المقدس ، وتوفي بعد ذلك بسنة تاركاً وراءه مجموعة كبيرة من مؤلفاته الدينية والتاريخية والادبية ، تبعثرت هنا وهناك مع مرور الزمان .

في سنة ٦٤٤م توفي الخليفة عمرو وخلفه الخليفة عثمان بن عفان . وفي عهد هذا الخليفة لم يذكر المؤرخون أخباراً تاريخية تتعلق بحالة فلسطين .

العهد الأموي

أسس دولة الأمويين معاوية بن أبي سفيان ، وكان في عهد النبي . كاسب الوحي ، وكان أحد قادة الجيش العربي الذي انتدبه الخليفة أبو بكر الصديق لفتح الشام وفلسطين ، فقد أشتبك في واقعة اليرموك ، وحاصر قيصرية وافتتحها . وحضر فتح بيت المقدس ، وكان من شهود « العهد العمرية » التي أعطاها الخليفة عمر بن الخطاب لأهل ايليا . وقد ولاه عمر بعدئذ الشام (١٨ هـ - ٦٣٩ م) ، وولاه عثمان بن عفان نفس العمل بعد عمر .

بويح بالخلافة في سنة (٤١ هـ - ٦٦١ م) وأنشأ اسطولا عظيما غزا به الروم وحاصر القسطنطينية . وابتكر في الدولة أشياء لم يسبقه اليها أحد . منها انه أول من وضع البريد واستخدم المسيحيين في مصالح الدولة وأخرج الخلافة عن أصولها ، فبعد ان كانت بالعهد لأفضل الصحابة أو بالشورى بينهم ، جعلها كالملك وراثية . وكان أول من اتخذ (سرير الملك) للجلوس عليه في الاسلام ، وهو أول من اتخذ « المقصورة » للصلاة في الجامع .

زار القدس في عهد مؤسس الدولة الاموية معاوية بن أبي سفيان ، اسقف فرنسي الاصل يدعى اركولفوس Arculfus هبطها في سنة ٦٧٠ م ، وقضى فيها تسعة شهور ، وذكر عنها الشيء الكثير والى القراء بعض النقاط التي تهمنا من رحلته : —

١— كان على سور القدس يومئذ ٨٤ برجاً ، وله ستة أبواب ، ثلاثة منها تستعمل للدخول والخروج : واحد منها غربي المدينة والثاني شماليها والثالث شرقيها .

٢— في اليوم الخامس عشر من ايلول في كل سنة يؤم القدس من كل حـدب وصوب جماهير غفيرة مختلفة الاجناس والاديان بقصد التجارة وتبادل العطاء والشراء . وكثيرا ما يمكث هؤلاء في المدينة المضيافة بضعة أيام . فتسرى الشوارع مكتظة بجمالهم وخيلهم وحميرهم وثيرانهم ويغالهم . فتصبح الشوارع ممثلة بروث الحيوانات وفضلات القادمين ومن الغرائب التي لا يكاد المرء أن يصدقها ، ان المطر يهطل بغزارة عشية اليوم الذي تترك فيه هذه الجموع الغفيرة وحيواناتها المدينة ، فيغسل الشوارع ويزيل ما فيها من روث واقدار . وتسيل مياه الامطار هذه في المنحدرات كالانهار . ويجمع بعض هذه الامطار في الابار التي لا يكاد يخلو منها دير أو مسكن ، لاستعمالها للشرب وحاجات السكان .

٣— ليس على جبل الزيتون اشجار خلا الغنـب والزيتون ، ولكن نوعا جيدا من

القمح يزرع فيه . واظن ان تربة هذا الجبل لا تساعد على غرس الاشجار وانما تصلح لزرع الحبوب والزهور . ان أعلى نقطة فيه مرتفعة عن سطح البحر مقدار ٢٦٩٣ قدما .

٤- ان جبل صهيون اصغر من جبل الزيتون من حيث الطول والعرض وبين هذين الجبلين يقع وادي يهوشفاط ، ويقال له وادي جهنم ووادي قدرون ايضا .

٥- ويؤتى بالخشب الى بيت المقدس من غابة كثيفة واقعة على بعد ثلاثة اميال من الخليل الى الشمال ، وعلى تل مقتصب في وسط السهل متسع على يسار المسافر الى القدس ، ولا يبعد عن الطريق الا قليلا . وفي هذه الغابة تنبت اشجار الصنوبر بكثرة . ومن هذه الاشجار ينقل المقدسيون الخشب الذي يحتاجون اليه اذ ان المركبات والكرات نادرة الوجود في القدس ، وفيما حولها من البلدان .

عين معاوية ولده يزيد وليا للعهد . ولما مات تولى يزيد الملك (٦٠هـ - ٦٨١م) وفي زمنه قامت فتن في الحجاز والعراق . وبعد موت يزيد ، بويغ ابنه معاوية (٦٤هـ - ٦٨٤م) . ولكنه لم يلبث في الملك اكثر من شهر ونصف ، اذ توفي دون ان يكون له ولد .

بايع اهل الحجاز عبد الله بن الزبير . ويقال ان معاوية بن يزيد تنازل له عن الخلافة قبل وفاته . ومن قاتل انه تنازل عنها يوم بايعوه ، لما شعر بعجزه عن مناهضته . وبقيت مصر مترددة حينئذ اقترته .

واما اهل الشام فقد بايعوا مروان بن الحكم ، فاحترب الفريقان : عبد الله ابن الزبير « الحجاز » ومروان بن الحكم « الشام » وجيشاهما في مرج راهط . وانقسمت البلاد الى قسمين قيس ويمن . وكان بفلسطين نائل بن قيس الجذامي فمال الى الزبير ، ولكن مروان حاربه فتغلب عليه ، فاخذها منه . ثم سار الى مصر فصالحه اهلها فاخذها من ابن الزبير . واستتب الامر لمروان في مصر والشام (٦٤هـ - ٦٨٤م) .

ولما توفي مروان بن الحكم ، بويغ ابنه عبد الملك بن مروان (٦٥هـ - ٦٨٤م) . وعبد الملك بن مروان هو الذي بنى في القدس مسجد الصخرة والمسجد الاقصى وهما من أعظم اثار بني أمية في فلسطين ، لا بل من مفاخر العرب في الشرق كله . وقد رصد لبنائه خراج مصر لسبع سنين ، وشرعوا في البناء سنة (٦٦هـ - ٦٨٥م) وفرغ منه في سنة (٧٢هـ - ٦٩١م) . فبنوا في بادئ الامر قبة السلسلة الكائنة شرقي الصخرة لتكون نموذجا ، ثم بنوا المسجد نفسه .

ذهب بعض المؤرخين ، ان الغاية من بناء مسجد الصخرة بهذا الشكل البديع هي الاستعاضة عن الكعبة بسبب ثورة عبد الله بن الزبير الذي ثار على الامويين وأعلن استقلال الحجاز سنة (٦١هـ - ٦٨٠م) . فأراد عبد الملك بن

مروان أن يصرف الناس عن الكعبة . خشية أن يأخذهم ابن الزبير عند الحج بالبيعة . وعلى قول آخرين أن عبد الملك بن مروان منع الناس من الحج إلى مكة واعتزم بناء مسجد الصخرة .

كذلك ذهب بعض المؤرخين إلى القول أن عبد الملك بن مروان إنما بنى مسجد الصخرة حتى يكون للمسلمين مسجد يضاهي في بهائه وسحره ، ما لكنائس النصارى من الروعة ، وخاصة أنه كان في فلسطين وسوريا وما حولها يومئذ ، من الكنائس الكثيرة ذات الإبهة العالية . فخشي عبد الملك أن يظلم المسلمون يتطلعون إلى هذه الكنائس المسيحية دون أن يكون لهم ما يفخرون به . وقد روى المقدسي الذي هبط طيبات القدس الذي يحج إليه المسلمون ، فخشي أن تؤثر ضخامة هذه الكنيسة على قلوب المسلمين ، فاعتزم أن يبني قبة مثلها أو أحسن ، فنصب على الصخرة القبة التي نراها حالياً .

اختلف المؤرخون فيما إذا كان عبد الملك قد استعمل في بناء مسجد الصخرة بعض الحجارة والأعمدة التي كانت في كنائس فلسطين ، تلك الكنائس التي دمرها الفرس قبيل الفتح الإسلامي أو في غيرها من الكنائس . أما ابن البطريق فروى في تاريخه ما نصه : —

« وبأمر عبد الملك بن مروان قلعت قبة كانت للنصارى في كنيسة بعلبك ، وهي من نحاس مطلي بالذهب ، فنصبها على مسجد الصخرة » .

وهذا الشخص الذي عرف في التاريخ باسم (ابن بطريق) ، هو سعيد بن بطريق من فسطاط مصر . عاش من سنة ٢٦٣هـ — ٣٢٨هـ ، صار في زمن الخليفة الفاطمي القاهر بالله ، بطريقاً على الاسكندرية في مصر ، ومات بها . له كتاب في ثلاثة أجزاء سمي « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » طبع في سنة ١٩٠٦م على نفقة الجمعية المشرقية بباريس .

بعد أن بنى عبد الملك بن مروان قبة الصخرة سنة ٧٢هـ — ٦٩٨م شرع في بناء المسجد الأقصى سنة ٧٤هـ — ٦٩٣م وتم البناء في زمن ابنه الوليد سنة ٨٦هـ — ٧٠٥م .

ظل عبد الملك بن مروان يتربص بابن الزبير ، حتى ظفر به ، فقتله سنة ٧٣هـ ، وبايعه سكان الحجاز واليمن ، وصفا له ملك مصر والشام والحجاز والعراق واليمن وغيرها .

ومن أعمال عبد الملك بن مروان ، أنه أول من حول الدواوين إلى العربية ، ونقش الدراهم بالعربية ، وكان نقش الدنانير قبل ذلك بالرومية والدراهم بالفارسية . كذلك اعتنى عبد الملك بن مروان بفتح الطرق وتعميدها ، وكان يضع على مسافات معينة من هذه الطرق حجارة ينقش عليها اسم الذي أمر بتعميرها ، والمسافة التي تفصل دمشق مقر الخلافة والمكان الذي فيه الحجر .

بعد وفاة عبد الملك بن مروان ببيع ابنه الوليد سنة ٨٦ هـ - ٧٠٥ م .
وقد كانت أيام الوليد من أبرك أيام أمية ، وقد سهل الطرق ، وعمر الجوامع
العظيمة ، وبيت في الامة روح العمران ، وأعان الفقراء والمرضى والمقعدين
والعميان . وبلغ بنو أمية على عهده أقصى درجات العز ، فتغلغت جيوشه
في بلاد الترك والروم والهند . وفتح موسى بن نصير باسمه الاندلس ، فأتى
إليه منها بالاموال والجواهر ، ووقف أبناء الملوك والامراء على بابه يطلبون
الرضى والامان .

وفي زمن خلافة الوليد بن عبد الملك عومل المسيحيون في القدس وفلسطين
معاملة قاسية ، لعدم موافقتهم المسلمين في الهجوم على القسطنطينية ، وفرضت
الجزية على الرهبان ، وجعلت اللقمة العربية اجبارية للجميع .
بعد وفاة الوليد بن عبد الملك ولي اخوه سليمان بن عبد الملك
(٩٦ هـ - ٧١٤ م) . وبعد وفاته ببيع ابن عمه عمر بن عبد العزيز سنة
٩٩ هـ - ٧١٧ م . فقد اشتهر هذا بالعدل والحلم وحبه للعلم والعلماء . وقد منع
عباله من اخذ الجزية من أهل الذمة . ويذكر له التاريخ مواقف مشرفة من
الرهبان والنسك ومساعدة الدير .

بعد عمر بن عبد العزيز تعاقب على كرسي الدولة الاموية كل من :

يزيد بن عبد الملك	١٠١ هـ - ٧٢٠ م
هشام بن عبد الملك	١٠٥ هـ - ٧٢٤ م
الوليد بن يزيد	١٢٥ هـ - ٧٤٣ م
يزيد بن الوليد	١٢٦ هـ - ٧٤٤ م
ابراهيم بن الوليد	١٢٦ هـ - ٧٤٤ م
مروان بن محمد	١٢٧ هـ - ٧٤٥ م

وفي زمن مروان بن محمد ، وهو آخر الخلفاء الامويين ، انتشر الفساد
وساعت الاحوال في جميع انحاء البلاد وكثرت الفتن بدرجة أن منازعي مروان
على الخلافة كثروا ، وكان في طليعتهم ابو العباس الهاشمي . فقد بايعه أهل
الحراق وخراسان ، فاشتد ساعده ، وجمع جيشا حارب به جيش مروان فتغلب
عليه . وهرب مروان الى مصر ، فلحق به وقتله ، وبهذا قضى على الدولة
الاموية قضاء تاما ، في ٢٧ جمادى الاخر ١٣٢ هـ - ٧٥٠ م . وتهرب بنو أمية
في البلاد هربا بأنفسهم .

وكان مع مروان حين قتل ، ولداه عبد الله وعبيد الله . فهربا الى مصر
ومنها جنوبا الى بلاد النوبة . وأما عبيد الله فقد مات من الفرار والعطش . وأما
عبد الله فقد ذهب الى الحجاز وظل يتنقل في البلاد الى أن أسره ابو العباس
السنجاري . فعاش في السجن بقية أيام أبي العباس وأيام المنصور والمهدي
والهادي ، فأخرجه هارون الرشيد من السجن وهو شيخ ضريب .

العهد العباسي

لما تغلب أبو العباس الهاشمي على بني أمية وقتل آخر خلفائهم مروان بن محمد ، فقد بايعه أهل العراق وخراسان بايعوه في مدينة الكوفة في وسط العراق .

عندما بويع أبو العباس عبد الله محمد الهاشمي في مدينة الكوفة ، في ١٣ ربيع أول سنة ١٣٢هـ — ٧٥٠م ، كان أول عمل قام به هو أنه أقال ولاية الأمصار والقاده ، وأبطلهم بولاية من اقاربه . وقد لقب هذا الخليفة في التاريخ بالسفاح لكثرة عدد الأشخاص الذين قتلهم ممن كانوا يعارضون خلافته .

أما الخلفاء العباسيون الذين تولوا الخلافة ومنهم :

أبو العباس عبد الله بن محمد	١٣٢هـ — ٧٥٠م
أبو جعفر المنصور	١٣٦هـ — ٧٥٤م
محمد المهدي	١٥٨هـ — ٧٧٥م
موسى الهادي	١٦٩هـ — ٧٨٥م
هارون الرشيد	١٧٠هـ — ٧٨٦م
محمد الأمين	١٩٣هـ — ٨٠٩م
عبد الله المأمون	١٩٨هـ — ٨١٣م
المعتصم بن الرشيد	٢١٨هـ — ٨٣٣م
هارون أبو جعفر « الواثق بالله »	٢٢٧هـ — ٨٤٢م
جعفر بن المعتصم (المتوكل على الله)	٢٣٢هـ — ٨٤٧م
أحمد بن محمد بن المعتصم (المستعين بالله)	٢٤٨هـ — ٨٦٢م
المعتز بالله بن المتوكل	٢٥٢هـ — ٨٦٦م
المهتدي بالله بن الواثق	٢٥٥هـ — ٨٦٩م
المعتد على الله بن المتوكل	٢٥٦هـ — ٨٧٠م
المعتضد بالله	٢٧٩هـ — ٨٩٢م
المكتفي بالله بن المعتضد	٢٩٢هـ — ٩٠٥م
المقتدر بالله جعفر	٢٩٥هـ — ٩٠٨م
القاهر بالله بن المعتضد	٣٢٠هـ — ٩٣٢م

كان عهد الخلفاء العباسيين عاديا ، وبقيت فلسطين ولاية تابعة لهم ، يحكمها وال معين من قبلهم . أما في زمن الخليفة هارون الرشيد فقد بلغت دولة العباسيين في أيامه درجة كبيرة من العمران والمجد وازدهار العلم . وقد ذكر التاريخ أن صداقة كبيرة توطدت بين هارون الرشيد والإمبراطور شارلمان ، وكانا يتبادلان الهدايا . وكان شارلمان يرسل في كل سنة وفدا إلى القدس يحمل الهدايا

الى الخليفة والاموال لتوزع على فقراء المسلمين في القدس . وارسل الخليفة مفاتيح كنيسة القيامة مع هدايا اخرى الى شارلمان .

في سنة ٧٩٦م اهدى هارون الرشيد الى شارلمان ، فيلا وساعة كبيرة واقمشة نفيسة ، وتعهد هارون الرشيد بحماية الحجاج المسيحيين الذين يأتون لزيارة القدس ، وكذلك سمح للامبراطور شارلمان بترميم الكنائس وبناء كنيسة العذراء التي يقوم على اثارها في يومنا هذا كنيسة الدباغة . وقد بني بجانب كنيسة العذراء دير ياوي اليه الزوار المسيحيون من اوروبسا .

وبعد هارون الرشيد كان خلفاؤه في تضعف مستمر ، وشق الطاعة عليهم الكثيرون من حكام الولايات ، ومنهم حكام ولاية فلسطين ، ولذلك وقعت عدة حروب عصيان في فلسطين . ولما تولى الخلافة المكتفي بالله ٢٩٢هـ - ٩٠٤م . ارسل جيشا قويا الى الشام فاعاد سيطرة العباسيين عليها . ثم تابع هجومه على مصر فاستولى عليها . وهكذا عادت السلطة الى الخلفاء العباسيين في الشام ومصر على عهده ، بعد ان بقيت رديا من الزمن في يد الطولونيين .

ثم بعد المكتفي بالله ، بويع بالخلافة جعفر المقتدر بالله ٢٩٥هـ - ٩٠٨م ولما قتل المقتدر بالله بويع اخوه القاهر بالله ، الابن الثالث للمعتضد بالله ٢٢٠هـ - ٩٣٢م فولى هذا على مصر ابا بكر بن محمد طمع . ومن هذا نشأت دولة حكمت مصر وسوريا لمدة من الزمن عرفت باسم الدولة (الاخشيدية) .

تبع الخلفاء العباسيون بعد سنة ٩٣٢م . في قصورهم في بغداد ، فلم يبق لهم في شؤون الملك حول ولا طول ، واقتصرت سلطتهم على المسائل الدينية ، وظلوا كذلك الى ان زحف هولاكو على بغداد (٦٥٦هـ - ١٢٥٧م) وقضى على الخلافة العباسية فيها . فغادروا بغداد بعد ان عاش منهم فيها سبعة وثلاثون خليفة ، غادروها الى مصر حيث عاش منهم خمسة عشر خليفة ، كان اخرهم محمد المتوكل على الله الذي تنازل عن الخلافة الدينية الى السلطان سليم العثماني ٩٢٣هـ - ١٥١٧م وسلمه مفاتيح الحرمين . فتكون خلافة العباسيين قد عاشت ٧٦٧ سنة .

ان تأثير العباسيين في فلسطين في عهدهم الاخير كان ضئيلا بسبب بعد المسافة ، وكذلك انتقلت السلطة فيهما من يد العباسيين الى يد الطولونيين ، فالى الاخشيديين والفاطميين بمصر . وكانت القدس على عهدهم ولا تزال تحمل اسمها الروماني (ايليا) الذي احتفظت به منذ الفتح الاسلامي .

زار القدس في سنة ٨٧٠م (برنارد الحكيم) بعد ان نال رضى البابا في روما . وقد وصف القدس وما حولها من القرى فقال : -

ان المسلمين والمسيحيين فيها على تفاهم تام . والامن العام مستتب ، حتى ان المسافر ليلا يجب ان تكون بيده وثيقة تثبت هويته ، والا زج في السجن حتى يحقق في أمره ويتضح قصده . واذا سافرت من بلد الى بلد ونفق جملي او حماري وتركيت امتعتي مكانها وذهبت لاستئجار دابة من البلدة المجاورة عدت فوجدت كل شيء على حاله لم تمسه يد .

وكان تفكير برنارد الحكيم منصرفا بالاكثـر الى اماكن العبادة ، وذكره سـا كلها بالتفصيل ولم يذكر عن القسسـوس وبيت لحم الا اليسير . وذكر انه نـزل في نـزل معد للحجاج الذين يتكلمون اللغة اللاتينية ، ذلك النـزل الذي سبق ذكره ، والذي أسسه الملك شارلمان الكبير صديق الخليفة هارون الرشيد ، ويترتب على الشخص الذي يعيش في هذا النـزل ان ينقد المحتسب الذي يناظره قطعـتين من الذهب كل سنة .

الدولة الطولونية

عندما غزا العرب بلاد الترك ، راحوا يرسلون الى بلاط الخليفة ببغداد من يأسرونه من الترك ، فيستخدمهم الخلفاء وكبار الامراء في خدمتهم وخدمة منازلهم ، ويدعونهم بالمماليك . ومن هؤلاء الاسرى ، مملوك يدعى طولون ، وهو ينتمي الى احدى القبائل الاربع والعشرين التي تتألف منها تركستان . فاعجب المأمون به والحقه بحاشيته . وما زال يرقيه حتى جعله رئيس حرسه ولقبه بأمير الستر .

بقي طولون في منصبه عشرين عاما ، خدم خلالها المأمون و اخاه المعتصم . وفي زمن المعتصم كان الضعف قد دب في صفوف العباسيين الى درجة انه لم يبق للخليفة سلطة في البلاد سوى الاسم . واصبحت خلافتهم دينية لا دنيوية ، سيطر طولون ولقب بعدئذ بأبي العباس .

عين طولون في سنة ٣٤٨ هـ اي ٨٦٢ م واليا للعباسيين على مصر ، وهناك طارت شهرته . فقد كان قائدا للقوات العسكرية هناك ، ياتمر بأمر الخليفة العباسي ببغداد . وكان طولون تقيما ، لين العريكة مقداما ، ملما بالسياسة ، وبقي ابن طولون واليا عاما على القطر المصري .

ولما توفي اماجور التركي والسي الشام للعباسيين . اغتنم طولون الفرصة ليضم سوريا وفلسطين الى مصر ، فسار اليها بجيشه ، ولما احتشدت جيوشه في فلسطين ، اتاه حاكم الرملة خاضعا ، فاقره في منصبه تابعا للدولة الطولونية في مصر ، ولما وصل بجيوشه الى دمشق رحب به على بن اماجور واعلن ولاءه للدولة الطولونية واقره في منصبه . وهكذا علت كلمته في بري مصر والشام (٢٦٥ هـ — ٨٧٨ م) .

توفي ابن طولون في اليوم العاشر من شهر ذي القعدة سنة ٢٧٠ هـ — ١١ ايار ٨٨٤ م ودفن عند سفح جبل المقطم قرب القاهرة في مصر . بعد موته اقيم اميمة خمارويه في مكانه ، فكان امرا على مصر والشام . وطد خمارويه بعدئذ العلاقات الطيبة بينه وبين الخليفة العباسي المعتضد بالله ، وارسل الى بغداد وفدا يحمل للخليفة الهدايا ، ويعلمه ان مصر تؤدي له الخراج وقدره مائتا الف دينار سنويا . فثبته الخليفة في امارته ٣٠ سنة . وقام بعده خلفاؤه حتى سنة ٩٠٥ م حيث انتهى حكم الدولة الطولونية في فلسطين .

الدولة الاخشيدية

ظن الخلفاء العباسيون انهم قضوا على من يناصرهم العداء في مصر والشام ، يوم قضوا على خلفاء طولون ، لكن ظهرت لهم (الدولة الاخشيدية) ورأس هذه الدولة هو محمد الاخشيد « الملقب بابسى بكر » بن طغج بن حيف بن يلتكن بن موري بن خاقان .

دخل طغج بن حيف في خدمة خماروية بن احمد بن طولون ، فقلده بعض المناصب الهامة ، وولاه دمشق وطبرية . وظل يرتقي في هذه المناصب الى ان مات في حبس العباس بن المحسن وزير الخليفة العباسي المكتفي بالله .

وكان مع طغج في السجن ابنه محمد الاخشيد ، وقد استطاع الفرار من السجن ووصل الى الشام . وهناك ولاه الخليفة المقتدر مدينة الرملة ٣٠٦ هـ اي ٩٢٨ م . فاقام فيها سنتين ثم تولى الشام ٣١٨ هـ اي ٩٣٠ م .

ولما قتل الخليفة العباسي المقتدر بالله ، وبويع بالخلافة اخوه القاهر بالله بن المعتضد بالله (٣٢٠ هـ اي ٩٣٠ م) ولي محمد بن طغج على مصر ولقب بالاخشيد . وهذا اللقب كان لقب ملوك فرعانة الذين انحدر منهم ، ومعناه ملك الملوك ، وكان ذلك في سنة ٣٢٧ هـ اي ٩٣٨ م . ومن هذا نشأت دولة حكمت مصر وسوريا معاً مدة من الزمن عرفت بالدولة الاخشيدية .

مات الاخشيد في دمشق ، ودفن في القدس سنة ٣٣٤ هـ اي ٩٤٥ م . وبعد موته ولي الامر ابنه ابو القاسم محمد الملقب بـ (انوجور) فاستضعفه سيف الدولة والي حلب وقصد دمشق فملكها . فخابروا كافور وصي الامير ، فجهز هذا جيشاً ، فالتقى الجيشان قرب الرملة ، فانهزم سيف الدولة ، واسترجع كافور دمشق وفلسطين ٣٣٤ هـ اي ٩٤٦ م .

ولما مات انوجور بن الاخشيد ٣٤٩ هـ اي ٩٦٠ م ، حمل الى القدس ودفن فيها عند ابيه . ومن بعده تولى الحكم اخوه علي الملقب بابي الحسن . ولم يكن له من الامر شيء سوى الاسم ، اذ منع كافور الناس من الاجتماع به . وظلت صلته بمدير مملكته كافور سيئة الى ان اعتلت صحته . ومات في ١١ محرم ٣٥٥ هـ اي ٩٦٥ م ، وحمل الى القدس ودفن عند ابيه الاخشيد واخيه انوجور . وبموت ابي الحسن انفرد كافور في حكم مصر ولقب بالاخشيدي ٣٥٥ هـ اي ٩٦٥ م . وخطب له على منابر مصر والشام والحجاز ، وكانت هذه كلها من اعماله .

توفي كافور سنة ٣٥٦هـ - ٩٦٦م. ووقع الخلاف على اثر وفاته بين
الاخشيديين ، فراح كل منهم يدعي الامارة لنفسه فتضعفت الدولة الاخشيدية
واستولى جوهر الصقلي قائد المعز الفاطمي على البلاد .

لم تكن القدس وما حولها في عهد الطولونيين والاخشيديين ، يومئذ ذات
اهمية لا من الناحية التجارية ولا من الناحية العسكرية ، ذلك لانها لم تكن
واقعة على الدرب الاساسية بين مصر والشام ، وكانت مدينة الرملة عاصمة
ولاية فلسطين عدة قرون ، وكانت الاهمية في ذلك الحين للمدن الواقعة على الساحل
من مصر حتى شمال الشام ، ولذلك كانت مثل هذه المدن هي التي تتعرض للغزو
والتدمير في معظم الحروب . اما القدس وما حولها كانت لا تقصد الا لغايات دينية
وزيارة الامكن المقدسة فيها .

منشأ الدولة الفاطمية

كانت الدولة الفاطمية شيعية المذهب ، وترجع نشأة الحزب الشيعي الى وقت مبكر في التاريخ الاسلامي ، فكانت الشيعة اول حزب ديني في الاسلام . فقد كان من رأي بعض الصحابة ان اولى الناس بالخلافة هم اهل بيت النبي اي بنو هاشم ، واولى هؤلاء ابن عمه علي بن ابي طالب ، غير ان اجتماع السقيفة المشهور انتهى باختيار ابي بكر للخلافة ، ثم عهد ابو بكر لعمر بن الخطاب بالخلافة تعيينا منه . ثم أوصى عمر بعده السيقة من كبار الصحابة من بينهم علي بن ابي طالب ، ولكن انتهى الامر باختيار عثمان بن عفان .

وبقي الحزب الشيعي في خصام شديد مع دولة الامويين ، وكان من اهم حركاتهم الثورية ، خروج الحسين بن علي في ايام الخليفة يزيد بن معاوية ، وانتهت ثورته بقتله وقتل من معه في مذبحة كربلاء في العراق ، في العاشر من محرم سنة (٦١ هـ اي ٦٨٠ م) ومنذ ذلك الحين يحتفل اصحاب مذهب الشيعة بهذه الذكرى في عيدهم الذي يسمونه عاشوراء .

ودفن الحسين والحسن في مدينة كربلاء ، ثم اقيم مع مرور الايام مسجد كبير فوق قبر الحسين ، وعلى بعد مائتي مترا منه ، مسجد آخر فوق قبر الحسن . وفي المذهب الشيعي لا تتم مراسيم الحج الا بعد زيارة مسجد الحسين والحسن في كربلاء ، ومسجد علي بن ابي طالب في النجف الاشرف . وتسمى هذه الاماكن بالعتبات المقدسة . ولا يزال معمولا بهذه الزيارات حتى يومنا هذا .

واستمرت ثورات الشيعة في زمن خلفاء بني عباس ، وهددت سلامة الدولة العباسية في كثير من الاوقات ، غير ان خلفاء بني العباس قضوا على تلك الثورات بكل شدة وعنف . فاضطر اصحاب هذا المذهب ، امام اضطهاد العباسيين وابطشهم ان يلجأوا الى نشر دعوتهم في الخفاء والتكتم ليتقوا شر العباسيين . فاتخذوا ملاجئ سرية يجتمعون فيها ، وقام دعائهم بنشر مذهبهم في سائر الانحاء ، متخفين في زي تجار وعلماء ومتصوفة وغيرهم من اصحاب المصالح المشروعة ، ليبعدوا الشبهة عنهم . وقد تعددت فرق الشيعة التي تطالب بالخلافة ، وهي ان اختلفت في المظهر الا انها اتفقت جميعا في حصر الخلافة في آل علي بن ابي طالب .

اتخذ اصحاب مذهب الشيعة منذ نشأته الاولى اتجاها مضادا للعصبية العربية ، وكما أنهم في المشرق اعتمدوا على الموالي من الفرس ، فكذلك في المغرب

العربي في شمال افريقيا ، اعتمدوا على الموالي من البربر سكان تلك البلاد .
ولما كانت بلاد المغرب بعيدة جدا عن السلطة العباسية المركزية في بغداد ، مما
جعل من الصعب على الخلفاء العباسيين فرض رقابتهم التامة على تلك البلاد التي
اصبحت تربة خصبة لبث الدعوة الشيعية .

وتعاقب على المغرب العربي ، عدة دويلات متفرقة ، تحاربت فيها بينها مرارا ،
فكان بعضها يتحد مع بعضه ثم يعود فيتفرق ، حتى انتهى الامر بتوحيد معظمها
وعلى رأسها الخليفة الفاطمي العباس المنصور سنة ٣٣٤ هـ - ٩٤٦ م . وكان
هذا الخليفة حازما ، فاستطاع ان يقود جيوشه الى النصر التام في وقعة مشهورة
عرفت في التاريخ باسم وقعة يوم الجمعة . وكان هذا الانتصار في يوم الجمعة الموافق
٧ محرم ٣٣٥ هـ الموافق اب ٩٤٧ م .

وفي عهد الخليفة الفاطمي ابو تميم معد ، الملقب بالمعز لدين الله الفاطمي
(٣٤١ - ٣٦٥ هـ الموافق ٩٥٢ - ٩٧٥ م) ، استطاع ان يخضع المغرب الاقصى
لنفوذ الفاطميين ، وبذلك تم له توحيد جميع المغرب تحت سلطانهم .

لقد فكر الفاطميون منذ قيام دولتهم بالمغرب ، في غزو الاندلس غربا ، كما
فكروا في غزو مصر شرقا . فمهدوا لتحقيق آمانيهم هذه بالدعاية الشيعية من جهة ،
وبالجاسوسية من جهة اخرى لمعرفة احوال تلك البلاد ومواطن الضعف والقوة
فيها . وكان يقوم بتلك المهمة دعائهم وجواسيسهم الذين كانوا يخفون اهدافهم
الحقيقية بستر من المصالح المشروعة كالجارة والعلم وغيرها .

امتداد الدولة الفاطمية في مصر

كان في طبيعة الاسباب الداعية الى اهتمام الفاطميين بامتلاك مصر منذ بداية
قيام دولتهم بالمغرب ، لما تمتاز به من موقع جغرافي فريد في قلب العالم العربي ،
يتيح لهم فرصة الاستيلاء على المراكز الاسلامية القديمة ، مثل مكة والمدينة
ودمشق ، وحتى بغداد نفسها حاضرة الخلافة العباسية المعادية لهم .

ولقد بدأت حملات الفاطميين على حدود مصر الغربية منذ ايام خليفتهم الاول
عبيد الله المهدي . ويلاحظ ان هذا الغزو يعتبر فريدا في نوعه ، لان مصر كانت
تغزى من الشرق عن طريق غزة ورفح وصحراء سيناء . ولم يسبق ان فتحت
مصر من حدودها الغربية حتى ذلك الحين الا في ايام الفراعنة حينما غزاها الليبيون
قديما من منطقة غربا ، ايام الاسرتين ٢٢ ، ٢٣ .

ارسل الفاطميون ثلاث حملات لغزو مصر :

الاولى سنة ٣٠١ هـ اي ٩١٢ م.

والثانية سنة ٣٠٧ هـ اي ٩١٨ م.

والثالثة سنة ٣٢٢ هـ اي ٩٣٣ م.

وكانت هذه الحملات برية وبحرية في ان واحد ، اي ان الاسطول كان يسير في محاذاة الجيش في البحر . وكان الاسطول الفاطمي قد اتسع وصار يحسب له كل حساب من الدول الاخرى في حينه . وقد استغرقت كل حملة من هذه الحملات الثلاث مدة سنتين على الاقل ، كانت في كل مرة تستولى خلالها على مدينة الاسكندرية وبعض اقاليم مصر الوسطى كالفيوم وما حولها . وتعيش على ما تأخذه من أهالي تلك البلاد من اقوات ومؤن . ثم يقوم العباسيون بمهاجمة الفاطميين وردهم على اعقابهم . وقد فشلت هذه الحملات الثلاث لان الخلافة العباسية في ذلك الوقت كانت من القوة بحيث كانت تستطيع ان تصد تلك الحملات وتكبد المهاجمين الخسارة الجسيمة بالارواح والمعدات .

مثل هذه الحملات وغزو مصر من الغرب الى الشرق تكررت في سنوات ١٩٤٠ - ١٩٤٢ م اثناء حرب دول المحور ضد بريطانيا ، عندما استطاع القائد الالماني رومل من دحر القوات البريطانية من ليبيا حتى موقع العلمين قرب الاسكندرية في هجوم كاسح برا وبحرا وجوا .

وكان واليا للعباسيين على مصر المدعو محمد الاخشبيد فاتصل به الخليفة الفاطمي بواسطة رسله ، محاولا استمالته اليه ضد الخليفة العباسي . وذكر بعض المؤرخين ان محمد الاخشبيد فكر فعلا في الدعاة للفاطميين حينما دب النزاع بينه وبين الخليفة العباسي الراضي ، الا انه عاد وعدل عن هذه الفكرة خوفا على مركزه السياسي في مصر .

وفي عهد الخليفة المعز لدين الله الفاطمي ، قام الفاطميون بمحاولة رابعة ناجحة لغزو مصر بقيادة قائدهم جوهر الصقلي ، وكان هذا القائد في الاصل مملوكا من جزيرة صقلية قرب ايطاليا ، التي كانت في ذلك العهد تابعة للحكم الفاطمي فنسب اليها . وظل يترقى عنده حتى صار قائده وكتابه ايضا . وقد توفى هذا القائد في حملته واستولى على كامل القطر المصري ، وبذلك سلخه عن الحكم العباسي واصبح تابعا لسلطة الفاطميين . ثم اتجه الفاطميون الى فلسطين وسوريا وما حولها واصبحت بيت لحم والقدس خاضعة لسلطانهم ، ولهذا رايت اتماما للفائدة التحدث عن العهد الفاطمي في فلسطين .

العصر الفاطمي الاول

يشمل العصر الفاطمي الاول الخلفاء النالية اسماؤهم :

- ١- المعز لدين الله ابو تميم معد « ٣٤١-٣٦٥ هـ - ٩٥٢-٩٧٥ م » .
- ٢- العزيز بالله ابو منصور نزار « ٣٦٥-٣٨٦ هـ - ٩٧٥-٩٩٦ م » .
- ٣- الحاكم بأمر الله ابو علي المنصور « ٣٨٦-٤١١ هـ - ٩٩٦-١٠٢٠ م » .
- ٤- الظاهر لاعزاز دين الله ابو الحسن « ٤١١-٤٢٧ هـ - ١٠٢٠-١٠٣٥ م » .
- ٥- المستنصر بالله ابو تميم معد « ٤٢٧-٤٨٧ هـ - ١٠٣٥-١٠٦٤ م » .

فلسطين في زمن الفاطميين

في زمن الدولة الفاطمية تنفست المسيحيون الصعداء واصطلحت أمورهم واتسعت ثرواتهم وراجت تجارتهم حيث تيسرت لهم الحرية والامن ورمموا ما دمر او هدم من الكنائس في المدة السابقة . وكان بطريرك القدس في وقتها يدعى اغاثون خريثوذوكس الثاني الملقب بـ « اغانيوس » . فقام هذا البطريرك بتصليح ابواب كنيسة القيامة المحروقة وبعدها سافر الى مصر مقر الفاطميين ليستحصل على رخصة لاعادة بناء كنيسة القيامة ، ولكنه توفي في مصر وخلفه توما الثاني الذي تم ما باشر به سلفه ، فاعاد بناء كنيسة القيامة والابنية التي احترقت في القدس .

١- المعز لدين الله ابو تميم معد

وصل المعز الى مصر سنة ٣٦٢ هـ اي ٩٦٣ م ، وتوفي في القاهرة سنة ٣٦٥ هـ اي ٩٧٥ م . فهو لم يمكث فيها اكثر من سنتين ونصف . وغير انه مع قصر هذه المدة استطاع ان يقوم بكثير من الاصلاحات

كان المعز كذلك صاحب براعة وفصاحة في اللغة العربية ، يحب الكلام في الجموع المحتشدة سواء كانت من المصلين في ايام الجمعة والاعياد او من المهنيين في قصره في مختلف المناسبات . ويقال انه كان يتقن خمس لغات اخرى ، كالبربرية والسلافية والرومانية .

وقد اهتم المعز بنشر الدعوة الاسماعيلية ، ووضع لذلك نظاما دقيقا كي يسير عليه دعواته في انحاء البلاد . كذلك كان المعز نفسه يؤلف الرسائل

والمحاضرات وبيعت بها الى قاضي قضاته ابي حنيفة النعمان بن حيون كي يلقيها على الناس في الجامع الازهر ، المقرر الرئيسي للدعوة الفاطمية .

واهم عمل اهتم به المعز هو العناية بتقوية اسطوله وبحريته . ولا شك ان مركزه الجديد في شرق حوض البحر المتوسط بعد احتلال مصر قد فرض عليه هذا العمل . وانشأ لهذا الغرض في مصر دور الصناعات المختلفة لبناء السفن الحربية . وكان الخليفة يشاهد بنفسه حفلات توديع الاسطول واستقباله ليبارك رجاله وينعم على المتفوقين منهم . وقد خصص المعز للاسطول ديوانا خاصا للإشراف على شؤونه يسمى بديوان العماير او الجهاد . فالمعز هو أول من وضع نظام البحرية الفاطمية في مصر ، وسار على منواله من جاء بعده من الخلفاء .

٢- العزيز بالله أبو منصور نزار

ولما توفي المعز لدين الله أبو تميم خلفه ابنه العزيز بالله ، وكان قد ولد بمدينة المهدية في المغرب ثم رافق أباه الى مصر وكان عمره وقتئذ ثمانية عشر عاما ، ثم ولي الحكم وهو في الثانية والعشرين من عمره ، على أيامه بلغت سلطة الفاطميين أوجها ، وخففت رايته على الاقطار الواقعة بين المحيط الاطلسي والبحر الاحمر واليمن والحجاز والشام وفلسطين وهكذا أصبحت بيت لحم والقدس خاضعة لسلطانه .

وقد امتاز العزيز بحلمه الكبير الذي كثيرا ما دفعه الى الصفع عن أعدائه رغم انتصاراته عليهم . كذلك امتاز بكرمه ووجهه الخير لرعيته والسهر بنفسه على استتباب الأمن . كذلك اشتهر العزيز بتسامحه الديني وعطفه الشديد على أهل الذمة الى درجة تذر لها المسلمون ، وذلك انه أكثر من استخدام الموظفين النصارى واليهود ورفع بعضهم الى أرقى مناصب الدولة مثل منشأ اليهودي ، وميسى بن نسطوريوس النصراني الذي عهد اليه بمنصب الوزارة . ويعزي بعض المؤرخين ان ذلك العطف راجع الى حد كبير الى زواج العزيز بسيدة مسيحية هي أخت بطريك الاسكندرية والقدس الملكانيين . وبعض المؤرخين يعزي اختياره كبار موظفيه من أهل الذمة ان العزيز كان يختار موظفيه من كان من خير الرجال كفاءة وأمانة بصرف النظر عن عقيدته ، أي حسب النظرية الحديثة في الإدارة بأن يوضع الرجل المناسب في المكان المناسب .

كذلك كان العزيز رجلا عالما محبا للعلم والعلماء غيروي المؤرخون انه كان شاعرا وله شعر جيد ، كما يعتبرونسه أول من جعل الدراسة في الازهر دراسة جامعية منتظمة . والواقع ان الفصل في تحويل الازهر من جامع الى جامعة لا يرجع الى العزيز وحده وانما يرجع أيضا الى وزيره يعقوب بن كلس .

ويعتقوب هذا كان في الاصل يهوديا من يهود العراق ، اثنى عشر بالتجارة ، ورحل الى الشام ثم الى مصر سنة ٣٣٤ هـ ، حيث اتصل بكافور الاخشب ونال اعجابه . وفي اواخر ايام كافور سنة ٣٥٦ هـ اعتنق يعقوب الاسلام ، فخلع عليه كافور وقربه اليه .

وقد اثار هذا العمل حسد الوزير جعفر بن الفرات فعمل على اقصائه ، وخاف يعقوب على نفسه من عداة ابن الفرات خصوصا بعد موت كافور ، فهرب الى بلاد المغرب حيث اتصل بالخليفة المعز الفاطمي وحرضه على غزو مصر ، فجاء اليها في سنة ٣٦٢ هـ كما سبق وذكرنا في بداية هذا الفصل ، فظل في بلاطه حتى عاد معه الى مصر . وقد ولاه المعز شؤون البلاد المالية مثل الخراج وغيرها ، فقام بمهمته خير قيام وزادت موارد الدولة المالية في عهده . ولما ولي العزيز مكان ابيه عين يعقوب وزيرا له سنة ٣٦٨ هـ ، ولقب بالوزير الاجل وامر بالا مخاطبه ولا يكتبه احدا الا بهذا اللقب . ويعتبر العزيز بهذا العمل اول خليفة فاطمي اتخذ له وزيرا .

٣- الخليفة الحاكم بأمر الله

وبعد وفاة البطريق توما قسام بعده البطريق يوسف ، وكان فيلسوفا في الطب ، وفي زمنه في سنة ٩٩٦ استلم زمام الخلافة الحاكم بأمر الله ، وكان هذا الخليفة في بدء خلافته رجلا صالحا ذا اخلاق كريمة ورحمة لرعيته ، فعاشت الرعية في حبوكة من الرغد والصفاء وخصوصا المسيحيون . ولكن يا للأسف ما لبث ان ظهر في اخلاق هذا الرجل ما يسمى تناقض الشخصية ، فبعد ان كان مستقيما وصالحا أصبح فجأة شيطانا رجيا ، ولم يذكر التاريخ شيئا له ، الا وشبهه باخلاق طاغية روما نيرون ، وبالحقيقة فان الحاكم بأمر الله أصبح في حالة من القسوة والفظاظة صغرت امامها قسوة نيرون وغيره من الطغاة .

وكان هذا الحاكم من أم نصرانية ، هي أخت بطريق القدس « ارتيس » تزوج منها والده العزيز بالله ثاني خلفاء الفاطميين سنة ٩٨٤ م . فولدت له الحاكم بأمر الله . وكان للعزيز وزير قبطي هو ابو اليمان قزمان بن مينا ، وكان يسكن القدس في دير السلطان من أملاك الاقباط . وكان هذا القبطي مكلفا بجمع المال من الحجاج لحساب الفاطميين وتوريده « للخزائن الشريفة » ، أي الى وزير مال السلطان في القاهرة . وحين نشب القتال بين مفرج الجراحي أمير عرب فلسطين والفاطميين ، هرب قزمان القبطي بالمال الى القاهرة ومعه أكثر من مائة ألف دينار .

وظهرت في هذه الاونة تناقضات كثيرة للحاكم بأمر الله في القدس ، فقد أخذ يضطهد اليهود والنصارى على السواء ، ويمنعهم من ركوب الخيل وأمرهم بركوب الحمير فقط بشرط أن تكون سروجها من خشب وأن تكون وجوههم الى الوراء .

لم يتمكن هذا الخليفة من تنفيذ ذمأه ونفت سمه في العالم الاسلامي حيث كان يوجد كثيرون من هم اقوى من نفسه فردعوه . فحول قوته الشريرة نحو المسيحيين واليهود ، وفرض عليهم أشد الاضطهاد والعذاب في مختلف المناسبات . وفي سنة ١٠٠٩م أمر الخليفة الحاكم بأمر الله بإحراق كنيسة القيامة وذبح البطريرك والرهبان في يوم عيد الفصح . ولكن بعد فترة هدأت أحواله العصبية ، فأمر بإعادة بناء كنيسة القيامة من ماله الخاص ، وأمر من أسلموا من اليهود والنصارى أن يعودوا لدينهم لأنه لا إكراه في الدين ، وأباح لمن هرب من القدس بالعودة اليها .

اختلف المؤرخون في وصف شخصية الحاكم بأمر الله ، فقد كان شاذاً جداً في تصرفاته وأنه جمع بين صفات متضاربة متناقضة ، أي أن شخصيته لا يمكن أن تقاس بمقياس منطقي معقول ، فكان يأمر بشيء في الصباح ويصدر أمراً آخر مضاداً له في المساء ، فكانت أفعاله لا تعلل وسياسته لا تأول ، فكان يحب العلم ويضطهد العلماء .

يؤخذ على الخليفة الحاكم بأمر الله أنه كان سفاكاً للدماء بسبب أو لغير سبب ، بينما ذكر بعض المؤرخين أنه لم يقتل أحداً إلا لسبب وجيه ، وذكروا أمثلة على ذلك :

١- قتل الحاكم قاصب الحسين بن علي النعمان وأحرقه بالنار عندما ثبت لديه أن هذا القاضي قد مد يده الى أموال اليتامى رغم المرتب الضخم الذي كان يتقاضاه كي لا يتعرض لأموال الرعية .

٢ - قتل الحاكم قاضيه مالك بن سعيد الفارقي بسبب الشائعات التي ترددت عن اتصاله باخته ست الملك ، ولما واجهه بهذا أنكرها ولكن الحاكم بأمر الله اقتنع بكذبه ، فقتله لكذبه ولل قضاء على الشائعات ، وذلك سنة ٤٠٥ هـ أي ١٠٠٦م .

٣- قتل الحسين بن جوهر الصقلي بسبب مجالس الشراب التي أقامها في قصره المطل على النيل والتي كان من نتائجها أن مات أحد ضيوفه غرقاً في النيل أثناء خروجه من عنده وهو ثمل ، وكان هذا الغريق هو الطبيب أبو يعقوب بن نسطاس صديق الحاكم وطبيه ، وقد أثار هذا الحادث غضب الحاكم وشكوكه ، فاتهم الحسين بن جوهر بقتله . وعلى الرغم من أن الحسين بن جوهر أقسم ببرائته من دم هذا الطبيب إلا أن الحاكم أمر بقتله ، مما يدل على أن هناك ظروفًا مختلفة تمت فيها حوادث القتل ، وأن الحاكم لم يسفك الدماء لمجرد الرغبة في القتل .

وعن الخليفة الفاطمي بأمر الله ، ذكر المرحوم خليل قزقيا في كتابه تاريخ الكنيسة الارثوذكسية انه جاء في سجل خطي محفوظ في بطريركية الروم الارثوذكس في القدس بخصوص هذا الخليفة ما يلي : « في ١٨ اكتوبر سنة ١٠٠٩م قام الملك الظاهر الملقب الحاكم بأمر الله باحراق كنيسة القيامة ليس لكونه سمع بسان عجيبة ظهور النور يوم السبت السذي يسبق عيد الفصح ليست حقيقية كما يذكرون ، لانه لم يكن يهمه هذا اذ بسبب هذه العجيبة فقد كان الاجتماع السذي يصير في وقت ظهوره بوصول الاف الحجاج والزوار الى القدس من سائر الانحاء ، كان الخليفة يملأ جيوبه بالذهب مما يجمع على شكل رسوم واثارات ، فيكون مصدرا وحيدا لثروة فعالة . انما السبب في احراق الكنيسة ونهبها هو ان الخليفة فيها كان ذاهبا لمحاربة سوريا استأمر شابا ابنا ل احد سرة المسيحيين وابقاه في القدس رهينة عند البطريك ، لكن البطريك فيها بعد اخلى سبيله رحمة به وشفقة على والديه وعندما طلب الخليفة من البطريك ذلك الشاب في وقت لاحق ادعى البطريك ان الشاب مريض ومات .

وبينما كان الشاب في طريقه الى والديه القى القبض عليه ثانية فغضب الحاكم بأمر الله وعند عودته الى القدس استدعى البطريك وأمر بقطع رأسه فقط . أما باقي الاكليروس والرهبان فأمروا بجلدهم ثم قطع السنتهم وقتلهم واحرق كنيسة القيامة ونهب جميع الاواني الفضية والذهبية وكل ما وجد في ذات قيمة . وقد نجل المؤرخون العرب من ذكر هذه الحوادث في تاريخ الحاكم بأمر الله

وقد امتد غضبه حتى وصل اذاه الى فيونيسيوس بطريك الاسكندرية ، الذي كان الخليفة الحاكم بأمر الله قد اتخذ اخته زوجة له . وفي رجوعه الى مصر كان يهدم جميع الكنائس والاديرة التي كانت تعترض طريقه . أما الرهبان فكان يقتلهم بعد عذابات فظيعة ، ويفيد التاريخ ان شر وحشية هذا الخليفة الطاغية قد عم انحاء فلسطين الى مصر الى البحر الاحمر حتى معظم انحاء سيناء . . .

وعلى نحو ما تقدم نهب جميع الاواني المقدسة واتلفت وهدمت الكنائس وهلك خلق كثير من المسيحيين ، واصدر الحاكم بأمر الله امره بابطال الاحتفال بأحد الشعانين الذي كان يقام قبل عيد الفصح بأسبوع ، من العيزرية حتى داخل القدس في كل عام باحتفال مهيب . وكذلك منع كل الاحتفالات الدينية في القدس ، وهرب كثيرون من المسيحيين وشتوا في القفار وفي جميع انحاء العالم ، ناشرين ما كان يقع عليهم من العنف والجور والاضطهاد .

- ولما علم الحاكم بأمر الله ان المسيحيين كانوا يرحلون الى بلاد اليونان هربا من الظلم ، وانهم كانوا يرششون المحافظين على الحدود ليسمحوا لهم

بالمرور . عندها أصدر امرا ملكيا سنة ٤٠٤ هـ - ١٠١٣ م . اطلق بموجبه الحرية لمن شاء من المسيحيين انه يهاجر مع عباله . ولم يكن يمنع المهاجرة حتى للمسيحيين الذين اسلموا وكانوا يخدمون لديه في قصره . وهذا الامر يسري على اليهود ايضا .

وبعد سنوات قليلة تغير شعور الحاكم بأمر الله نحو المسيحيين فآخذ يعاملهم بروح التساهل واللفظ ، فامر بارجاع جميع ما اغنصبه من أموال وأملاك وأوقاف للأديرة او للأفراد من المسيحيين ، وأعطاهم حرية العبادة والعبادة وسمح لهم بالاحتفال بأعيادهم وقرع الاجراس فوق كنائسهم وبإقامة الصلوات العمومية .

قتل الخليفة الحاكم بأمر الله في سنة ٤١١ هـ أي ١٠٢١ م ، في ظروف غامضة وقد اختلفت الروايات حول من قتله وكيفيته مقتلته ، وان كانت القرائن تدل على انه ست الملك بالاشنراك مع شيخ قبيلة كتامة المغربية واسمه الحسن ابن دواس .

كانت ست الملك امرأة ذكية ذات اطباع سياسية كبيرة ، وكانت تخشى على نفسها من بطش أخيها الحاكم خصوصا بعد ان هدها بالقتل واتهمها في اخلاقها وتشد عليها الرقابة . فقامت ست الملك بالجوعسرا الى العناصر الناقصة على الملك ، ووقع اختيارها على زعيم قبيلة كتامة في مصر ، الذي كان ساخطا على الحاكم لانه اهل جانب المغاربة واستمال جانب السودان .

وقد ساعد في تنفيذ المؤامرة ، كثرة خروج الحاكم اثناء الليل ، وطوافه بالمناطق المنعزلة في جنبات جبل المقطم خارج مدينة القاهرة لرصد النجوم ، وكان يصحبه في العادة رجل او اثنان من الركابية . وقد اختفت جثته اختفاء تاما مما جعل بعض الغلاة الذين الهوه يعتقدون انه رفع الى السماء وانه سيعود بعد اختفائه ليصلح العالم . ويضيف بعض المؤرخين ان ست الملك تخلصت من المتآمرين معها ، فدفنت من قتل ابن دواس بتهمة قتل الحاكم ، كما قتلت العبيد الذين اتهموا بقتل الحاكم ، وهكذا اختفى سر الجريمة مع مرتكبيها . ومع ذلك فان بعض المؤرخين امثال المقرئ والمسبحي ينفيان المسؤولية عن ست الملك ويلقيانها على عاتق بعض الفدائيين الذين كانوا يخالفون الحاكم في عقيدته الدينية ، وكانوا حاقدين عليه كثيرا ، ويتحينون الفرص للتخلص منه .

والواقع ان شخصية الحاكم بأمر الله ، شخصية غامضة ومحيرة ، سواء في حياته او مماته . وقد اتهمه البعض بالجنون ، ووصفه البعض الآخر بالعقري ، والاكثرية تميل الى الاخذ بالرأي الثاني القائل بعقريته ، الا انه

كان في نفس الوقت مصابا بالمرض العقلي الذي تدل عليه بعض اعماله وتصرفاته . فهذا الحاكم كان من اولئك المرضى العباقرة الذين يثمر مرضهم العقلي العبقريّة .

٤- الظاهر لاعزاز دين الله ابو الحسن علي

لم يتول الخليفة الظاهر الحكم مباشرة بعد اختفاء ابيه ، بل ظلوا نحو من شهر على أمل عودة الحاكم . فلما تحقق الناس من موته أقاموا ولده الظاهر وكان لا يزال صبيا عمره ١٦ سنة . فقامت عمته ست الملك بالوصاية عليه في أول عهده ، وظهرت كفاءة ممتازة في إدارة شؤون الدولة والبلاد الى أن توفيت سنة ٤١٥ هـ أي ١٠٢٤ م .

بعد وفاة ست الملك انتقلت السلطة الى يد فئة من كبار رجال الدولة يتكون من الوزير الجرجرائي ، والشريف العجمي والقائد معضاد أمير الجيش . وبقي الخليفة في عزلة تامة عن رعيته وبعبدا عن الحكم ، لا يستطيع أحد من رجال الدولة الوصول اليه غير هؤلاء الثلاثة . وأصبح الحكم بيد أقلية من رؤساء الإدارة والجيش . وهذا الوضع يعد تهيدا لما عرف بعد ذلك الحين بعصر الوزراء في الدولة الفاطمية .

وهكذا كانت خلافة الظاهر خلافة ضعيفة كثر فيها المتغلبون على الحكم ، وهذا راجع الى صغر سنه من ناحية ، وضعف صحته من ناحية أخرى ، هذا بالإضافة الى تفشي الامراض والجفاف في عهده ، فسادت المجاعة في مصر .

وفي زمن هذا الخليفة انتهز البيزنطيون فرصة الاضطرابات التي سادت الشام ، فقاموا بعدة غارات على البلاد الشامية مما اضطر الخليفة المستنصر بالله الى ابرام هدنة مع الامبراطور قسطنطين الثامن سنة ٤١٨ هـ - ١٠٢٧ م تنص على اعادة بناء كنيسة القيامة في بيت المقدس التي كان الحاكم بأمر الله قد هدمها ، وترك الحرية لمن اعتنق الديانة الاسلامية في عهد الحاكم بالعودة الى دينهم القديم . وفي مقابل ذلك تعهد الامبراطور البيزنطي بتجديد بناء جامع القسطنطينية واقامة الخطبة فيه للخليفة الفاطمي . ومن المعروف ان هذا المسجد بناه اول الامر مسلمة بن عبد الملك سنة ٩٦ هـ أي ٧١٤ م في خلافة الوليد بن عبد الملك على اثر صلح بين البيزنطيين والعرب ، ينص على بناء مسجد في القسطنطينية ، كي يصلي فيه المسلمون من التجار وارباب الحرف وغيرهم ، المقيمين والمارين بالعاصمة البيزنطية ، ثم لم يلبث البيزنطيون بعد ذلك ان استغلوا هذا المسجد في مساومتهم السياسية مع الدول الاسلامية المجاورة فتارة يخطبون فيه للعباسيين ، وتارة أخرى للفاطميين ، وتارة يعمدون الى

هدمه ، وتارة أخرى يعيدون بناءه . فكانت تصرفات البيزنطيين حسب الظروف والاحوال التي تمر بها رعايا المسيحيين "مؤسسانهم الدينية في البلاد الاسلامية .

وقد شغلت المشاكل الداخلية الدولة الفاطمية عن الاهتمام بمشاكلها الخارجية في ذلك العهد ، فاضطربت الحالة في الشام وخرج بعض الامراء عن طاعة الفاطميين واستقلوا عنهم وقد استطاع احد هؤلاء الامراء واسمه صالح بن مرداس ان يؤسس دولة مستقلة في حلب ، وهي الدولة المرانسية سنة ٤١٤ هـ أي ١٠٢٥ م .

٥ - المستنصر بالله أبو تميم معد

وتوفي الخليفة الظاهر سنة ٤٢٧ هـ أي ١٠٣٥ م ، وخلفه ابنه المستنصر الذي كان هو الآخر طفلاً في السابعة من عمره ، فتولت أمه السلطة باسمه في بادئ الامر ، ثم انتقلت السلطة بعد ذلك الى يد أمير الجيوش بدر الجمالي ، نتيجة لازِمات اقتصادية وسياسية خطيرة سادت الدولة الفاطمية ، في ذلك العهد . فجمع بدر الجمالي بين يديه سلطتي السيف والقلم ، أي رئاسة الجيوش والوزارة ، ثم اورثها لغيرته من بعده ، فآثر بذلك عهد الوزراء العظام .

امتد عهد هذا الخليفة ستين سنة ، فهو أطول حكم عرف في التاريخ الاسلامي ، وقد قسم المؤرخون عهد المستنصر الى فترتين :

الاولى عهد مظمة الخلافة الفاطمية من سنة ٤٢٧ هـ — ٤٥٠ هـ أي ١٠٣٥ م — ١٠٥٧ م . وتمتاز هذه الفترة بمظمة الخلافة الفاطمية واستقرار الاحوال في مصر ، وتمتعها بكثير من الطمانينة والرخاء ، واتساع نفوذها في الشرق الاسلامي . وامتازت هذه الفترة بمهارة الوزراء وحسن سياستهم .

والفترة الثانية : عرفت باسم فترة ضعف الخلافة الفاطمية وتمتد من سنة ٤٥٠ — ٤٨٧ هـ أي ١٠٥٧ — ١٠٩٤ م أي حتى نهاية خلافته . وفي هذه الفترة انتقلت السلطة من يد الخليفة وامه الى ايدي وزراء السيف ، بسبب عدة ازِمات سياسية واقتصادية سادت البلاد في هذه الفترة .

وقد ساعد على تفاقم الحالة ضعف الحكومة وعدم وجود وزراء اقوياء مثل وزراء الفترة الاولى من خلافة المستنصر ومن ثم صاروا يعينون ويعزلون بعد أيام معدودات من توليهم الحكم بسبب ضعفهم . عندئذ اضطر الخليفة المستنصر الى الاستنجاد بوالي عكا أمير الجيوش بدر الجمالي الارمني الاصل . فطلب منه القدوم الى مصر لتنظيم امورها واصلاح ما فسد فيها . ورحب بدر الجمالي بذلك ودخل مصر في جيش كبير من الارمن سنة ٤٦٦ هـ أي ١٠٧٧ م . فعين وزراء وقادة جددا ممن توسم فيهم المقدرة والاخلاص وقبض على زمام الامور بيد من حديد . كما

أعفى الفلاحين من الخراج ثلاث سنين بسبب القحط لكي تنحسن أحوالهم . وقد خلع عليه الخليفة المستنصر خلعة الوزارة ، إلى جانب أمرة الجيوش سنة ٤٦٨ هـ أي ١٠٧٧ م . فصارت في يده كل أمور الدولة .

ومنذ أن تولى بدر الجمالي الأمور ، حتى أخذت الوزارة معنى آخر غير معناها القديم ، إذ تحولت من وزارة تنفيذية إلى وزارة تفويض ، بمعنى أن الخليفة فوض إلى الوزير جميع سلطاته التنفيذية والحربية والتشريعية ، فأصبح الوزير بذلك هو الرئيس الأعلى والرئيس الفعلي للدولة ، بينما بقي الخليفة رمزا اسميا للخلافة .

كذلك تلقب وزراء هذه الفترة الثانية بالقاب الملك فلان ، والملك العادل فلان ، وهكذا ، وقد استمرت هذه الحالة بعد ذلك أيام الإيوبيين والمماليك . وهكذا صار الوزير في أواخر العهد الفاطمي هو القوة المحركة لسياسة الدولة ، وبيده وحده أمور السلم والحرب ، بدون أي رجوع إلى الخليفة أو استشارته في أي شيء منها .

توفي بدر الجمالي سنة ٤٨٧ هـ أي ١٠٩٤ م ، ثم توفي بعده بأشهر قليلة الخليفة المستنصر بالله . وخلف الأول في الوزارة ابنه القاسم شاهنشاه « أي ملك الملوك » الملقب بالافضل . وخلف الثاني في الخلافة ابنه المستعلي .

وفي أيام الافضل جاء الصليبيون في حملتهم الأولى التي اجتاحت فيها بلاد الشام وفلسطين ، وأسسوا فيها أماراتهم الصليبية المعروفة في أنطاكية وطرابلس الشام والرها وبيت المقدس . وكانت بيت المقدس وقتئذ خاضعة لنفوذ الفاطميين الذين هجروا عن أنقاذها من هجمات الصليبيين فسقطت في أيديهم سنة ٤٩٢ هـ أي ١٠٩٩ م .

وخرج الافضل من مصر لقتال الصليبيين ، فالتقى بهم عند مدينة عسقلان لكنه هزم أمامهم بهزيمة منكرة لتفوق عددهم وعنادهم . فارتد الافضل بجيوشه إلى مصر ، وقد ارتبكت أحواله بعد هذه الهزيمة لدرجة ساورته الشكوك والمخاوف من جميع من كان حوله ، سواء من جنوده وقائتهم الذين خذلوه في القتال ، أو من الخليفة المستعلي الذي بلغ الثامنة والعشرين من عمره ويريد التخلص من نفوذ الافضل وسيطرته ، ولذا عمد الافضل إلى تغيير حرسه واستبداله بجنود جدد .

كذلك عمل الافضل على التخلص من الخليفة المستعلي ، فدس له من قتله بالسهم سرا سنة ٤٩٥ هـ أي ١١٠٢ م . وولى مكانه ابنه الأمر بإحكام الله الذي كان طفلا في الخامسة من عمره . وقد حكم هذا الخليفة من سنة ٤٩٥ هـ — ٥٢٤ هـ أي ١١٠٢ — ١١٣٠ م . واستمرت المنازعات في الدولة الفاطمية حتى قيام الدولة الأيوبية ، وسقوط الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ أي ١١٧١ م .

دولة السلجوقيين

السلجوقيون اخلاط من الترك ، انهم اصل الاتراك العثمانيين . كان في مقدمتهم رجل اسمه « دقاق » وهذا انجب « سلجوق » ، وقد اسلم وعاش في انحاء بخارى ، وكان يغزو الترك . ولما توفي ترك ثلاثة اولاد : ارسلان ، ميكائيل ، وموسى . وخلف ميكائيل بيغو وطغرل واينال وجفري وداود .

عظم امر طغرل بك من هؤلاء الامراء ، وكان محاربا شجاعا ، فملك جرجان وطبرستان وخوارزم وهمذان والدينور . وقد هادن ملك الروم ، فعمر مسجد القسطنطينية الذي سبق ذكره في فصل سابق ، واقام فيه الصلاة والخطبة لطغرل بك .

ثم دخل طغرل بك بغداد في سنة ٤٤٧هـ - ١٠٥٥م ، ولقب بالسلطان ركن الدين ابي طالب محمد طغرل بك بن ميكائيل بن سلجوق . وكان في بغداد يومئذ الخليفة العباسي القائم بأمر الله ، فأبقاه ، ولكنه قبض على الملك الرحيم ابي نصر وعلى قواده ، وأزال دولة بني بويه .

ولما توفي السلطان ركن الدين محمد طغرل بك بن سلجوق تولى الملك من بعده ابن اخيه عضد الدولة أبو شجاع محمد الب ارسلان بن جفري بك ، ففتح هذا حلب ، وهزم الروم ، وكان جيشه لا يقل عن اربعمائة الف مقاتل . ثم استولى الب ارسلان على القدس والرملة سنة ٤٦٥هـ - ١٠٧٢م ، أخذها من خلفاء مصر الفاطميين ، وخطب للخليفة للقائم بأمر الله العباسي . واتسع ملكه حتى امتد الى الصين شرقا والى أقصى اليمن في الجنوب .

ولما مات الب ارسلان تولى بعده ولده جلال الدولة ابو الفتح محمد ملك شاه ولقب بالسلطان العادل . وفي عهد هذا السلطان ثار أهل بيت المقدس على الوالي في سنة ٤٧٠هـ - ١٠٧٧م ، فأرسل اليهم جيشا بقيادة قائده « اتسو بن أوق » الخوارزمي . فحاصر هذا بيت المقدس ، ففتحها عنوة ونهبها وقتل أهلها .

وكان هذا القائد اتسو بن أوق الخوارزمي التركماني ظالما ، حتى خلت البلاد من قاطنيها ، فساد الجوع واشتد الغلاء ، ومنع الاذان « حيي على خير العمل » . وكان يعتقل الناس ويعذبهم فيفتدون أنفسهم بمال يؤدونه له . وقد أدت أفعاله هذه الى قيام ثورة ضده في بلاد الشام ، ثم سرت الى فلسطين .

ومن عمال ملك شاه الذين نولوا اداره بيت المقدس الامير « ارتق بسن اكسك » التركماني . فقد كان هذا الامير قبل ان يتولى ادارة القدس ، من مماليك ملك شاه ، عمل تحت امرته ، ثم سار الى تنس . وقيل انه كان زعيما للقبائل التركمانية التي اخرجها السلجوقيون من ضواحي بحر قزوين ، وساقوهم الى سوريا فانتشروا فيها وفي فلسطين . وقد استولى على بيت المقدس بحد السيف ، وأسس فيها دولة عرفت بدولة الارتقيين سنة ٤٧٠هـ — ١٠٧٧م في بيت المقدس وسائر فلسطين وفي قسم من البلاد الواقعة في غربي سوريا .

ولما توفي ملك شاه ، ضبطت زوجته « نركان خاتون » العسكر ، وكنهت موته ، ثم تمكنت من الحصول على مبايعة الجيش لولدها محمد ، فتولى الملك بعد أبيه . فقامت بينه وبين اخوته حروب لعدة سنوات .

وكان الملك شاه قبل موته ، قد اقطع اخاه تاج الدولة تنس بن السلطان الب ارسلان مدينة دمشق وأعمالها وطبريا وبيت المقدس وغيرها في سنة ٤٨٦هـ — ١٠٩٣م . ولكن هذا لم يهنا بها كثيرا ، اذ ارسل الفاطميون جيشا بقيادة الافضل امير الجيوش من مصر الى القدس في سنة ٤٨٩هـ — ١٠٩٥م ، لتخليصها من الارتقيين . فحاصر القدس ونصب حولها المنجانيق وقاتلهم لمدة اربعين يوما ، الا انهم تملكوا بيت المقدس بالامان . وكان اهل القدس قد طلبوا منه الامان فأمّنهم .

ظل النزاع قائما بين الفاطميين المنسكين بالخلافة العلوية اي بنسل علي ابن ابي طالب وعقيدتهم المذهب الشيعي والسلجوقيين الذين يميلون الى الخلافة العباسية وعقيدتهم المذهب السني الى ان باغتهم الصليبيون فاحتلوا البلاد الشامية والفلسطينية وطردهم الفريقين منها .

دولة السلجوقيين

السلجوقيون اخلاط من الترك ، انهم اصل الاتراك العثمانيين . كان في مقدمتهم رجل اسمه « دقاق » وهذا انجب « سلجوق » ، وقد اسلم وعاش في انحاء بخارى ، وكان يغزو الترك . ولما توفي ترك ثلاثة اولاد : ارسلان ، ميكائيل ، وموسى . وخلف ميكائيل بيغو وطغرل واينال وجفري وداود .

عظم امر طغرل بك من هؤلاء الامراء ، وكان محاربا شجاعا ، فملك جرجان وطبرستان وخوارزم وهمدان والدينور . وقد هادنه ملك الروم ، فعمر مسجد القسطنطينية الذي سبق ذكره في فصل سابق ، واقام فيه الصلاة والخطبة لطغرل بك .

ثم دخل طغرل بك بغداد في سنة ٤٤٧ هـ - ١٠٥٥ م ، ولقب بالسلطان ركن الدين ابي طالب محمد طغرل بك بن ميكائيل بن سلجوق . وكان في بغداد يومئذ الخليفة العباسي القائم بأمر الله ، فابقاه ، ولكنه قبض على الملك الرحيم ابي نصر وعلى قواده ، وازال دولة بني بويه .

ولما توفي السلطان ركن الدين محمد طغرل بك بن سلجوق تولى الملك من بعده ابن اخيه عضد الدولة ابو شجاع محمد الب ارسلان بن جفري بك ، ففتح هذا حلب ، وهزم الروم ، وكان جيشه لا يقل عن اربعمائة الف مقاتل . ثم استولى الب ارسلان على القدس والرملة سنة ٤٦٥ هـ - ١٠٧٢ م ، اخذها من خلفاء مصر الفاطميين ، وخطب للخليفة للقائم بأمر الله العباسي . واتسع ملكه حتى امتد الى الصين شرقا والى اقصى اليمن في الجنوب .

ولما مات الب ارسلان تولى بعده ولده جلال الدولة ابو الفتح محمد ملك شاه ولقب بالسلطان العادل . وفي عهد هذا السلطان ثار اهل بيت المقدس على الوالي في سنة ٤٧٠ هـ - ١٠٧٧ م ، فارسل اليهم لتأديبهم جيشا بقيادة قائده « اتسو بن اوق » الخوارزمي . فحاصر هذا بيت المقدس ، ففتحها عنوة ونهبها وقتل اهلها .

وكان هذا القائد اتسو بن اوق الخوارزمي التركماني ظالما ، حتى خلست البلاد من قاطنيها ، فساد الجوع واشتد الغلاء ، ومنع الاذان « حيي على خير العمل » . وكان يعتقل الناس ويعذبهم فيفتدون انفسهم بمال يؤدونه له . وقد أدت افعاله هذه الى قيام ثورة ضده في بلاد الشام ، ثم سرت الى فلسطين .

ومن عمال ملك شاه الذين تولوا إدارة بيت المقدس الأمير « ارتق بن اكسك » التركماني . فقد كان هذا الأمير قبل ان ينولى إدارة القدس ، من مهاليك ملك شاه ، عمل تحت امرته ، ثم سار الى تنس . وقيل انه كان زعيما للقبائل التركمانية التي اخرجها السلجوقيون من ضواحي بحر قزوين ، وساقوهم الى سوريا فانتشروا فيها وفي فلسطين . وقد استولى على بيت المقدس بحد السيف ، وأسس فيها دولة عرفت بدولة الارتقيين سنة ٤٧٠هـ — ١٠٧٧م في بيت المقدس وسائر فلسطين وفي قسم من السلسلة الواقعة في غربي سوريا .

ولما توفي ملك شاه ، ضبطت زوجته « ترکان خاتون » العسكر ، وكنيت موته ، ثم تمكنت من الحصول على مبايعة الجيش لولدها محمد ، فتولى الملك بعد أبيه . فقامت بينه وبين اخوته حروب لعدة سنوات .

وكان الملك شاه قبل موته ، قد اقطع اخاه تاج الدولة تنس بن السلطان الب ارسلان مدينة دمشق وأعمالها وطبريا وبيت المقدس وغيرها في سنة ٤٨٦هـ — ١٠٩٣م . ولكن هذا لم يهنا بها كثيرا ، اذ ارسل الفاطميون جيشا بقيادة الافضل أمير الجيوش من مصر الى القدس في سنة ٤٨٩هـ — ١٠٩٥م ، لتخليصها من الارتقيين . فحاصر القدس ونصب حولها المنجانيق وقاتلهم لمدة اربعين يوما ، الا انهم تملكوا بيت المقدس بالامان . وكان اهل القدس قد طلبوا منه الامان فامنهم .

ظل النزاع قائما بين الفاطميين المتمسكين بالخلافة العلوية أي بنسل علي ابن ابي طالب وعقيدتهم المذهب الشيعي والسلجوقيين الذين يميلون الى الخلافة العباسية وعقيدتهم المذهب السني الى ان باغتهم الصليبيون فاحتلوا البلاد الشامية والفلسطينية وطردوا الفريقين منها .

حياة المسيحيين بعد الفتوحات الإسلامية

عاش المسيحيون في فلسطين وبلاد الشام بكل طمأنينة وحرية عبادة ، فسي الفترة الواقعة من سنة ٦٣٨م حتى خمسين سنة لاحقة ، وخصوصا بعد اعطاء العهدة النبوية لرهبان طورسينا ، والعهدة العمرية للبطريرك صفرونيوس . وكان كل من لم يعتنق الديانة الإسلامية يدفع الجزية ويسمى ذميا ، ومن يرفض دفع الجزية يسجن أو يقتل على اعتبار انه عاصيا . ولكن هذه الحال لم تدم طويلا وجاء من الخلفاء من لم يراع هاتين العهدين ، وبقيت الامور حسب مزاج كل منهم ، فكثيرون منهم اساعوا الى رعاياهم المسيحيين ، فكانوا يوعزون الى رعاياهم من المسلمين ، بالتضييق على المسيحيين وهدم كنائسهم .

ذكر سعيد البطريق الكثير من هذه الحالات فقال : في جمادى الاخرة سنة ٣١١ هـ - ٩٢٠ م ، ثار المسلمون في مدينة الرملة فهدموا كنيسة الملكيين وهما كنيسة مار مرياكوس وكنيسة ماركماس ، وهدموا ايضا كنيسة عسقلان وقيصرية . فرفع النصارى ظلامتهم هذه الى الخليفة المقتدر ، فأمر بأن يبنى ما هدم لهم من الكنائس . وثار المسلمون بثنيس ، وهدموا للملكيين كنيسة في خارج الحصن بثنيس تسمى كنيسة « بوفور » في شهر رجب من نفس السنة . ثم أعاد النصارى بناء الكنيسة المهدومة ، وعندما قربوا من الانتهاء من بنائها ، عاد المسلمون وثاروا مرة ثانية ، وهدموا ما بني من الكنيسة واحرقوه بالنار . ولما علم السلطان بالامر أمر باعادة بناء الكنيسة وساعد النصارى بمبلغ من المال لهذه الغاية .

وثار المسلمون في دمشق وهدموا كنيسة المريمية « الكائدرائية » وكانت من اعظم ما جادت به براعة من العمارة والاتقان والعظمة ، وكان قد أنفق على بنائها مائتا الف دينار ، ونهب كل ما كان فيها من الاواني والجواهر الثمينة والسائر المطرزة وغيرها . ونهبت اديرة كثيرة ايضا ، منها دير النساء الذي كان بجانب الكنيسة ، وشعثوا كنائس كثيرة للملكيين . وهدموا للنساطرة دارا للكتب ضخمة ، وذلك في نصف رجب سنة ٣١٢ هـ - ٩٢٣ م .

ودخل علي بن عيسى الفسطاط في مستهل رجب سنة ٣١٣ هـ - ٩٢٤ م . فاستدعى الاساقفة والرهبان ، وطلب منهم الجزية ومن بقية الاديرة الرهبانية ، بصرف النظر عن ضعف الحال في اديرة مصر السفلى وأرض سعيد ومن رهبان طورسينا .

وجاء للمؤرخ ذاته في سجل اخر ما نصه :

« وفي يوم احد الشعانين قسام المسلمون وأحرقوا أبواب كنيسة مارقسطنطين القبلية ، ونصف الاسطوان وكسروا البلاط الذي حول المذبح ، ونهبوا كل ما صادفوه من النحاس والستائر ، وشعثوا ما قدروا عليه ، فكانت فتنة عظيمة جدا . وذلك في جمادى الاولى سنة ٣٢٥ هـ - ٩٣٥ م » .

في زمن الخليفة الاموي معاوية بن سفيان مؤسس الدولة الاموية ، فسان تصرفه مع النصارى كان حسنا ولطيفاً شأنه في سياسته مع باقي رعاياه . وقد أعطى مرسوماً يثبت فيه امتيازات الروم الملكيين في سلطتهم على الاماكن المقدسة في فلسطين . وعين في مصالح دولته كثيرين من النصارى ، ومنع دخول المسيحيين في الاسلام . وكان ذلك دهاء منه لكي يبقى للدولة موارد للاموال التي كانت تحصل من الجزية المفروضة على الذميين الذين بدخلهم في الاسلام كانوا يعفون منها .

وفي زمن بطريرك القدس ثيودوروس أراد الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان ان يبني له مسجداً في مكة ، وقرر ان ينقل الاعمدة التي في كنيسة الجسمانية التي مكة لهذه الغاية . فقام سرجيوس المحاسب العمومي « مثل وزير المالية في وقتنا الحاضر » لوالي فلسطين « منصور » وكان صديقاً لعبد الملك ، وبمساعدة رفيق له اسمه بطريركوس وجماعة من اصحاب النفوذ من مسيحيي فلسطين ، تمكنوا من اقناع الخليفة عبد الملك بالعدول عن رغبته ، ووعدوه انهم سيخبرون جوستينيانوس ملك القسطنطينية برغبته ، فيرسل له الاعمدة اللازمة لبناء المسجد ، فلبى جوستينيان هذا الطلب .

في سنة ٧٠٨ م توفي عبد الملك بن مروان وتعين خلفه ابنه الوليد الذي لم يكفه ما اكتسبه من المجد بفتوحه اسبانيا والبرتغال ، بل سعى لان ينال حظوة وشهرة في أعين العالم الاسلامي ، فأنشأ مسجداً في دمشق في مكان كنيسة ماريوجنا الشهيرة باتقان هندستها وجمال بنائها .

وفي زمن الوليد ، تعين أخوه سليمان والياً على فلسطين ، وهذا جعل مدينة الرملة المركز المدني والعسكري في البلاد . ومن أعماله انه اغتصب اعمدة الكنيسة المسيحية في اللد واستعملها في بناء الجامع المشهور في الرملة . ومن الغريب في هذا الحادث ان الذي حرضه على عمله هذا ، كاتب له مسيحي أراد الانتقام من أهل اللد المسيحيين الذين أبوا ان يعطوه محلاً لسكناء قسرب الكنيسة .

وفي زمن ولاية الوليد عومل المسيحيون في سوريا وفلسطين بالقسوة

لعدم موافقتهم للامويين في الهجوم على القسطنطينية . ووضع الجزية على
الرهبان .

في سنة ٧١٦م خلف الوليد اخوه سليمان ، وفي زمنه كان الجابي للاموال
رجل شرس اسمه عصام بن زيد . هذا جرى من الفطائع بالمسيحيين ما يفوق
الوصف لاجل تحصيل الاموال منهم . فانه استنكفا من أن يقيد اسماءهم في دفتر
الجباية ، كان يحمي الحديد ويرسم به على ايديهم اشارة معلومة تدل على
المبالغ المطلوبة منهم . ومن منهم لسميكن متسما بهذه العلامة كان يقبض عليه
ويسام مختلف العذابات . فهذه المعاملة دفعت الشعب الى هياج كاد ان يكون
ثورة كبيرة .

ولما توفي الخليفة سليمان خلفه ابن عمه عمر الثاني بن عبد العزيز ،
حول مجرى السياسة فخدمت الثورة وهدأت الخواطر . وحالما تولى عمر
كرسي الخلافة امر بعزل الجابي عصام المذكور وابعاده ، فزال الشدائد
واطمأنت القلوب . وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز رجلا عادلا تقيا ورعا ، وكان
يجري في كل اموره على خطة الخلفاء الراشدين ، حتى خيل للناس ان عصر
الراشدين قد عاد مبعوثا .

لكن هذا الخليفة في اخر عهده جاء من سيطر عليه من حاشيته ، فعادت
وساعت حالة المسيحيين ، فأصبحوا يضطهدون في جهات مختلفة من مملكته .
وعلاوة على ذلك أصدر امرا بهدم جميع الكنائس التي بنيت بعد اعطاء العهدة
للمسيحيين ، مدعيا انه لم يصرح ببناء كنائس جديدة ولا في عهدة منها . اما في
البلاد التي سلمت بدون حرب فقد حفظت كنائسها . وقد امر عمر ايضا بأن لا يلبس
المسيحيون البسة تشبه البسة المسلمين ، والا يكون أحد منهم في وظيفة الحكومة .

كان القديس يوحنا الدمشقي محبوبا من الخليفة هشام الذي خلف يزيدا . وكان
مقربا من كثيرين من الولاة الذين امهاتهم مسيحيات ، وهذا ما كان يساعده
المسيحيين ويدرا عنهم شيئا من الوشائيات الملققة ضدهم . وأدى الامر بالقديس
يوحنا الدمشقي الى اظهار التذمر من هذه الحالة للولاة والخليفة . وبما أن
يوحنا الدمشقي لم يكن تحت السلطنة البيزنطية ، فلم يكن لخصومه ما يخولهم
حق الانتقام منه . كثيرا ما كان يوبخ الملك بكل جراءة غير وجل . ومما كتبه له
مرة ما يأتي . ليس من صلاحية الملك ، ولا حق له ، في تنظيم قوانين كنائسية ،
وليس له سلطة على ادارة الكنيسة التي هي من حقوق رعائها ومعلميها .

من الطبيعي ان تعاليم القديس يوحنا الدمشقي ونفوذه لدى الخليفة
لم تكن تروق لحساده ، الذين كان بينهم مسيحيون ومسلمون على السواء ، فأخذوا

يوغرون صدر الخليفة هشام عليه بالوشايات المختلفة . فقلدوا خطه مرة وحرروا باسمه مخابرة مع اليونان ضد العرب ، فسأته هذه التهمة الملفقة ضده ، فترك دمشق ورحل الى القدس ، ومنها دخل دير مارسابا المعروف شرقي بيت لحم ، منقطعا عن العالم وشروره وحساده . وفي دير مارسابا عاش هناك من جملة نزلائه من النساك ، وفي الدير نظم الكثير من الاناشيد الكنسية والترانيم الالهية ، التي دلت ليس فقط على موهبته الشعرية ، بل وعلى روح الاداب والدين والتقوى المنبعثة من صدره . ومعظم هذه المؤلفات ضمتها عدة كتب في العصور اللاحقة .

وقد كان ليوحنا الدمشقي ورفيقه قزما الاورشليمي الدرجة الاولى في وضع الاناشيد للكنيسة الاورشليمية . وجاء في ذكر حياة يوحنا الدمشقي ان هذين البارين اسسا مدرسة للترتيل الكنسي ، وقد فاق القديس يوحنا الملك داود مرثم المزامير الالهية ، في الضرب على القيتارة .

وفي اواخر حياته سيم كاهنا من البطريرك الاورشليمي . وتوفي في ٤ كانون اول سنة ٧٤٩م ، في دير مارسابا ، ودفن هناك . وهكذا انقضت حياة هذا القديس الذي كان للكنيسة نجما لامعا .

في سنة ٧٥٤م قام ابو مسلم الخرساني في وجه الدولة الاموية المضعفة الاركان بسبب الخلافات الداخلية ، فدكها واقام على انقاضها الدولة العباسية ، وجعل عاصمتها بغداد في العراق . وكان اول خليفة لها عبد الله ابن عباس الملقب بالسفاح . وقام بعده ابنه محمد المهدي سنة ٧٨٠م . وفي زمن هؤلاء الثلاثة لاقت منهم كنائس الشرق الكثير من الاضطهاد حتى تدخلوا فيمن يعين بطريركا او يعزل منهم .

وفي زمن الخليفة المهدي حصل تضيق على المسيحيين في الشرق ، تشفيا منهم ، لان جيوشه لم تفلح في هجماتها على القسطنطينية ، مع انهم كانوا قد عقدوا صلحا مع ملك الروم . فأمر بأن يبعد بطريرك القدس الياس الى بلاد الفرس . وأمر بأن يسكن جميع المسيحيين في احياء مستقلة ، وحرص ولاته على مضايقتهم ، ففرضوا عليهم مبالغ طائلة عبارة عن غدية لارواحهم .

وفي زمن الخليفة هارون الرشيد عقدت المعاهدة المعروفة مع الامبراطور شارلمان الكبير ، فكان الرشيد على غير طباع والده المهدي . فأعطى الامان والحفاظة على رعاياه المسيحيين ، بالإضافة الى الحفاظة على امن الزوار القادمين لزيارة الاماكن المقدسة ، وعلى اتفاق المصالح ومبادلة المنافع ، كما سبق ذكره عن هذه المعاهدة في الفصل السابق عن عهد العباسيين .

وفي مطلع القرن الثامن ميلادي ، زار فلسطين عدد من السياح القادمين من ايطاليا وغيرها ، وجاء في مذكراتهم ما ملخصه :

ان المقامات المقدسة في ذلك الزمن كانت سالمة وامنة ، وحرية الصلوات والعبادة متيسرة للجميع . واكثر الاديرة في خارج اورشليم لم يحدث فيها خراب ، كاديرة جبل الزيتون والجثمانية ونواحيها والاديرة في جهة نهر الاردن . ومن هذه الاديرة السالمة والعامرة بالنساك نكروادير خوجانا « الكلت » ودير القديس خاريطون ودير القديس افثيموس ودير مارسابا ، ودير ثيودوسيوس « دير ابن عبيد » ، ودير الرعوات قرب بيت لحم ، ودير فوق جبل طابور ، ودير بقرب طبريا ، ودير مارجريس بالرملة . ونكروا ان جميع هذه الاديرة كانت عامرة وماهولة بعضها بالرهبان واخرى بالراهبات .

في سنة ٨٠٩م قامت حروب داخلية بين ولدي هارون الرشيد محمد الامين واخيه عبد الله المأمون ، وتنازما على الخلافة وكل منهما تؤيده جماعة من الناس . فاضطرب جبل الامن في الولايات العباسية ، فاعتنمت هذه الحالة بعض القبائل البدوية . فقاموا بتعدييات قاسية على الاديرة والكنائس ، فنهبوا ما نهبوا . ودمروا عدة كنائس ، وذبحوا عددا كبيرا من الرهبان والراهبات ممن وجدوهم في هذه الاديرة . اما في القدس داخل اسوار المدينة فلم تقع تعدييات .

وانتهت الخلافات بين ولدي هارون الرشيد بأن يبيع بالخلافة ابنه محمد الامين سنة ١٩٣هـ - ٨٠٩م . وبعد وفاته ببيع بالخلافة اخوه عبدالله المأمون سنة ١٩٨هـ - ٨١٣م . ولاسباب بقيت مجهولة فان المأمون اضطهد رعاياه من المسيحيين ، رغم انهم كانوا قبل عهده حاصلين على جانب كبير من الراحة والامان . فقد كانوا أعضاء نافعين في الدولة ، وكانت مواهبهم ظاهرة في اعمالهم وتجاريتهم التي كانت منتشرة في جميع انحاء الدولة العباسية ، وحتى في العاصمة بغداد . وكان من المسيحيين في خدمة الدولة العباسية جملة مأمورين في ادارات الالوية والاقضية ، يقومون باعمالهم بأمانة واخلاص اقر لهم بها الخلفاء العباسيون . وقد ذكر بعض المؤرخين ان الخليفة محمد الامين بن الرشيد قال في هذا الصدد : « أولا ، بلاد الفرس لا يجوز تسليم ادارتها الا الى المسيحيين ، لما هم عليه من الامانة والصدق في الواجبات نحو عملهم ورؤسائهم » .

ما كاد المأمون ينتقل الى دار البقاء ، حتى اخذت مملكته المترامية الاطراف بالانقسام . وتولى الخلافة بعده اخوه المعتصم بن الرشيد سنة ٣٠٨هـ - ٨٣٣م . فلقب نفسه الخليفة المعتصم بالله . وفي عهده بدأ تهقر دولة العباسيين . وفضلا عن كونه اميا وضعيفا ، كان أول من جند الاتراك واستعان بهم في الحرب . وقد أمر عامله في مصر ان يسقط من في ديوان مصر من العرب وان يقطع العطاء

عنهم . وراح العباسيون من بعده يرقون مواليتهم من حارس ووصيف الى قائد وأمير . لم يحفظ هؤلاء الجميل ، فأتكروا حسن الولاء ، وسلبوا الخلفاء ابهة الملك وأصبحوا الات بأيدي مواليتهم . وهكذا استمر التقهقر من خليفة لآخر حتى زالت دولة العباسيين . فانتقلت السلطة من يد العباسيين الى الطولونيين فالسلي الاخشيديين والفاطميين بمصر حتى جاءت الحروب الصليبية .

وفي سنة ٢٦٥هـ — ٨٧٨م كانت دولة الطاهرين « دولة مغارية كانت تحكم بلاد سيستان وخراسان في بلاد الفرس » أخذت في غزو واغتصاب القسم الشرقي من الدولة العباسية . وفي تلك الاونة قام احمد بن طولون والي مصر من قبل الخليفة المهدي بالله بن الواثق العباسي ، فساق جيشا الى الشام فاحتل دمشق وحمص وانطاكية وبقيّة الجهات الشمالية ، ثم افتتح القدس واصبحت البلاد من مصر وفلسطين والشام تحت حكمه .

ولما توفي ابن طولون اقيم ابنه خمارويه في مكانه سنة ٢٧٠هـ — ٨٨٣م . ولكن هذا رأى أنه من الحكمة ان يوطد علاقاته مع الخليفة العباسي المعتضد بالله فأرسل وفدا الى بغداد يحمل للخليفة الهدايا ويعلمه ان مصر ستؤدي لـه الخراج سنويا وقدره مائتا الف دينار فقبته الخليفة في امارته حتى مات مقتولا سنة ٢٨٣هـ — ٨٩٥م .

وقد ذكر المؤرخون الكثير من الحوادث مما اصاب الكنائس والمسيحيين في هذه المناطق التي بقيت عرضة للغزوات والهجمات الحربية والفتوحات . وكل قائد كان يتصرف حسب مزاجه وحسب ما كان شعوره عميقا من التدين او البطش . حينئذ لم يجد بطريرك القدس نيونوسيوس بدا من الالتجاء الى القسطنطينية . فكتب تحريرين ، الاول الى فوتيوس بطريرك القسطنطينية ، والآخر الى الملك باسيلوس ، شرح فيهما حالة الكنيسة والرعية التي في عهده ، وما وصلت اليها حالتها من الجور والاضطهاد ، وأرسل كتابيه كل مع رسول خاص من كهنته الى القسطنطينية .

في سنة ٩٢٥م كان بطريرك القدس يدعى ليون ، وفي تلك السنة وقعت تعديات من مسلمي الرملة ، فهدموا كنائسها مع كنائس ماركرياكوس وكنائس عسقلان وقيسرية ، ورفع البطريرك ظلامته الى الخليفة جعفر المقتدر بالله ، فأمر بإعادة بناء ما تهدم ، وعدم التعرض للمسيحيين .

وحدث ان مرض البطريرك ليسون مرضا شديدا أعجزه عن القيام بواجباته الدينية . فاستقال وخلفه البطريرك نيقولاوس . وفي زمن الاخير وفي يوم احد الشعانين ، قام المسلمون بتحريض من الوالى ، وهجموا على كنيسة القيامة

وأحرقوها ، فأضرموا أولا النار في بابي كنيسة القديس قسطنطين الجنوبية .
وعندما بلغت النار سقف الكنيسة قذفوا بها الى الجبلية والى كنيسة القيامة .
فعاد البطريرك هذه المرة ورفع ظلامته الى الخليفة العباسي الرازي بالله محمد
ابن المقتدر فتأثر جدا ، وأمر حالا ببناء ما حرق من البناء فكان ما نجد من البناء
اجمل وأخضر من الاول .

غضب المسلمون من الخليفة الرازي بالله لسماحه باعادة بناء كنيسة
القيامة ، فهجموا بعد حين على عسقلان وصبوا جام غضبهم عليها فنهبوها
وأحرقوا كنيسة العذراء مريم التي كانت هناك . وقد شاركهم في عملهم هذا
اليهود الذين كانوا ناقلين على المسيحيين ولم يتركوا فرصة في السابق دون تحريض
الولاة على المسيحيين . وقد سعى اسقف عسقلان باذلا قصارى جهده لاجل
الحصول على إذن باعادة بناء كنيسة عسقلان فلم يتوفق ، فضلا عن ذلك
لم يسمح له بالرجوع الى عسقلان وتوفي في مدينة الرملة مكان التجائه بعد حرق
الكنيسة .

في سنة ٩٤١م صار بطريركا على القدس خريستونولوس العسقلاني ، وقد
ساعت حالة الكنائس في عهده بسبب تعديات المسلمين المتكررة ، فلم تكن لتؤثر
عليهم اوامر الخلفاء ولا نهيمهم ، وخصوصا بعد ان ضعفوا ، واصبح الوالي في كل
بلد هو الامر الناهي .

وكان الوالي في فلسطين كلما شعر ان اخلاص رعيته له في تقليص وابتماد
عنه ، فكر في تحريض رعاياه من المسلمين على المسيحيين ، فكان الناس
في ذلك الحين تعمهم الجهالة ، فينقادون الى طلب الوالي ، ناسين ايسر قواعد
الدين الاسلامي وما جاء في القرآن الكريم ، وبذلك كانوا ينسون سيئات
الوالي وظلماته .

في سنة ٣٥٥هـ - ٩٦٥م ، خلف خريستونولوس على الكرسي
البطريركي الاورشليمي ، البطريرك يوحنا السابع . وفي زمنه خرض الوالي رعاياه
المسلمين على التعدي على الكنائس ، فأعادوا الكرة على كنيسة القيامة
وأحرقوا ابوابها وقبة القبر المقدس ، ونهبوا كل ما طالته اياديهم من الكنوز
والاواني المقدسة ، ثم هجموا على صهيون وأحرقوا كنيسة بيتها بعد ان نهبوها ،
ولم يكتفوا بما فعلوا فهجموا على دار البطريركية ، وذبحوا البطريرك يوحنا
السابع ، مدعين انه كان يكاتب ملك القسطنطينية ليهجم على البلاد . فقام
بعد البطريرك يوحنا ، البطريرك اغاثون ، وفي زمنه دخلت فلسطين وبلاد الشام
تحت سيطرة الفاطميين .

وقد ذكر المؤرخ الانطاكي « نسبة الى مدينة انطاكية » في كتابه « تاريخ
الذيل » ج ١ ص ١٢٥ هذه الحادثة :

وحدث في ايام كافور الاخشيدي ، ان كان له وال على القدس ، مغربي يدعى
محمد بن اسماعيل الصنهاجي ، وفي عهد هذا الوالي في سنة ٣٥٥ هـ - ٩٦٥ م ،
تقدم البطريرك يوحنا رئيس بطاركة بيت المقدس الى كنيسة القيامة ، واغلق
ابوابها وتحصن فيها ، وركب الصنهاجي والي بيت المقدس في الحال مع جموعه
وقبض على ثكن القائد الذي عينه ابن عبيد الله لحماية البطريرك ، واخذ اليه ،
وانفذ الى البطريرك يستدعي نزوله اليه واعطاه الامان . فلم يثق البطريرك
بالصنهاجي لما عرف عنه من النكث بالعهد ، ولما تداخل البطريرك من الفرع
ولم يرد على الرسول جوابا ، وهجم الصنهاجي وجموعه على الابواب ،
فضربوا ابواب كنيسة مار قسطنطين بالنار ، ودخلوا منها الى كنيسة القيامة
فوجدوها مغلقة . واحرقوا ابوابها واستطت القبة ودخلوا الكنيسة ، ونهبوا
ما ظفروا به . وتوجه الوالي ومن معه الى كنيسة صهيون واحرقوها ونهبوها
في اليوم عينه ، وذلك يوم الاثنين قبل عيد العنصرة ٢٣ ايار سنة ٣٥٥ هـ - ٩٦٥ م ،
وهدم اليهود وخرّبوا اكثر من المسلمين ، فلما كان يوم الثلاثاء تالي ذلك اليوم ،
التقوا بالبطريرك مختفيا في جب من جباب الزيت في الكنيسة ، فقتلوه وجروه الى
صحن كنيسة قسطنطين واحرقوه .

وفي صباح اليوم التالي وجدوا على ابواب كنيسة القيامة مكتوبا على حجر
مردوم : —

منع الكنائس ان تكن عبثت بها ايدي الحوادث او تغير حال
فلطالما سجدت على ابوابها . شم الاتوف جحاحج ابطال
صبرا على هذا المصاب فانه يوم بيوم والحروب سجال

اجمع معظم المؤرخين بأن الاعتداء على بطريرك القدس يوحنا السابع
وحرقه علنا في ساحة كنيسة القديس قسطنطين ، وتخریب كنيسة القيامة ،
اجمعوا ان هذه الاعمال كانت من ابشع الاخطاء التي ارتكبتها الاخشيدون في
فلسطين عامة ومدينة بيت المقدس خاصة . وكان هذا الاعتداء من الاسباب الرئيسية
لنشوب الحروب الصليبية فيما بعد . وقد سكت المؤرخون العرب عن ذكر هذا
الاجداث خجلا ، فقد كان هذا العمل شنيعا فعلا وسيئا للغاية . فقد كان
عمل الصنهاجي هذا ، مخالفة بشعة جدا تخالف ابط اصول الدين الاسلامي
وتعاليمه . السنحة ولا تتفق على الاطلاق على ما نصت عليه آيات القران الكريم
ومخالفنا على العموم للعهد العربي السبعة .

وقد أدرك بشاعة هذه الأعمال ، كافر الاخشيدى العبد الاسود ، حاكم مصر وفلسطين الذي وقعت الحادثة في زمنه ، وما علم بها حتى جاء مسرعاً الى بيت المقدس متلمساً نتائجها . ويقال انه ما اطلع بنفسه على ما جرى تألم كثيراً وأصيب بنوبة قلبية قضت عليه ، ودفن عند اسياده بمقبرة باب الرحمة بالقدس الشريف .

وتقول الروايات التاريخية ان ارسل ذهبوا لتبليغ ملك الروم فسي القسطنطينية ما حدث في بيت المقدس ، فثار ملك الروم وحق كثيراً . وأرسل كافر الى ملك الروم مبدياً استعداداته ان يعيد بناء ما حرق بأحسن منه ، فجاءه الجواب من ملك الروم « أنا اردتها بالسيف » . وبعدها خرج ملك الروم في طريقه الى فلسطين ، فكان أول من صادف في طريقه الدولة الحمدانية وعلى رأسها سيف الدولة الحمداني ، فلاقاهم هذا المجاهد المالي ، وبقيت الحروب بينه وبين ملك الروم اكثر من ثلاثين سنة . والى سيف الدولة الحمداني يعزي المؤرخون تأخير وصول الحروب الصليبية الى فلسطين اكثر من ثلاثين سنة .

ومما يدمو للعجب ان المؤرخين العرب لا يذكرون اسباب حروب سيف الدولة مع جيوش الروم ، مكتفين بالاعجاب بشعر المتنبي في وصف سيف الدولة وبطلته ، في رد جيوش الروم عن البلاد الشامية ، في وقت كان فيسه الخليفة العباسي يلهو بين الجسور والحسان ، والاششيديون في مصر على شفا النهاية والخذلان .

في زمن الفاطميين تنفس المسيحيون الصعداء ، واصطلحت شؤونهم ، ورموا كل ما دمر او هدم من الكنائس في المدة السابقة . الى ان جاء الى الحكم الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ابو علي المنصور ، وجرى في عهده ما جرى كما ذكرنا في فصلنا عن الفاطميين .

وقد يتساءل القارئ الكريم ما شأن تاريخ الدول المتعاقبة على فلسطين مع عنوان كتابنا هذا الذي سميناه جولة في تاريخ بيت لحم . فالجواب عندهما قمت بجولة في بطون الكتب منقبا عن تاريخ بيت لحم ، وجدت تاريخ هذه المدينة جزءاً لا يتجزأ من تاريخ ما حولها من البلاد ، فكل ما أصاب البلاد التي حولها أصابها . ولما كان هذا الكتاب وضع في الدرجة الاولى للجيل الصاعد من ابناء وبنات وطني ، رأيت انه من الفائدة الكبرى ان أوفر عليهم مجهود ومشقة البحث والتنقيب ، وان أحاول ان أضع بين أيديهم اوسع المعلومات وأدقها ، لتكون منطلقاً لهم في دراساتهم في المستقبل .

ولسهولة المرجع وحسن التوضيح جعلت كل عهد في مقال منفصل ، ووضعت في آخر الكتاب فهرساً بالمراجع الأساسية مما وجدتتها باللغة العربية ، وفهرساً آخر بالمراجع التي وجدتتها باللغة الانجليزية بالإضافة الى هذه الكتب طالعت كتب تاريخ وغيرها فلم أجد فيها ما يستحق ذكره كمرجع تاريخي .

الحروب الصليبية

بدأ السلجوقيون يفكرون بالاستيلاء على الاقطار العربية منذ سنة ١٠٤٠ م ، وبقيت هذه الرغبة تتمخض حتى سنة ١٠٧١ م في عهد (الملكشاه) جلال الدين ابو الفتح بن الب ارسلان ، الذي افتح الكثير من ولايات الدولة الفاطمية وامتلكها ، ومن جملتها فلسطين والامكن المقدسة . وقد لحق بيت المقدس الكثير من الخراب والدمار على يد السلجوقيين ، أكثر مما كانت قد لاقت في حياتها منذ نشأتها . فان السلجوقيين لم يتركوا فيها كنيسة ولا بئرا الا وهدموه الى الحضيض ، حتى انهم في حالات كثيرة لم تسلم من اذاهم بعض المساجد الاسلامية .

وظل بيت المقدس حين امتلكوه من سنة ١٠٨٠ م الى سنة ١٠٩٦ م يقاسي نحت حكمهم الامرين . ولكن في سنة ١٠٩٦ م عاد الفاطميون واسترجعوا بيت المقدس من ايدي السلجوقيين . وفي سنة ١٠٨٠ م توفي البطريرك صفرونيوس الثاني ، وانتخب مكانه البطريرك مرقس الذي ادار بطريركية بيت المقدس لمدة ١٣ سنة . ثم خلفه سنة ١٠٩٢ م البطريرك سيمان الثاني ، وفي زمانه تم استرداد بيت المقدس من قبل الفاطميين .

في سنة ١٠٩٤ م حضر الى القدس لزيارة الامكن المقدسة راهب فرنسي يدعى بطرس الناسك ، فرأى ما بقاسيه مسيحيو الشرق من المظالم والمشقات والاضطهاد ، فاجتمع بالبطريرك سيمان واقرا على ان يذهب الناسك بتفويض من البطريرك ويثير المسيحيين في الغرب ، ليبادروا الى خلاص الامكن المقدسة . وأخذ الناسك بطرس في التنقل من بلد لآخر في جميع انحاء الغرب ، مثيرا عواطف الناس هناك ، ويدعوهم باسم الانسانية والديانة والشفقة لينهضوا ويخلصوا اخوانهم في الشرق .

وقد كان رد فعل كبير من المسيحيين في الغرب لدعوة الناسك بطرس ، فانعقد مجمع لهذه الغاية في مدينة بلاسنجيا في اسبانيا ، ثم انعقد مجمع اخر في مدينة كلارمنت في فرنسا في سنة ١٠٩٥ م ، حضره البابا ادريانوس الخامس وكثيرون من امراء واشراف الولايات الاوروبية . وقد كان لخطاب البابا التأثير الكبير في القلوب . وللحال بادرت اوربا بالتجنيد والاستعداد حتى صارت كأنها تكتنزة عسكرية واحدة . وسميت هذه الحروب بالحروب الصليبية ، لان الجنود كانوا يضعون على ملابسهم صليبا من نسيج أحمر ، اتخذوه شعارا لهم .

وبعد فترة من الاستعدادات تحرك الجنود في سنة ١٠٩٧ م ، وكان عددهم

أكثر من أربعمائة ألف مقاتل ، تحت إمرة غودفري دي بويون وأخويه غوستاف وبلدوين ، وأمير إيطاليا السفلى وجميلة قواد آخرين . وساروا برا حتى وصلوا مدينة القسطنطينية ، ومنها مروا بنيقية وكيليكية ، ثم باديسا وانطاكية واللاذقية فمدينة طرابلس الشام . ومنها تابعوا تحركاتهم الى صيدا وصور حتى مدينة عكا ويافا وعمواس غربي مدينة القدس . وكانوا يستولون على المدن التي كانت نعترضهم في الطريق بتعب ومثقة عظيمة ، حيث كانت هذه المدن تقاومهم وتكبدهم الكثير من الارواح ، حتى وصلوا اخيرا أمام اسوار القدس .

ان المؤرخين الذين رافقوا الحملات الصليبية ، وصفوها قائلين : ان عدد الجنود والمرافقين للحملة الصليبية لا يحصى ، انهم كرمل البحر . وذكر آخرون قائلين : انه ليس بالامكان تعيين عدد الصليبيين الذين اشتركوا في الحملات الصليبية بالضبط . فان قسما من الذين سجلوا اسماءهم في بادئ الامر قد تخلوا عن الحملة في الطريق ، وهناك آخرون التحقوا بالحملة ولم يسجلوا اسماءهم .

لم يكن لهذه الحملة قائد عام ، وانما كان لها قواد كثيرون ، ومن اشهرهم :

١- الراهب الفرنسي بطرس الناسك ، الذي قاد المتطوعين الفرنسيين ، وسار بهم عن طريق المانيا الى هنغاريا والقسطنطينية .

٢- غودفري دي بويون ، أمير بلاد اللورين في فرنسا ، قاد عشرة الاف فارس ، وأربعين ألف رجل ، من المتطوعين الامنسيين ، القاطنين حول نهر الرين في فرنسا .

٣- اويستاس غويتار ، فكانت طريقته الى الشرق عن طريق بلغاريا والقسطنطينية

٤- الكاهن غوثالك ، قاد متطوعي النمسا ، وفي القسطنطينية التحق بجماعة الناسك بطرس .

٥- الكونت اميكون ، قاد متطوعي المانيا ، وكانت طريقته عبر البلاد البلغارية .

٦- بوهيموند تارنتوم ، قاد في بادئ الامر هو وابن عمه تنكريد ، عشرة الاف فارس وعشرين الفا من المشاة . وقد كان طويل القامة ، محبا للخفخة ثم قاد الحملة كلها بعد ان استقال من قيادتها المدعو اسطفان .

٧- تنكريد ريموند أوف طولوز ، قاد مئة ألف مقاتل بين فارس وراجل .

٨- اوسطاكيوس قاد متطوعي بولونيا .

٩- بلدوين - اسم جرمانى معناه البارز والقوي .

١٠- جرارد .

- ١١- غرنييل .
- ١٢- روبرت الملقب بـ « قورت هاوز » وهو حاكم ولاية نورمانديا ، وهو الابن الاكبر لغلجوم القاهر .
- ١٣- الكونت روبرت فلاندرس ، والي مقاطعة فلاندره ، وكان يلقب بحريسة المسيحيين .
- ١٤- الكونت روبرت اف نورماندي اسطفان ، والي مقاطعة بلواز وقد قاد الحملة مدة بعد وفاة ممثل البابا ايجار ، ثم استقال .
- ١٥- كاتريز ، وكان مستشار الحملة الحربي .
- ١٦- ريكاردوس امير سالارنوس .
- ١٧- رانولف .
- ١٨- روبرت دوهوس .
- ١٩- روبرت دوسورنفال هرقل دوبوليناك .
- ٢٠- غولياقوس دوسوريار .
- ٢١- اديمار دومونتيل ، وكان يمثل البابا ، وقد اقامه هذا ، رئيسا روحيا للحملة ، مات في انطاكية ولم يصل القدس .
- ٢٢- سمعان بطريرك بيت المقدس .
- ٢٣- كليرمونت .
- ٢٤- الكونت سان جيل .
- ٢٥- روجار دو قواكس غرلياموس .
- ٢٦- رامبرت دو اورانج .
- ٢٧- هرمفروا دومنتيك .
- ٢٨- ايزارد دوديا .

وغيرهم كثيرون شملتهم الكتب التاريخية التي كتبت بمختلف اللغات الحية ، عن الحروب الصليبية ، وهذه الكتب قليلة ونادرة جدا باللغة العربية . وقد بحثت كثيرا في مكتبات القدس من اي كتب عن الحروب الصليبية فلم اتوفق بواحد منها

ولما اجتازت جيوش الصليبيين الاناضول قاتلهم (فيلج ارسلان) قتالا

شديدا . غير انهم عبروا بعدئذ مسـدن انطاكية وطرابلس وبيروت وصيدا وصور وعكا ويافا والرملة . اي كانت مسيرتهم بمحاذاة شواطئ سوريا ولبنان وفلسطين الواقعة على البحر الابيض المنوسـط فوصلوا اسوار القدس في حزيران سنة ١٠٩٩م فحاصروها بجيش كان عـدده من اربعين الى خمسين الف مقاتل .

بدأ حصار جيوش الصليبيين مدينة بيت المقدس في اليوم السابع من شهر حزيران سنة ١٠٩٩م ، ودام نيفا واربعين يوما ، عانوا خلالها انواع المحن لقلة الماء الكافي لهذه الجيوش الكبيرة . ونفاذا للذخيرة ، وفقدان لوازم الحصار من خشب وأدوات اخرى ضرورية . ولم يحل هذه الازمة الا بعد وصول المراكب من جينوا محملة بالذخيرة والمؤن الى عكا ويافا ، ومنها نقلت الى القدس . وقد قطعوا الاشجار اللازمة لالات الحصار من غابة كانت تقع بين سبسطية ونابلس ، فشبـدوا ثلاثة أبراج عالية يطلون منها داخل اسوار القدس .

وكان في القدس عند وصول الجيوش الصليبية اليها ، الوالي افتخار الدولة يديرها باسم الخليفة الفاطمي (المستنفي بالله) ، وكان هذا الوالي قد أبعد المسيحيين عن القدس ، وابقى فيها المسلمين واليهود فقط . وحشد داخل المدينة العدد الذي اعتقد انه كاف للدفاع عنها من الجنود المصريين . وكان المدافعون يتألفون من اربعين الف مقاتل يساندتهم السكان المدنيون وعددهم يومئذ يربو على عشرين الفا . وقد حصنها وادخر في عنابرها مقادير كبيرة جدا من الذخيرة . والمؤن ، وكان الوالي قبل بدء الحصار قد أمر بتخريب جميع الحقول التي حول المدينة لئلا يستغلها المهاجمون ، وردم آبار الماء التي في البر ، حتى لا يجد المهاجمون ماء .

وطال أمد الحصار دون أن يتمكن الصليبيون من الاستيلاء على المدينة بسبب شدة مقاومة المدافعين عنها . عندئذ عقد رؤساء الجيوش المحاصرة مجلس شورى لتعيين خطة للهجوم الشامل وتعيين يوم له . فقرروا استبدال خططهم السابقة ، فبقوا أثناء الليل ونقلوا البرج الخشبي المركب على دواليب مع سائر الاعمال والالات ، الى جهة شرقي المدينة ثم نصبوا المنجنيقات والات الحرب الاخرى بين باب الساهرة وباب دمشق أي باب العامود .

وفي يوم الخميس الموافق ١٤ من شهر تموز سنة ١٠٩٩م ، ومنذ شروق الشمس أمر جميع رؤساء القواد وجنودهم بالهجوم العام على اسوار مدينة القدس من جميع جهاتها . ولم يكن أمر الحرب بيد واحد من القواد حين المعركة ، بل كان كل واحد من الامراء والحكام في الموقع الذي يقوم عليه ، يرتب مساكره ويدير امورهم كما يجده مناسبا للهجوم .

وقد استعمل المدافعون عن بيت المقدس المواد الملتهبة والكباير المشتعلة بالزيت والنشب القوية . وكان لديهم أربع عشرة آلة حربية كبيرة جدا مركبة على الاسوار ، أبلوا في ذلك اليوم بلاء حسنا في الدفاع عن مدينتهم . ودام القتال أكثر من اثنتي عشرة ساعة حتى حل الظلام .

وفي اليوم التالي الجمعة ١٥ تموز ١٠٩٩م ، استؤنف القتال بأشد ضراوة من اليوم السابق . وحوالي ساعة الظهر قامت الجيوش الصليبية بهجوم عنيف من سائر الانحاء . وتمكنوا من ذلك البرج الكبير ، فاجتاز الدوق دي لورين من فوق الردم وادرك السور ، وأمر غودفري بمد الجسر المرتفع ، فمد ومر عنه غودفري ، وتبعه جنوده فدخلوا المدينة .

واقدم قائد يدعى (لتولدس) وهو من اشراف مقاطعة فلانديريا ، فارتقى السور تحت وابل من السهام ، ووضع فوقه راية الصليبيين ، الامر الذي اثار حمية المهاجمين ، فقاموا بهجماتهم الاخيرة ، وكانت شديدة للغاية ، ففتحت المدينة . وكان اول من دخلها غودفري دو بويون الافرنسي . ثم خلع جنود تنكريد ، وجنود غودفري ، باب اسطفانوس في سور القدس بضرب الفؤوس والمعاول ، ففتحوه ودخلت المدينة باقي جيوش الصليبيين ، في الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الجمعة الموافق الخامس عشر من تموز سنة ١٠٩٩م ، الموافق ٢٣ شعبان سنة ٤٩٢م .

وكان سكان المدينة المقدسة حين دخلها الصليبيون عشرين الفا ، منهم ثلاثة الاف يهودي ، والاف مسيحي عربي على المذهب الشرقي ، والبقية الباقية مسلمون . وكان قد لجأ الى مدينة القدس عشرات الالوف من مسلمي عسقلان ويافا والرملة وغيرها ، هربا من وجه الجيوش الصليبية فوقع الجميع في قبضة الجيوش الصليبية الفاتحين للقدس . وكان من سوء حظ اليهود ان دخول الجنود الصليبيين الى القدس كان من باب النبي داود ، اي من جهة حارتهم ، فتلقوا من الضربة الاولى ، فقد جمعوا نسي كنيسهم وأبيدوا . وهكذا خلت المدينة المقدسة من اليهود وأبيحت حارتهم ، وظلت كذلك طيلة حوالي مائة سنة ، وهي المدة التي ظل فيها الصليبيون في المدينة المقدسة . وقد ذكر هذه المذابح مؤرخو عصر الحروب الصليبية ، والجميع نهما كثيرا لبشاعتها .

ان الجنود الصليبيين قد سكبوا بخمرة الانتصار ، فاستيقظت فيهم روح الاستعمار والغلبة التي لا بد لها في تلك الايام ان تقترن بسفك الدماء والقتل والانتقام والتشفي ، الى غير ذلك من عوامل النفس الظاهرة بالغاية التي لاجلها يحاربون . جهلوا أو تجاهلوا ان المدينة التي يفتحونها هي اورشليم المقدسة ، فدخلوها كمن سبقهم من فاتحي اورشليم الجهلة العتاة السفاكين ، مثل نبوخذ

نصر والرومان والسلاجقة وغيرهم ، فعاثوا في المدينة قتلا ونهباً . أن الفوز أسكرهم وبهر أعينهم ، وأعمى بصائرهم ، حتى أنهم لم ينتبهوا ولم يتذكروا زيارة المقدسات إلا بعد أن شغفوا نفوسهم بالقتل وسفك الدماء . ويشهد المؤرخون أن قائد حملة الصليبيين غودفري كان رجلاً نقياً وشهما كريماً ، وإن جميع ما جرى من الماسي لم يكن بإرادته ، فقد كانت هناك انقسامات بالرأي بين القادة ، وكل سار على هواه .

وكان أول عمل قام به الصليبيون عندما احتلوا مدينة القدس ، أن دخلوا كنيسة القيامة دخلوها حفاة ، وقدموا صلوات الشكر لله . ثم بعد ذلك وجهوا اهتمامهم الكبير إلى تعمير كنيسة القيامة وما حولها وتصليح ما هدم من كنائس .

وقد ذكر أسقف صور (غوليمس) وهو مؤرخ أيضاً ، أن الصليبيين حافظوا قدر الإمكان على ما كان قائماً في الكنيسة من بنيان . إلا أنهم جمعوا المعابد المتفرقة في كنيسة واحدة هي مبنى كنيسة القيامة الحالية ، جمعوها تحت سقف واحد ومئين . وزادوا على ذلك بأن بنوا إلى الشرق من القبر المقدس كنيسة لها ثلاث حنايا من جهة الشرق ، وهي المعروفة في وقتنا الحاضر بكنيسة نصف الدنيا . ثم شادوا قبة نحيفة لكنيسة الصليب . وبنوا في محل الشهادة ديراً صغيراً هو الآن بيد الإقباط . وأضافوا إليها صحناً وأسماً ، وهيكل للكهنة ، وبهذه الزيادات المخلفة أصبحت كنيسة القيامة الأصلية في المركز ، ومن حولها الابنية الكنسية العديدة ، متصلة بكنيسة الجلجلة ، في مجموعة من الكنائس المتداخلة بعضها ببعض من جميع الجهات .

ورفع الصليبيون فوق الزاوية الجنوبية الغربية برجاً للجراس كان ذا ثلاثة طوابق ، هدم منها بفعل الزلزال طابقان هما العلويان وبقي الطابق السفلي كما كان . والبابان الكبيران اللذان نراها في واجهة كنيسة القيامة من الناحية الجنوبية ، هما من عمل الصليبيين ، وقد سد أحدهما بما بعد .

المملكة اللاتينية في القدس

بعد فتح القدس أسس الصليبيون فيها مملكة لاتينية صغيرة ، واختاروا القائد غودفري دو بويون أميرا عليها . فأخذوه الى كنيسة القيامة وتوجوه فيها . ولكنه توفي بعد سنة ودفن في كنيسة القيامة ، في أول غرفة عن يمين الداخل الى الكنيسة تحت الجلجلة .

وبعد وفاة غودفري ، توج ملكا مكانه بلدوين الاول ، وكان تتويجه في يوم عيد الميلاد ٢٥ كانون أول سنة ١١٠٠ م ، فوق مغارة المهد ، ولكنه أبى أن يلبس التاج الملكي الذهبي ، بل اكتفى بوضع اكليك من الشوك على رأسه ، كما فعل اليهود بالمسيح قبل صلبه عندما هزأوا به ولقبوه ملك اليهود ووضعوا اكليلا من الشوك على رأسه .

وفي يوم خميس الصعود سنة ١١١٨ م احتفل بتتويج بلدوين الثاني ملكا على المملكة اللاتينية في القدس . وكان الاحتفال بالتتويج مكان تتويج سلفه بلدوين الاول ، أي في كنيسة المهد في بيت لحم وفوق مغارة المهد ، وقد أبى بلدوين الثاني أن يضع التاج الملوكي الذهبي فوق رأسه . . . بل اكتفى بوضع اكليك من الشوك ، كما فعل سلفه من قبله .

وقد اتسعت المملكة اللاتينية في القدس حتى أصبحت تشمل منطقة طولها أكثر من ألف ميل وغرضها نحو الخمسين ، وتشتمل من شاطئ البحر الأبيض المتوسط على البقعة الممتدة من انطاكية الى يافا وغزة حتى العريش ، وفي شرقها مدينة الكرك وشرقي الاردن وفي جنوبها ميناء العقبة ، وكانت هذه المنطقة ذات اهمية كبيرة جدا من الناحيتين السياسية والتجارية ، اذ كانت تسيطر على طرق القوافل التجارية التي تربط الشام بمصر ، ولكنها في نفس الوقت كانت محاطة بمدن كبيرة ، ترابط فيها جيوش المسلمين ومنها الشام وحلب . ومن هذه المدن كانت تخرج من حين لآخر هجمات وغزوات متكررة ، تفاجئ جيوش الصليبيين هنا وهناك .

وكانت واردات الدولة اللاتينية ، عبارة عن رسوم تجبي من القوافل مقابل مرورها من أراضي هذه المملكة ، وعوائد أخرى كانت تجبي في المرافئ وهي تشبه العوائد الجبركية في وقتنا الحاضر . وأرباح كانت تستوفى من مواد حصرت تجارتها في فئة من الناس ، ورسوم المحاكم ، وضرائب شخصية تجبي من

المسلمين واليهود ، والجزية . ولكن لم يكن ثمة نظام مالي ، ولا كانت هناك أنظمة معينة لجباية هذه الرسوم والعوائد .

وكانت الإدارة في ذلك العهد لامركزية ، بل تقوم على أساس الحكم القطاعي . وكان الأمراء الثلاثة في الشمال نوعا ما مستقلين : فقد كانوا يعقدون المعاهدات المنفردة مع من شاءوا ، ويصدرون القرارات التي تنفعهم وتؤيد مصالحهم الشخصية ، دون أن يستشيروا الملك في القدس . ولم يكن للملك سلطة واسعة تخوله حق مطالبة هؤلاء الأمراء بالاذعان لأوامره . وكل أمر يقيم له حصنا منيعا يتحصن فيه ويسعى لتوسيع حدوده غير عابئ بالملك ورغائبه . وقد حارب بعضهم بعضا ، ونسي معظمهم المصلحة العامة ، ونسوا أيضا الفائدة الدينية التي حاربوا في سبيلها ، وهبطوا البلاد من أجلها .

لم تؤثر الحملات الصليبية على البلاد من حيث اللغة ، اذ ظل العرب عربا يتكلمون العربية ويخاطبون الفرنجة عند الحاجة بواسطة التراجمة ، ولم يحاول الصليبيون أن يراعوا عوائد البلاد ، أو يلبسوا الثياب التي يلبسها السكان ، بل ظلوا متمسكين بعوائدهم ، وراحوا يؤثرون الثياب الفخمة التي لا تلائم الوسط الذي يعيشون فيه . واعتبر بعض المؤرخين أن عملهم هذا كان سببا رئيسيا من أسباب انكسارهم فيما بعد . لم تستفد البلاد من الحملات الصليبية كثيرا ، وإنما كانت البلاد مصدر غنائم وفوائد للصليبيين أنفسهم ، فقد نقلوا الكثير من المعارف والصنائع الموجودة في بلاد الشرق ، فادخلوها إلى البلاد التي جاءوا منها في أوروبا ، فنقلوا إلى أوروبا شتى العلوم الطبية والتاريخية والجغرافية وغير ذلك . ونقلوا إلى أوروبا الكثير من أنواع أشجار الفاكهة والخضروات وفي طبيعتها ، نبات قصب السكر .

كانت أوروبا قبل الحروب الصليبية ، تسير في معاملاتها التجارية على أساس « التبادل العيني » ، وما كانت تكثرت بالنقد الا قليلا . وفي خلال الحملات الصليبية ، اضطر الصليبيون إلى اتباع حاجاتهم الضرورية بالنقد ، وقد ظل هذا النوع من التعامل بالنقد سائدا بعد تلك الحروب .

وبعد الاحتلال الصليبي زار القدس عدد من السياح وكان بعضهم يرون مشاهداته واليك امثلة منها :-

١- زار القدس بعد بضعة سنوات ١١٠٢م . الرحالة سيولف الولشي . وقد ذكر في كتابه انه قضى في الطريق بين يافا والقدس يومين . وقد وصف وعورة الطريق وخطارها . فهي وعرة لانها جبلية وخطرة لان بعض السكان يرابطون في الطريق . هذا فضلا عن انه يوجد دثمة كثير من الحيوانات المفترسة . وييل

للذين يقتلون على الطريق ، فانهم لا يجدون من يجزؤ على دفنهم . اذ ان من بتأخر
عن القافلة ليدفن رفيقه يعرض نفسه لخطر القتل والاغتيل من العرب الذين
اصبحوا يكرهون المسيحيين كرها شديدا ، بسبب ما فعله الصليبيون بهم في بيت
المقدس .

٢- وزارها سنة ١١٠٦م راهب روسي يدعى « دانيال » ، وكتب عنها وعن
كنائسها الشيء الكثير . ومما قاله ان القدس مدينة كبيرة ، تحيط بها اسوار
منيعة عالية ، وان اسوارها بنيت بشكل مربع اضلاعه متساوية . ومع ذلك فان
الحكم اللاتيني لم يكن موطد الاركان الا في داخلها . واما خارج الاسوار ، فقد
كان جبل الامن مضطربا ، وان الثوار العرب كانوا منتشرين في جميع انحاء
البلاد . وان التلال والودية الكائنة بين القدس ووادي الاردن ، كانت مسرحا
للنهور والضباع والاسود ووحوش الفلا . وان المدينة محاطة بعدد من الودية القاحلة
والجبال الجرداء . وانه لا نهر فيها ، ولا عينا جارية ، خلا بركة سلوان . وليس
لدى السكان ما يشربونه او يستقون به دوابهم سوى مياه الامطار . ومما قاله
دانيال : ان زراعة الحبوب ناجحة في تلك الاراضي الصخرية رغم ندرة الامطار .
وانه لمن فضل الله على سكان القدس ان تعطي الحبة التي يزرعونها ، قمحا
كانت ام شعيرا ، مئة وتسعين حبة ، مع ان الحبة الواحدة لا تثمر في انحاء
فلسطين الاخرى اكثر من خمسة وعشرين ضعفا . الى ان قال انه يوجد حول
القدس مساحات واسعة من الكروم التي تزرع فيها اشجار العنب والتين والجميز
والخروب والزيتون وما الى ذلك من الفواكه الاخرى .

٣- وقد زار القدس سنة ١١٧٢م الرحالة الالماني ثيودوريتش فقال عنها :
انها مدينة جبلية ، لكن صخورها جميلة ، فيها الابيض والاحمر والرخام المتعدد
الالوان . وكلها صالحة لاختذ حجارة البناء . اما حيث يتجمع بعض التراب بين الصخور
فتنمو جميع انواع الفواكه ، وتكون الجبال مكسوة بالكروم والتين والزيتون .

واما الودية فتبلاها الحبوب والبساتين . اكثر شوارعها مبلطة
بالواح كبيرة من الحجارة . وهي مسقوفة بعقود حجرية . فيها نوافذ يدخل منها
النور . وبيوتها مبنية من الحجر الجميل النقش . واسطحها مستوية . وليس
لديهم اي ماء سوى ماء المطر الذي يجمعونه في ابار محفورة لهذه الغاية :
والخشب غالي الثمن في القدس لانه يأتيها من مكان بعيد الا وهو لبنان .

ملوك المملكة الصليبية

وقد تعاقب على الدولة اللاتينية في القدس الملوك التالية أسماؤهم ، نذكرهم لفائدة الناشئ في دراسته ، وقد تكون مرجعا مفيدا له . وهم حسب تاريخ حكمهم : —

- | | |
|------------------------------------|--------------------------------------------|
| 1 — Goodfrey de Bouillon | ١ — غودفري دوبيون ١٠٩٩ — ١١٠٠ م |
| 2 — Baldwin I. | ٢ — بلدوين الاول ١١٠٠ — ١١١٨ م |
| 3 — Baldwin II. | ٣ — بلدوين الثاني ١١١٨ — ١١٣١ م |
| 4 — Melisende & Fulk of Anjou | ٤ — ميليسنده وفولك انجو ١١٣١ — ١١٤٤ م |
| 5 — Melisende & Baldwin III . | ٥ — ميليسنده وبلدوين الثالث ١١٤٤ — ١١٥٢ م |
| 6 — Baldwin III . | ٦ — بلدوين الثالث « وحده » ١١٥٢ — ١١٦٢ م |
| 7 — Amaury I . | ٧ — اموري الاول ١١٦٢ — ١١٧٣ م |
| 8 — Baldwin IV . | ٨ — بلدوين الرابع ١١٧٣ — ١١٨٥ م |
| 9 — Baldwin V . | ٩ — بلدوين الخامس ١١٨٥ — ١١٨٦ م |
| 10 — Sybil & Guy de Lusignan | ١٠ — سيبيل وغي دو الوزغنان ١١٨٦ — ١١٩٠ م |
| 11 — Guy de Lusignan | ١١ — غاي دولوزغنان « وحده » ١١٩٠ — ١١٩٢ م |
| 12 — Isabella & Henry of Champagne | ١٢ — ايزبلا وهنري اوف شامبان ١١٩٢ — ١١٩٧ م |
| 13 — Isabella & Amaury II . | ١٣ — ايزابلا واموري الثاني ١١٩٧ — ١٢٠٥ م |
| 14 — Isabella . | ١٤ — ايزبلا « وحدها » ١٢٠٥ م |
| 15 — Mary . | ١٥ — ماري ١٢٠٥ — ١٢١٠ م |
| 16 — Mary & John de Brienne . | ١٦ — ماري وجون دوبرين ١٢١٠ — ١٢١٢ م |

- 17 — Yulande & John de Brienne . ۱۷ — یولانده و جون دوبریسن
۱۲۱۲ — ۱۲۲۵ م
- 18 — Yulande & Fredrick . ۱۸ — یولانده و فریدریک
۱۲۲۵ — ۱۲۲۸ م
- 19 — Conrad & Fredrick . ۱۹ — قونراد و فریدیک ۱۲۲۸ — ۱۲۴۳ م
- 20 — Conrad . ۲۰ — قونراد « وحده » ۱۲۴۳ — ۱۲۵۴ م
- 21 — Conradin . ۲۱ — قوناردین ۱۲۵۴ — ۱۲۶۸ م
- 22 — Hugh . ۲۲ — هوغ ۱۲۶۹ — ۱۲۷۷ م
- 23 — Charles of Anjou . ۲۳ — شارل اوف انجو «یطالب بالعرش»
۱۲۷۷ — ۱۲۸۴ م
- 24 — John . ۲۴ — جون ۱۲۸۴ — ۱۲۸۵ م
- 25 — Henry . ۲۵ — هنري ۱۲۸۵ — ۱۲۹۱ م

احتلال الصليبيين لبيت لحم

ذكرنا في الفصول السابقة ان حملة الصليبيين جاءت عبر بلغاري وهنغاريا الى القسطنطينية ، ومنها سارت مع ساحل البحر المتوسط محتلة انطاكية وطرابلس والمدن التي تليها حتى احتلت مدينة يافا . ثم اتجهت شرقا الى داخل البلاد فاستولت على مدينة الرملة مركز الحكم العربي في فلسطين ، صباح الثالث من حزيران سنة ١٠٩٩م . وكان سكانها قد هجروها والتجأوا الى القدس طلبا للامان . بعد ان دمروا كنيسة القديس جريس الشهيرة ، انتقاما من المهاجمين الصليبيين . وبعد سقوط الرملة اعاد الصليبيون تنظيم صفوفهم وتابعوا مسيرتهم الى الشرق فاحتلوا عرطوف وعمواس في طريقهم الى بيت المقدس . وأمر قائد الصليبيين باعادة بناء الكنيسة الشهيرة وأسسوا اسقفية اللد والرملة ، معنيين الكاهن النورماندي روبرت الروني اسقفا عليها ، وتركوا حامية صغيرة تحت امرة هذا الاسقف في الرملة ، واتجهوا شرقا صامدين الجبال في اتجاه القدس فاقرب منها طليعتهم من جهة النبي صموئيل .

وكذلك حشد العرب قواهم لحماية القدس في المناطق المحيطة بالمدينة ، مما اخاف اهالي بيت لحم خوفا شديدا على اقدس ما لديهم ، كنيسة المهد ، التي كثيرا ما نجت من الهدم بدفع فدية باهظة في كل مرة . فاتفقوا على ان يرسلوا وفدا منهم الى الصليبيين ، يطلبون النجدة منهم ، قبل ان يهاجمهم المسلمون انتقاما من الصليبيين ، كما فعلوا في الرملة واللد . وتسلل وفد اهالي بيت لحم الى عمواس عن طريق بيت جالا وعين كارم ، تحت جنح الظلام ، وطلبوا النجدة السريعة من قائد الصليبيين لتخليصهم مع كنيستهم من الخطر المحتوم .

فاختار القائد الدوق فودفري مائة فارس من الشجعان وارسلهم تحت امرة قائديه تنكريد وبلدوين دي لي بوج ، مع وفد بيت لحم بعد غروب الشمس ، مارين فوق الجبال والادوية حتى دخلوا بيت لحم حوالي منتصف الليل . فدب الرعب في قلوب الاهلين معتقدين ان المهاجمين هم جيش مصر المرسل الى القدس للوقوف في وجه الصليبيين . وما ان بزغ فجر السادس من حزيران سنة ١٠٩٩م وعرفت هوية الفرسان حتى خرجت المدينة بكامل سكانها ، يتقدمهم رجال الدين بحملهم الكهنوتية من كنيسة المهد لاستقبال المنقذين . وساروا يحتفون بهم حتى دخلوا الكنيسة ومنها الى مغارة المهد حيث اقاموا صلاة الشكر للباري على هذه النجاة للاهالي وكنيستهم . ثم رفع الفرسان علم تنكريد فوق مدخل الكنيسة ، فاعتبر النورمانديون كنيسة المهد ملكا لهم .

وبدا النزاع بين الامراء والقساود الصليبيين على الحكم في بيت لحم والقدس فادعى تنكريد ملكيته على بيت لحم وهو الذي احتلها ، وعارض رجال الدين اذ رفضوا أن تكون الاماكن المقدسة ملكا للسلطة الزمنية من الحكام والاسياد . لكن تنكريد أصر على ادعائه ، رغم المعارضة الشديدة من رجال الدين . وأخيرا ترك الامر بدون حل ، ليبدأ النزاع على حكم وملكية القدس بعد احتلالها . فثار رجال الدين قائلين هل من ملك أرضي يحكم المكان الذي عاش وتألم وصلب فيه السيد المسيح عليه السلام .

وانتخب غودفري ملكا على المملكة اللاتينية في القدس ، لكنه رفض لقبواه لبس التاج الذهبي ، ورفض لقب الملك ودعى نفسه ، حامي وبارون القبر المقدس . وامتدت سلطته من سهل جزيل شمالا حتى النقب جنوب مدينة حبرون « الخليل » وحصن الفرنج هذه المدينة ليحفظوا الامن والسيطرة في هذه المنطقة التي معظم سكانها عرب مسلمون .

اسقفية بيت لحم

وفي سنة ١١٠٩م كتب الملك بالدوين الاول الى البابا روما حاثا اياه أن يجعل بيت لحم مركزا اسقفيا ، فأجابه الى ذلك في العام اللاحق ، ضاماً منطقة عسقلان تحت السلطة الدينية لاسقف بيت لحم وانتخب الراهب انسلين اسقفا لاتينيا على بيت لحم . وانتشرت املاك هذا الكرسي الاسقفي في كل انحاء فلسطين وفي فرنسا وايطاليا واسبانيا واسكتلندا ، جاءت كلها تبرعات من الامراء والاثرياء في تلك البلاد .

وتفيد كتب التاريخ أنه قد تعاقب على منصب اسقف بيت لحم ، الاشخاص التالية اسمائهم :

١- الاسقف انسلين ١١١٠-١١٢٨م . ANSELINE

٢- الاسقف انسلموس ١١٢٨-١١٤٣م ANSELMUS

٣- الاسقف جيرارد الاول ١١٤٨-١١٥٢م GIRARDI

وهذا أخذ نراباً من مغارة الحليب في بيت لحم وجعله على شكل سبيكة ، واهداها الى الملك بالدوين الثالث (بركة) اثناء حصاره مدينة عسقلان .

٤- الاسقف رؤول ١١٥٥-١١٥٦م حتى سنة ١١٧٤م RAOUL

وقد اشتهر هذا الاسقف في كتب التاريخ بقامته المديدة ، وغزارة علمه وحكمته .

والاسقف رؤول هو انكليزي نورماني ، ومستشار الملكة اللاتينية . ووصفه وليم من ثابر قائلاً : يأخذ هذا المستشار الملكي الكلمة بمعناها وحذافيرها وله حكمة عالية . انكليزي الجنس حر ولطيف ، جميل المنظر وله مكانة عالية لدى الملك والملكة والحاشية والكهنة . ويفضل الاسقف رؤول توثقت العلاقات بين تانكريد النورماني والامكن المقدسة . فكان للاسقف رؤول الفضل في تمكين الاول خلفاً من العلاقات الطيبة بين كنيسة المهد في بيت لحم وانكلترا النورمانية .

٥- الاسقف البرتوس ١١٧٦-١١٨٦م . ALBERTUS

ثم أصبح بطريرك القدس في سنة ١١٨١م ، وفي عهد الصليبيين اسندت

إدارة الكنيسة في القدس وبيت لحم إلى رئيس ديني ويساعده فريق من الرهبان من أتباع نظام رهبنة القديس أغسطين . وهذا النظام بأن يبني دير له عدة غرف ، كل غرفة تنسج لنوم عدد من الرهبان ، وقاعة طعام وكنيسة صغيرة لأقامة الصلوات ، ويقع هذا الدير حول ساحة مربعة مفتوحة ، تحيط بها من جهاتها الأربعة ممرات مسقوفة تحيطها الأعمدة المزدوجة ذات الرؤوس الجميلة . وقد عرف الدير الذي بناه الصليبيون في بيت لحم باسم دير القديس أغسطين ، الذي قامت مكانه فيما بعد كنيسة القديسة كاترينا . وعرف الرواق في وسط الدبر باسم رواق القديس جيروم .

وقد سبق في فصل سابق وصف كنيسة القديسة كاترينا ورواق القديس جيروم بقدر ما نيسر لي من المعلومات من مختلف الكتب ، بينما أحجم الكهنة ورجال الدين الذين يمكنهم أن يمدوني بالمعلومات التي يعرفونها عن هذه الأماكن ، سامحهم الله ، والهمهم حب الخير وتقديم المعرفة للأهالي .

وفي سنة ١١٠٢-١١٠٣م زار بيت لحم حاج من أوروبا يدعى سيولف فقال : وجدت القرية المسماة بيت لحم مردومة حيث دمرها العرب كباقي البلدان في الأرض المقدسة خارج أسوار اورشليم ، عدا كنيسة مريم العذراء التي كانت فخمة وجميلة . وكانت كنيسة المهد تعمر في حينه بهذا الاسم .

ودام احتلال الصليبيين لبيت لحم مدة ثمانية وثمانين عاما ، جرى خلالها إعادة اعمار البيوت المهدمة ، وانتعشت فيها بيت لحم اقتصاديا وتوسعت ، وزاد عدد سكانها من الحجاج القادمين مع عائلاتهم من الشرق والغرب ، الذين سكنوا بيت لحم وتزاوجوا مع سكانها السابقين . كذلك زاد عدد الحجاج من كل بقعة من الأرض حاملين الهدايا للكنيسة معهم ، ومبتاعين الهدايا التذكارية من التجار التلاحمة والغرياء الذين كانت متاجرهم عبارة عن بسطات على الأرض أمام مدخل الكنيسة . وقد شيد الصليبيون سورا مع برج حول الكنيسة لحمايتها من العدو .

وفي سنة ١١٠٦-١١٠٧م جاء في وصف الاسقف الروسي دانتال لزيارته إلى بيت لحم قال : يحيط بكنيسة المهد الواقعة في بقعة متروكة غير مأهولة سور . كما يحيط بالبلدة بيت لحم سور أيضا . وكانت بيت لحم القديمة بعيدة عن الكنيسة قليلا إلى الغرب .

وقد لفتت شهرة بيت لحم النامية والمتزايدة انظار المسكونة إلى الكنيسة المتهاوية فيها . وصادف لحسن الحظ اتفاق وتفاهم في هذه الفترة ، بسبب تصاهر بين المملكتين ، إذ اقترن بالدوين الثالث ملك اورشليم من ثيودورا ابنة اخ

الامبراطور البيزنطي مانويل كومينيوس ، والتقى العاهلان لقاء وديا في معسكر
الامبراطور في انطاكية ، ويغلب الظن ان يكون اسقف بيت لحم رؤول ، قد حضر
هذا اللقاء بحكم منصبه مستشارا ملكيا ، شرح لهما وضع كنيسة المهد وحاجتها
الى الترميم .

فقام الامبراطور البيزنطي مانويل كومينيوس بتقديم الاموال والمهندسين ،
فكان ترميها شاملا للكنيسة الكبرى والمغارة والجدران والسقف ، فنزع
البلاط العادي ليحل مكانه بلاط رخامي ملون ، وغطيت جدران الكنيسة بالرخام
المصقول حتى مستوى راس الاعمدة ، وما فوق ذلك نقش فسيفساء مذهبة وملونة
من الزجاج والصدف . اما السقف فكانت دعائمه من خشب أرز لبنان الضخم ،
غطي من الاعلى بصفائح رصاصية . كما شيد برج الجرسية ، وهيكل داخلي
مصقول لزاوية الكنيسة الجنوبية الشرقية ، يعرف اليوم باسم كنيسة مار جريس
واستعملت بعض الكهوف الواقعة تحت الحنية الجنوبية لكنيسة المهد ، مقبرة
مشتركة حتى سنوات طويلة بعد عهد الصليبيين . وبقيت هذه المقابر مدفونة
حتى اكتشفت في حفريات سنة ١٩٣٤ م . فقام دير الروم في بيت لحم بناية مناسبة
على مدخل هذه المقابر . وفي ذلك الحين تسنى لي الدخول الى هذه المغاور وشاهدت
عددا من الجماجم البشرية لا تزال فيها .

عهد صلاح الدين الايوبي

كان العالم الاسلامي ، قبل الفتح الصليبي ، يتخبط في دياجير الفوضى والانقسام ، وكان الفاطميون من ناحية ، والسلجوقيون من ناحية اخرى ، ينازعون العباسيين السلطة ، فراحت البلاد نهبا مقسما بين هؤلاء وهؤلاء .

في تلك الفتره من الزمن قام بنو زنكي من ممالك السلاجقة ، فاقطعوا ولايه الموصل في شمالي العراق ، بقيادة نور الدين ، الذي اشتهر بمناهضته الفرنج ، فامتد الى سوريا واحتل دمشق سنة ٥٤٩هـ - ١١٥٤م . فاختار اسد الدين شيركوه ، الذي هو عم صلاح الدين الايوبي ، قائدا عاما لجنده . فقام هذا القائد بغزو مصر ثلاث مرات ، وجرى بينه وبين الصليبيين وقائع كثيرة ، ابلى فيها بلاء حسنا . فولاه العاضد الوزارة ولقبه الملك المنصور .

ولما توفي اسد الدين شيركوه ، اختار العاضد ، بطلب من امراء الجند ، ابن اخيه يوسف صلاح الدين للوزارة . وقد اتفق اهل التاريخ على ان اياه واهله من « دوين » من اعمال انريجان ، ومن قبيلة كردية . ولد سنة ٥٣٢هـ - ١١٣٧م بقلعة نكريت في العراق .

ناوا صلاح الدين الصليبيين مناوأة شديدة ، واغار عليهم في الكرك وعسقلان والرملة وغزة فآزعجهم ، ثم فتح العقبة ، وتوغل في السودان وضمه الى مصر . وارسل اخاه شمس الدولة الى اليمن ففتحها . وفي سنة ٥٦٧هـ - ١١٧١م : وبناء على طلب نور الدين ، امر صلاح الدين بلبس الملابس السوداء شعرا العباسيين ، وخطب في الجوامع للخليفة المستضيء ، وقطع خطبة الفاطميين . وفي سنة ٥٧١هـ - ١١٧٥م ولاه الخليفة حكم مصر والنوبة والمغرب وسوريا وفلسطين .

كان الصليبيون قد أسسوا بعد احتلالهم القدس ، اربع مقاطعات : الاولى في القدس ، والثانية في الرها وأرنا ، والثالثة في طرابلس الشام ، والرابعة في انطاكية . وكان هم صلاح الدين في الدرجة الاولى ، كسر شوكة الصليبيين واخراجهم من البلاد التي يسيطرون عليها . فرأى بعين ثاقبة ان ذلك لن يتم له الا اذا احتل القدس التي كانت السبب في مجيئهم الى هذه البلاد . فلم ينقطع عن بث الارصاد وارسل الفدائيتين الى بيت المقدس وما حولها من بلاد ، ليجوسوا خلال الديار ، ليعرفوا كيف ومن أين يمكن مهاجمتها واسترجاعها . ولذلك كان يرسل جنده من حين لآخر للاغارة على القرى الواقعة تحت حكم الصليبيين ، فيخرجون من دمشق ويعودون اليها .

واسنهر صلاح الدين يغير على مواقع الصليبيين حتى سنحت له الفرصة .
ولكن أهمها كان المعركة الفاصلة التي وقعت في حطين (٢٥ ربيع الثاني
٥٨٣ هـ - ١٨٧ م) بين جيوش الصليبيين ، كان النصر فيها حليفه . وكان
انتصاره هذا مقدمة لمهاجمة بيت المقدس .

اثبت صلاح الدين بتصرفاته انه امهر قائد نزل الى ميادين الحروب خـلال
القرون الوسطى ، فانه قبل ان يحاصر القدس ، ارسل الى قائده لؤلؤ رسالة ،
أمره فيها ان يراقب الشواطىء أثناء حصاره بيت المقدس ، لئلا يأتي للصليبيين
مدد من أوروبا . وأمره بالاستيلاء على أي موكب أو سفينة لاتينية يراها تبحر في
البحر . ولم يهاجم بيت المقدس الا بعد ان استولى على عسقلان وبيت جبرين
من الجنوب ، وبعد ان طهر وادي الاردن من الشرق .

في ٢٠ ايلول ١١٨٧ م ، شوهدت طلّاع جيش صلاح الدين تقترب من أسوار
بيت المقدس ، اتية من الجنوب من جهة الخليل . وكانوا مزيجا من العرب والكرد
والأتراك . فعسكروا في النيقينوريه (الواقعة بين محطة القطار ومأمن الله
حاليا) . ولكن سرعان ما ظهر لصلاح الدين ان هذا المكان ليس بمناسب لاجل
الشروع في عمليات الحصار ، وان الصليبيين المحاصرين قد يستغلونـه
لمصلحتهم ، لان سور بيت المقدس من جهة الغرب مشيد على اكمة مرتفعة
وعلى السور في تلك الضاحية أبراج تسيطر على المواقع التي احتلها ، فلا يستطيع
بناء الابراج التي كان لا بد من بنائها لضرب المدينة بالمنجنيقات . فان طيغ
الارض التي عسكر عليها لا تسمح لهذه العمليات ، وبالإضافة الى هذا فان
الشمس التي تشرق من الشرق ، ستكون دوما معاكسة للجيش الذي يأتي من
الغرب طوال النهار ، من ساعة اشراقها حتى حين مغيبها ، فلا يستطيع
المهاجم ان يحارب خلال تلك المدة .

ارسل صلاح الدين طلائعـه ليستكشف الجهات الاخرى من أسوار
بيت المقدس . ولما تم له ذلك ، قام في اليوم الخامس بنقل جيشه الى الناحية
الشمالية من المدينة . فالارض هناك واسعة ومنبسطة وتتسع لنزول الجيش
عليها براحة وسهولة . وأهم شيء انه بإمكانه في هذا المكان ان يقترب كثيرا
من السور اذ لا اكام ولا حـصـاب . أضف الى ذلك ان السور من الناحية
الشمالية كان اضعف من الجهات الاخرى وأكثرها انخفاضا . وكانت هناك طريق
موازية لاستقامة السور . ومع ذلك فقد قضى صلاح الدين في هذه الناحية
عشرين يوما ، قبل ان يتمكن من احتلال المدينة ، ذلك لانه كان يحتاج الى بعض
الوقت لترتيب الات الحصار .

فالمدينة كان فيها يومئذ ستون الف مقاتل ، وكانت محاطة بسور منيع مرتفع

يتصرف على كل المناطق المحيطة خلفه . فلم يكن من السهل لحنلال هذه المدينة قبل ان يعد جميع المعدات التي يلزمه للهجوم .

عندما اتم صلاح الدين ترتيباته ، وركب الات الحصار ، وأصبح قادرا على اقتحام الاسوار ، بعث في طلب اشرف المدينة وخاطبهم بقوله :

« انتي احترم مدينة بيت المقدس ، ولا أرغب في انهاك حرمتها باراقة الدماء فيها ، ولهذا انصحكم بترك المدينة ، وأنعهد من جهتي بأن أعوضكم عن أموالكم بالاموال والاراضي » .

ولما رفض اهل المدينة الاذعان لطلبه ، اخذ يضربها بالمنجنيقات ، فقام قتال عنيف بين الفريقين ، مات فيه خلق كثير من الجانبين . ولكن دفعة جيوش صلاح الدين كانت هي الراجحة ، فالابراج قد تهدمت والصور قد انثلم من ناحية وادي جهنم . فيئس الصليبيون وارسلوا رسولهم الى صلاح الدين ، باليان بن نيرزان صاحب مدينة الرملة ، فعرض عليه الاستسلام ، فرفض صلاح الدين في بادىء الامر ، قائلا :

« انه لم يمنحهم الشروط الطيبة التي منحها لغيرهم ، ولا بد من دخول بيت المقدس كما دخلها الصليبيون قبل ٨٨ عاما ، عندئذ استولى الخوف على سكان المدينة .

وبعد ايام قلائل عادوا فارسلوا باليان ليفاوض صلاح الدين . وقد طلب الرسول من صلاح الدين الصلح باسم اله البشر اجمعين . ومما قاله باليان الى صلاح الدين ، انهم لن يسلموا المدينة بسهولة ، سوف يذبحون نساءهم واطفالهم لئلا يقعوا في ايدي صلاح الدين . وانهم سوف يضطرون الى هدم مسجدي الصخرة والاقصى ، ويقتلون الاسرى الذين عندهم في داخل الاسوار ، وعددهم خمسة الاف اسير ، ثم يحاربون حرب الابطال حتى اخر رمق .

استشار صلاح الدين قواده ورجاله ، وبناء على مشورتهم منح الصليبيين ما يطلبون ، واتاح لهم مغادرة المدينة لقاء الجزية ، خلال ٤٠ يوما . ووضع على ابواب المدينة امناء ليحصلوا له الجزية . فابتدا خروج المحاصرين في اليوم الثاني من اكتوبر . وفي ذلك اليوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ - ١١٨٧ م ، احتلت جيوش صلاح الدين بيت المقدس ، وكان ذلك بعد بزوغ الشمس بثلاث ساعات .

اظهر صلاح الدين الكثير من التسامح في معاملته مع الصليبيين ، فانه رغم انه حدد الفدية بعشرة دنائير شامية عن كل رجل ، وخمسة دنائير عن كل امرأة ،

ودينار واحد عن كل طفل ، وحصل عن هذه الطريق ما يقرب من مائة الاف دينار .
فانه عفا عن كثيرين منهم لضيق حالهم . فلم يدفعهم الجزية . ويقول المؤرخون
ان صلاح الدين ، افتدى هو وحده عشرة الاف شخص من العجزة والفقراء ، واطلق
اخوه سيف الدين ابو بكر ، الملقب بالعادل سراح سبعة الاف شخص .

ومن أعمال صلاح الدين بعد دخوله بيت المقدس انه :-

١- سمح لجميع الجنود الصليبيين بأن يغادروا المدينة خلال أربعين يوما ، وضمن
لهم سلامة الرحيل الى صور وطرابلس .

٢- أمر بتوزيع الصدقات على الفقراء والمرضى والإرامل واليتامى والمقعدين ،
وأن يزودوا بالدواء .

٣- استأذنته الملكة « ايزابيلا » بالسفر فأذن لها ولرهب كبير من النساء اللواتي
كن معها . ولم يكتف بذلك ، بل أمر بررد الاسيرات الى أقاربهن .

٤- سمح لرجال الصحة رغم أنهم اشتركوا في قتاله ، بأن يواصلوا اسعاف
الجرحي ومعالجة المرضى .

٥- سمح لنصارى بيت المقدس من أهل البلاد ، بأن يبقوا فيها ، فلا يخرجون ، وأن
يؤمنوا على ارواحهم وأموالهم ، ولا يزعمون ، وأقام في بيت المقدس وما
حولها الالوف منهم .

٦- سمح للفرنج باخلاء البيوت ، وبيع ما كان بحوزتهم من الآثاث والقوت ،
وأهلهم حتى باعوا كل ما لديهم .

كتب عماد الدين ، بوصفه كاتب صلاح الدين ، ٧ كتابا الى الولاة والأمراء
في سائر أنحاء البلاد ، يخبرهم بفتح بيت المقدس . ومما جاء في كتبه ما يلي :

« اجتمع في القدس كل شريد منهم وطريد ، واعتصم بمتعها كل قريب
منهم وبعيد . وظنوا انها من الله مانعهم ، وأن كنيسة الى الله شافعهم . فلما
تركها الخادم رأى بلدا كبلاد ، وجمعها كيوم التناد ، وعزائم قد تألبت وتآلفت
على الموت . فنزلت بعرضته ، وهان عليها مورد السيف وأن تموت بغصته .
فنازل البلد من جانب : فإذا أودية عميقة ، ولجج ووعر عميقة ، وسور قد انعطف
عطف السوار ، وأبرجة قد نزلت مكان الواسطة من عقد الدار ، فعدل الى جهة
أخرى كان للمطالع عليها معرج ، والدخيل فيها متولج ، فنزل عليها ، وأحاط بها ،
وقرب منها ، وضرب خيمته بحيث يناله السلاح بأطرافه ، ويزاحمه السور
بأكتافه ، وقابلها ثم قاتلها ، ونزلها ثم نازلها ، وحاجزها ثم نأجزها ، وضمها
ضمة ارتقب بعدها الفتح ، وصدع جمعها فإذا هم لا يصبرون على عبودية الحد من
عنق الصفع . فراسلوه ببذل قطيعة الى مدة ، وقصدوا نظرة من شدة

وانتظار النجدة . فعرفهم الخادم في لحن القول ، واجابهم بلسان الطول . وقدم المنجنقات التي تتولى عقوبات الحصون عقبها وحبالها ، واوتر لهم التي نرمي ولا تفارقها سهاها ولا تقارقي سهاها نصالها . وقدم النصر بشيرا من المنجنق يخلد اخلاده الى الارض ، ويعلو علوه السمساك . فحينئذ يئس الكفار من اصحاب الدور ، كما يئس الكفار من اصحاب القبور ، وجاء امر الله وغرهم بالله الغرور . . . » .

بعد احتلال القدس انتشر جنود صلاح الدين في شوارع المدينة واحياها ، يحفظون الامن والنظام . ويحولون دون الفوضى والسرقات . فلا نهب ولا نزاع ، ولا هم يحزنون . وقد رفعت الاعلام الاسلامية على اسوار بيت المقدس ، ونصب صلاح الدين مخيمه خارج السور ، ليتمكن من استقبال الوفود الكثيرة التي جاءت لتهنئته . ويقول ابن الجوزي ان عدد المشايخ والرؤساء الذين جاءوا لتهنئته ، زاد عن الالف .

ثم وزع العطايا والهبات على قواد جيشه وامرائه . واقام الولائم ، واطعم الاسرى من المسلمين الذين كانوا بيد الصليبيين . وبعد ان كرمهم وكساهم ، ارجعهم الى بلادهم . وقد احسن صلاح الدين الى عدد كبير من العلماء .

واما كنيسة القيامة ، فقد فكر صلاح الدين ، في بادىء الامر ان يامر باغلاقها ، ولما استشار اصحابه ، اشار بعضهم بهدمها ، خشية ان يلجأ اليها الصليبيون ويتحصنوا فيها . . . اما باقى اصحابه فقد نصحوه الا يفعل ذلك وان يعامل خصومه بالحسنى ، اسوة بالخليفة عمر بن الخطاب ، فعمل بنصحتهم ولم يهدمها ، ولكنه اكتفى باغلاقها مؤقتا ، ريثما ينتهي القتال . وعندما استتب له الامر ، عاد فامر بفتحها ، ففتحت . وقد سمح للمسيحيين بحرية العبادة فيها ، على ان يدفع كل شخص يغشاها من الفرنج قطعة يؤديها عند الدخول ، واستثنى من ذلك النصاري من اهل البلاد .

رحل الصليبيون الذين غادروا بيت المقدس الى انطاكية ، وطرابلس وصور ، فاجتمع منهم في هذه الثغور خلق كثير . وراح هؤلاء يتلقون النجدات التي اخذت بعد ذلك ترد اليهم تباعا من طريق البحر . ولم يكن صلاح الدين بغافل عما فعله الصليبيون ، فقد اتى بعدد من القبائل العربية الى فلسطين واقطعها لهم . فتوطنت في القدس قبائل من بني حارث ، وكانت منازلهم عند الطلعة خارج المدينة . ومن بني مرة من جهة الغرب الشمالي الى سوق الفخر « خان الزيت حاليا » ، وحارة السعدية لبني سعد ، وكانت لهم حراسة باب الخليل ومفتاحه بيدهم . وبلي عقبة الشيوخ من جهة الشمال حارة بني زيد . وحارة الجرامنة « سنسوق القطنين » ثم وزعهم على البلدان .

وقد زاد صلاح الدين في حذره من الافرنج بأن رغب الاعياد والمواسم فسي بلادنا ، بحيث تأتي هذه المواسم وقت عيد الفصح عند المسيحيين ، الذي يأتي فيه الاوروبيون لزيارة القدس وللحج . والسبب في عمله هذا ان الصليبيين كانوا نكثوا العهد مرارا ، فخشي صلاح الدين ان هم دخلوا القدس زوارا ، ان ينقلبوا جنودا ، فيحتلون المدينة . فلذلك رتب « موسم زيارة النبي موسى » الواقع على طريق القدس — اريحا ، لاهل القدس وأعمالها . فيأتي الجميع للزيارة معهم علمهم ، وكن يسميه الناس البيرق ، وعززهم بجبل الخليل وجبل نابلس الذين يردون متعاقبين ، أي في أول يوم لاهالي جبل القدس وتأتي يوم يأتي فيه أهالي جبل الخليل ، وثالث يوم لاهالي جبل نابلس ويكون حضور كل جماعة إلى القدس مع أسلحتهم ومؤنهم وذخائرهم استعدادا للطوارئ . ثم يتجهون إلى مقام سيدنا موسى المعروف حتى يومنا هذا ، ويقيمون خيامهم ومضاريهم هناك ورتب « موسم النبي صالح » لاهالي مدينة الرملة وأعمالها . و « موسم الداروم » لغزة وأعمالها ، وكذلك « موسم المنطار » وموسم « الحسين لعسقلان وأعمالها » و « موسم أبي عبيدة الجراح » لعرب المساعيد والمشالخة والصقر . و « موسم النبي روبين » لمدينة يافا وأعمالها . و « موسم أبي العيون » لبني صعب والشعراوية . وكذلك « موسم علي بن عليم » ، وغير ذلك كثير . وبقيت زيارات هذه المواسم منذ ذلك الحين حتى يومنا هذا .

قبل أن يغادر القدس ، عهد صلاح الدين بإدارتها إلى أخيه الملك العادل « أبو بكر سيف الدين » . فاتخذ هذا دير القديسة مريم على جبل صهيون دارا للحكم ، ونزلها هو وجنده . ولما رحل صلاح الدين عن القدس رحل معه أخوه الملك العادل ، فتولى إدارة القدس أحد أمرائه الأمير حسام الدين ساروج التركي . واستمر هذا الأمر على ولاية القدس إلى زمن وقوع الهدنة بين السلطان والافرنج سنة ٥٨٨هـ — ١١٩٢م فتولاه بعد الهدنة الأمير عز الدين جرديك .

زار صلاح الدين القدس مرة ثانية بعد الفتح وكان ذلك في ثامن ذي الحجة سنة ٥٨٤هـ — ١١٨٨م . ونزل في هذه المرة في دار القسس المجاورة لكنيسة القيامة من الشمال والغرب ، وقد اتخذها مسجدا ورباطا للصلحاء الصوفية ، وهو المعروف في وقتنا الحاضر بمسجد الخانقاة الصلاحية . وكان تاريخ الوقف في الخامس من شهر رمضان ٥٨٥هـ — ١١٨٩م . وفي زمن المهالك أنشأ على هذه الدار منارة ، أنشأها الشيخ برهان الدين بن غانم شيخ الخانقاة حوالي سنة ٨٢٠هـ — ١٤١٧م

رحل السلطان صلاح الدين عن القدس إلى مدينة عكا ، فأتته فيها رسل الملوك لتهنئته بفتح بيت المقدس : من الروم والعراق وخراسان وغيرها . وأرسل إلى الدولة البيزنطية القائد « اسحق القاني » ليخبره بما تم على يديه من فتوحات ، وليسام إليه مائة وتسعين رجلا من رعايا الدولة البيزنطية ، كانوا

قد وقعوا في يده أثناء حروبه ضد الصليبيين . ونج عن هذا البعث أن عقد
الامبراطور البيزنطي والسلطان صلاح الدين حلفا في سنة ٥٨٥ هـ - ١١٨٩ م . وكان
من آثار الهدنة عداء عواهل دول غرب أوروبا للدولة البيزنطية .

اهتم صلاح الدين بتعمير السور ، ونجدد ما تهدم منه ، اهتماما كبيرا .
وجدد أبراجا حربية من باب العمود الى باب الخليل . وحفر حول السور
الخنديق ، لئلا يسهل الدنو منه . وكان يعمل بيده في ذلك ويشترك العمال في نقل
الحجارة ، والصناع في أعمال البناء . كذلك قل عن اولاده وعن اخيه العادل
وامرائه . وبعض الحجارة التي كانوا يقطعونها من الخندق كانوا يبنونها في
السور .

وذكر مجير الدين ج ١ ص ٣٣٨ ، ان الفين من العمال الذين اشتغلوا في حفر
الخنديق وبناء السور مع صلاح الدين ، كانوا اسرى الفرنجة ، وبعضهم من
الموصل ، وان صاحب الموصل ارسلهم مع بعض حبابه . وقد حملهم مقدارا من
المال لينفق في بناء السور ، وان العمل استمر نصف سنة .

ولقد وصف الرحالة الذائع الصيت « موفق الدين عبد اللطيف البغدادي » ،
الذي زار بيت المقدس خصيصا ليرى صلاح الدين ، ذلك السلطان الذي عمت
شهرته الافاق بعد احتلاله هذه المدينة وحرر الصليبيين عنها وعن باقي المناطق .
فوصف اهتمام صلاح الدين ببناء السور بقوله :

« وكان صلاح الدين مهتما في بناء سور بيت المقدس ، وحفر خندقه ،
ويتولى ذلك بنفسه وينقل الحجارة على عاتقه . ويتأس به جميع الناس ، الفقراء
والاغنياء ، الضعفاء والاقوياء ، حتى العماد الكاتب والقاضي الفاضل . ويركب
لذلك قبل طلوع الشمس الى وقت الظهر . ويأتي داره وعيد الطعام ، ثم يستريح ،
ويركب العصر ، ويرجع في المشاعل ، ويصرف الليل في تدبير ما يعمل نهارا .

مات صلاح الدين في دمشق سنة ٥٨٩ هـ - ١١٩٣ م . ودفن في تربة
بنييت له بجوار جامع بني أمية . وكان عمره لما مات نحو من سبع وخمسين
سنة . وترك من الاولاد سبعة عشر ذكرا وبناتا واحدة صغيرة . ولم يخلف
في خزانته سوى سبعة واربعين درهما ، ولم يترك دارا ولا عقارا . وكان رحمه الله
كثير التواضع ، قريبا من الناس ، كثير الاحتمال ، شديد الإدارة ، محبا للفقهاء
واهل الدين والخير ، مائلا الى الفضائل ، يستحسن الشعر الجيد ويردده في
مجلسه . شديد التمسك بالشرعية ، كريما ، ورعا ، وعادلا . والاهم من هذا
كله أنه كان شجاعا ومقداما في الحروب ، حمل جنده وقادته على مجاراته كثيرا في
شجاعته واقدامه . فلا عجب اذا أتى صلاح الدين ببطولاته الشهيرة ، وله
ما تقدم من الصفات الشخصية .

عهد خلفاء صلاح الدين

بعد وفاه صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ - ١١٩٢م . انقسمت امبراطوريته المترامية الاطراف الى عدة ممالك : -

- ١- الشام وفلسطين - لابنه علي الملقب بالملك الافضل ، اي الحسن نور الدين .
- ٢- مصر - لابنه عثمان الملقب بالملك العزيز « ابي الفتح عماد الدين » .
- ٣- حلب - لابنه غازي الملقب بالملك الظاهر « غياث الدين » .
- ٤- الكرك والشوبك وقسم من الجزيرة العربية وما بين النهرين في العراق - لآخيه العادل « ابي بكر سيف الدين » .
- ٥- حمص - لابن عمه شيركوه .
- ٦- اليمن - لآخيه الثاني طفتكين بن ايوب « سيف الاسلام » . والملاحظ ان معظم ملوك اليمن حتى يومنا هذا لا يزالون يلقبون بسيف الاسلام .

وكانت مدينة القدس مضافة للافضل وهو اكبر اخوة صلاح الدين ، وهو الذي انشأ المدرسة الافضلية بحارة المغاربة وتعرف قديما بالقبة . وهو الذي اعادة بناء المسجد الكائن الى الجنوب من كنيسة القيامة ، والذي يعرف حاليا باسم « جامع عمر بن الخطاب » . وكان البناء على اساس بناء جامع قديم ، وكان ذلك في سنة ٥٨٩هـ - ١١٩٣م .

كان من مشاهير رجال صلاح الدين ، امر شجاع يدعى علي بن احمد الامير سيف الدين امين المشطوب ملك الهكارية ، وهي ناحية من نواحي الموصل في العراق ، يسكنها اكراد يقال لهم الهكارية . دخل هذا الامير مصر مع اسد الدين شيركوه ، وعاد بعد سلطنة صلاح الدين الى البلاد الشامية . وفي اثناء زيارته لبيت المقدس ، في سنة ٥٨٨هـ - ١١٩٢م . توفي وصلي عليه بالجامع الاقصى ، ودفن فيه .

ارسل الافضل سلطان الشام وفلسطين ، كتابا الى اخيه العزيز سلطان مصر ، تنازل له فيه عن القدس ، ووافق على الحاقها بمصر ، وكان تنازله هذا بتدبير من وزيره ابن الاثير ، لانها كانت تحتاج الى مال ورجال لدفع عادية الافرنج عنها ، فسر العزيز بذلك . وارسل مع عز الدين جوديك بن عبد الله النوري ، الذي ولاه صلاح الدين نيابة القدس ، ارسل معه عشرة الاف دينار لينفقها على

عسكر القدس ، فخطب له بها ، ثم ارسل اليها جندا آخرين لتقوية عسكر القدس ، خشية أن ينقض الفرنج الهدنة .

وبعد حين بدا للافضل ، أن يتراجع عما تنازل به لآخيه ، واسترجاع ولايته بيت المقدس لحكمه . ورجع فعلا ، وتنافر الاخوان ، وزاد في تنافرها تدخل الامراء في سنة ٥٩٠ هـ — ١١٩٤ م فساءت الاحوال وتنافرت القلوب . وخرج العزيز من مصر بجيش كبير ، يريد لقاء اخيه الافضل ، وانتزع الشام منه . وكان في جيش العزيز عسكر من الصلاحية والاسلامية والاكراد وغيرهم ، وكاد أن ينتزع الشام منه ، لولا أن توسط باقي الاخوة والاعمام واصلحوا ما بينهما .

ولكن الفساد ، عاد فاشتد بين الاخوين باغراء من عمهما العادل ، فأخذ العزيز القدس والشام من يد أخيه الافضل ، وأصبح الحاكم المطلق في مصر والشام معا . ولما استتب له الأمر ، زار القدس في شهر رمضان من سنة ٥٩٢ هـ — ١١٩٥ م ، فأقال « أبا الهيجاء السمين » ، الذي تولى نيابة القدس بعد اقالة الأمير عز الدين جرديك ، وأقام بدلا منه « الأمير شمس الدين سنكر الكبير » .

كان الأمير عثمان الملقب بالملك العزيز وصاحب مصر ، كريما وعادلا ورحيما ، فقد أبطل بعض الضرائب والرسوم التي كانت تجبى من الناس في عهده . ولما توفي الملك العزيز في « ٢٧ محرم سنة ٥٩٥ هـ — ١١٩٨ م » انتقل ملكه إلى ولده محمد ، ولقب بالسلطان الملك المنصور ناصر الدين ، إلا أنه كان صغيرا ، فأقيم الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي ، بناء على توصية أبيه أتابكا ، وهي كلمة تركية مؤلفة من كلمتين : « أتا » بمعنى الاب « بك » بمعنى الأمير . وهي هنا بمعنى الوصي على العرش وقائد الجيش .

ويظهر أن الأمير قراقوش هذا كان مكروها لسبب ما ، وكان بين الامراء من كان يطمع في منصبه هذا . فذكر التاريخ كثيرا عن مؤامرات هؤلاء الامراء . فكتبوا الملك العادل وكان يومئذ في دمشق يستدعونه « لاتابكية » الملك المنصور . ولكن الملك الافضل احبط هذه المؤامرة ، وسار إلى مصر ، فاستولى على أمور الدولة ، ولم يبق للمنصور غير الاسم . وقبض على فريق من المقامرين ، وفر الآخرون خارج البلاد . فانقسمت البلاد إلى قسمين : قسم « بمصر » يؤيد الملك المنصور بوصاية الملك الافضل ، وقسم « بدمشق » يؤيد الملك العادل .

ظل الافضل وعمه العادل يتحاربان ، وكانت الحرب سجالا بين الفريقين ، إلى أن تغلب العادل . فدخل مصر ، وأقام على أتابكية الملك المنصور « ٥٩٦ هـ —

١١٩٩م . ثم خلعه في السنة نفسها ، وتولى السلطنة بدلا منه . فأصبح ملك مصر والشام ، وسمي « السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب » .

اتسعت مملكة العادل ، وخوفنا من وقوع الانقسام والقتال بين أولاده ، قسمها قبل وفاته بينهم على النحو التالي :

- ١- مصر — الى الملك الكامل ناصر الدين محمد .
- ٢- الشرق — الى الملك الأشرف مظفر الدين موسى .
- ٣- خلاط وميفارقين — الى الملك الأوحدين نجم الدين أيوب .
- ٤- من العرش الى حمص — الى الملك المعظم شرف الدين عيسى .

وكان للملك العادل ابن آخر يدعى الملك الأمجد حسن ، وقد توفي في حياة أبيه ، ودفن بالقدس في مدفن بني علي اسمه . وقد جاء في السلوك للمقريزي ص ٦٢٧ أن الملك العادل كان حميد السيرة ، حسن العقيدة ، كثير السياسة ، حنكته التجارب . وكان أكثر ميلا الى المكائد والخدع منه الى الحروب ، صيورا حليما ، مهابا عظيما ، دينيا ، وكان أكولا نهما ، وكان يصيف بدمشق ويشتي في مصر .

توفي الملك العادل سنة ٦١٥ هـ — ١٢١٨م ، وترك في خزانته سبعمائة ألف دينار ، استولى عليها ابنه الملك المعظم ، وكانت القدس من أعماله ، وكان يديرها بالنيابة عنه الأمير عز الدين عمر بن يغمور المعظمي ٦١٠ هـ — ١٢١٣م . وكان يلقب بالمتولي . ثم أدارها الأمير بدر الدين الهكاري ، وتوفي على جبل الطور ، ونقلت رفاته الى القدس ودفن في مقبرة مأمّن الله « ماملا » .

ذكر المؤرخون أن الملك المعظم عيسى كان يحب القدس كثيرا ، ولطالما نزلها متفقدا أحوالها . حتى أنه عندما التقى بالفرنج في الساحل ، وقاتلهم وانتصر عليهم ، رأى أن يبعث بالأسرى الى بيت المقدس ، فأرسلهم اليها منكسي الأعلام .

أن للملك المعظم شرف الدين عيسى أثارا جمة في مدينة القدس ، ومنها :

١- الأروقة التي أمام المسجد الأقصى من الشمال والمؤلفة من سبعة اقواس . وكذلك الأبواب الخشبية الواقعة عندهم مدخل الأقصى من الشمال التي أقامها سنة ٦٣٤ هـ — ١٢٣٦م . .

٢- المدرسة المعظمية : ويقال لها « الحنية » واقعة على طريق سبتنا مريم وللشمال منها ، مقابل الزقاق المؤدي الى باب الحرم المسمى باب العتم .

٣- البرج القائم في وسط القلعة بباب الخليل ، بالقرب من الجامع الى القبلة ،
٦١٠هـ - ١٢١٣م .

٤- سبيل الشعلان - وهو واقع شمالي الحرم بالقرب من الرواق الذي بناه
الملك المعظم .

٥- المدرسة البدرية - الكائنة في وسط المدينة القديمة ، وفي الناحية الغربية من
شارع « القرمي » الذي كان بين شارع السلسلة وشارع السرايا . وقد اندثرت
ولم يبق منها الا بعض الآثار دمجت بالابنية الحديثة . وبالإضافة الى ما تقدم
توجد آثار كثيرة أنشأها الملك المعظم شرف الدين عيسى في القدس وغيرها .

ولكن هذا الملك الذي عمر القدس ، وجد فيها كثيرا من الآثار ، عاد فأمر
بتخريبها سنة ٦١٦هـ - ١٢١٩م خشية أن يستولى عليها الفرنج ، وجاء في النجوم
الزاهرة ص ٢٤٤ ما يلي :

« بلغ الملك المعظم أن الفرنج اعتزموا أخذ القدس ، فاستشار الأمراء في
تخريبها ، فأشاروا بتخريبها قائلين : قد خلا الشام من العساكر . فلو أخذ
الفرنج القدس حكموا على الشام جميعه . وكان بالقدس اخوه العزيز عثمان وعز
الدين ابيك استادار . فكتب اليهما المعظم بخرابه . فتوقفا وقالوا : نحن
نحفظه . فكتب اليهما ثانية وقال : لو أخذوه لقتلوا كل من فيه ، وحكموا على
الشام وبلاد الاسلام . فشرعوا في خراب السور أول يوم من محرم سنة ٦١٦هـ -
١٢١٩م . وخربت أسوار المدينة وأبراجها كلها . خلا برج داود ، وكان غربي البلد ،
لأنه أبقاه . ووقع في المدينة ضججة عظيمة . وخرج النساء والمخدرات
والبنات والشيوخ وغيرهم الى الصخرة والاقصى ، فقطعوا شعورهم ومزقوا
ثيابهم . ثم خرجوا هارين ، وتركوا أموالهم ، وامتلأت بهم الطرقات ، فتوجه
بعضهم الى مصر . وبعضهم الى الكرك . وبعضهم الى دمشق . »

ونقل المعظم ما كان في القدس من اسلحة والآت قتال ، فشق ذلك على
المسلمين ، وذنموا عمله ، وقد هجاه القاضي محمد الدين محمد بن عبد الله
الحنفي ، قاضي الطور بقصيدة لاذعة . ومن الذين ذموا أيضا أسامة بن المنقذ
الكفائي .

عندما مات الملك المعظم عيسى سنة ٦٢٤هـ - ١٢٢٦م صار ملكه
بدمشق والقدس والسواحل ، لولده الملك ناصر الدين داود . ولما كان
هذا صغيرا وعاجزا عن تدبير شؤون الدولة ، فقد هاجمه عمه الملك الكامل ،
وأخذ منه أكثر البلاد التي كانت تابعة له ، ومنها نابلس والقدس ، سنة ٦٢٥هـ
- ١٢٢٧م .

في سنة ٦٢٥هـ — ١٢٢٧م قسّم الامبراطور فردريك ملك الفرنج الى عكا ، وكان قد استدعاه الملك الكامل قبل موت أخيه الملك المعظم . وبعد مفاوضات عديدة تولاها من جانب الملك الكامل ، الامر فخر الدين ابن شيخ الشيوخ ، والشريف شمس الدين الارموي قاضي المعسكر ، وقع الاتفاق بين الملك الكامل وبين الامبراطور فردريك ملك الفرنج ينص على ما يلي :

١- ان يأخذ ملك الفرنج القدس ، وان يبقيا على ما هي من الخراب ، ولا يجدد سورها .

٢- ان تكون سائر قرى القدس للمسلمين لا حكم فيها للفرنج .

٣- ان يكون الحرم — بما حواه — من الصخرة والمسجد الاقصى ، بيد المسلمين لا يدخله الفرنج الا للزيارة فقط ، فيتولاه قوام من المسلمين ، ويقيمون فيه الاذان والصلاة .

٤- وان تكون القرى التي بين عكا ويافا ، وبين اللد والقدس ، بأيدي الفرنج ، دون ما عداها من قرى القدس .

وعقدت الهدنة بينهما مدة عشرين سنوات وخمسة اشهر واربعين يوما . اولها الثامن عشر من شهر ربيع الاول سنة ٦٢٦هـ — ١٢٣٨م وأقسم الملكان : ملك الفرنج فردريك والملك الكامل ، على الحفاظ على ما تقرر في هذه المعاهدة .

ظل الملك الكامل يطمح في الاستيلاء على دمشق فحاصرها . وبعد قليل تمكن من الاستيلاء عليها . وعقد حلفا مع ابن أخيه الملك الناصر سنة ٦٢٦هـ — ١٢٢٨م فأعطى الناصر الكرك وأعمالها والسلطو والبلقاء ونابلس وأعمال القدس وبيت جبريل « بيت جبرين » بدلا من دمشق . فصار للملك الكامل فضلا عن مصر ودمشق ، الشوبك والجليل وطبريا وغزة وعسقلان والرملة واللد ، وما بأيدي المسلمين من الساحل .

وفي سنة ٦٣٦هـ — ١٢٣٨م مات الملك الكامل ، وتولى الملك بعده ولده الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل ، فاستولى هذا على أكثر البلاد التي كانت بيد الملك الناصر ، وفيها أعمال القدس . ولكن الملك الناصر داود ، عاد فتمكن من ابن عمه الملك الصالح ، فسنجنه ، واسترد هذه البلاد منه .

وفيما كان ملوك بني أيوب ، خلفاء صلاح الدين يقتتلون ، كان الفرنج يستعدون لقتالهم . وقد أشاد الفرنج في القدس قلعة ، وجعلوا برج داود احد أبراجها ، كان قد ترك لما دمر الملك المعظم أسوار القدس . فلما بلغ الناصر

داود بناء هذه القلعة ، سار الى القدس ، وظل يرميها بالمنجنيق ، حتى أخذها بعد واحد وعشرين يوما ، في ٩ جمادى الاولى ٦٣٧هـ - ١٢٣٩م ، أخذها عنوة ممن معه من عسكر مصر . وقد تحصن الفرنج في قلعة داود الى الخامس عشر من جمادى الاولى ، فعقد صلحا بينه وبين الفرنج آمنهم على انفسهم دون أموالهم . هدم الناصر برج داود واستولى على القدس بأجمعها ، وأخرج منها الافرنج فساروا الى بلادهم .

وفي نفس السنة ٦٣٧هـ - ١٢٣٩م أفرج الملك داود عن الملك الصالح نجم الدين ، وسارا معا الى القدس ، على أن يقسم كل منهما على الصخرة المقدسة ، بأن يخلص كل منهما للآخر . ولكنهما بعد حين عادا فاختلعا ، وراح الناصر داود « صاحب الكرك » يتفق مع الصالح اسماعيل « صاحب دمشق » لمحاربة الملك الصالح نجم الدين . ولكي ينجح في محاربتها له ، وافقا الفرنج بتسليم القدس ، على أن يكونوا عوناً لها على الملك الصالح نجم الدين . وسلماهم بالفعل طبريا وعسقلان ، فأشاد الفرنج قلعتيهما وحصونهما .

الخوارزمية

غادر الملك نجم الدين أيوب القاهرة واستدعى الخوارزمية الى ديار مصر لمحاربة أهل الشام . فقطع هؤلاء الفرات في طريقهم الى الشام ، سنة ٦٤٣هـ - ١٢٤٤م . وهم زيادة على عشرة الاف فارس ، وانضموا الى العساكر المصرية .

والخوارزمية ينتسبون الى بلاد خوارزم شرقي بحر قزوين ، وهم تتر ، وعندما هاجمهم المغول وأبادوا حكومتهم ، هاموا في البلاد يقتلون وينهبون . وظل جنكيز خان يطاردهم ، وهم ينهزمون من أمامه حتى وصلوا العراق . فسمع بهم الملك الصالح أيوب ، واستدعاهم لمحاربة الفرنج وبني عمه . فاتفقوا معه على شريطة أن تعطى لهم الاقطاعات ويسكنون البلدان .

وهجموا على القدس وعلى رأسهم مقاومهم الامير حسام الدين بركة خان ، وخان بردى وصاروخان ، وكشلوخان . وقاتلوا الفرنج وعساكر الشام ، فاحتلوا القدس . وكان الجيش الذي زحف على القدس بقيادة ركن الدين بيبرس ، فاعمل السيف في سبعة الاف من سكانها من النصاري حتى أفنوا الرجال ، وسبوا النساء والاولاد . وهدموا المباني التي في كنيسة القيامة ، ونهبوا قبور النصاري ، وأحرقوا ما أحرقوا .

ومن القدس ساروا الى غزة فنزلوها ، فأرسل اليهم الملك الصالح نجم الدين أيوب يأمرهم بالاقامة في غزة ، ووعدهم ببلاد الشام . وفي غزة التقى

الجمعان ، عسكر دمشق ومعهم ألفرنج ، وعسكر مصر ومعهم الخوارزمية . فكن النصر حليف الخوارزمية وعسكر مصر . وقتل من الفرنج وأهل الشام ما يربو على الثلاثين ألفا . وكانت هذه المعركة في سنة ٦٤٣هـ — ١٢٤٥م . وعادت القدس من أملاك الملك الصالح نجم الدين ، ثم استولى لاحقا على الخليل وغزة والسواحل .

زار الملك الصالح نجم الدين القدس سنة ٦٤٤هـ — ١٢٤٦م . فنصدق على فقرائها بألفي دينار . وأمر بذرع سورها ، فجاء بستة آلاف فراع بالهاشمي ، فامر والي القدس بعمارة السور ، وان احتاج الى زيادة في المال يرسل اليه من مصر .

يفيد المؤرخون ان الخوارزميين لم يبقوا على حال ، لقد حالفوا الملك الصالح أيوب أولا ، وأعانوه على فتح القدس . ثم قلبوا له ظهر المجن ، وراحوا يؤيدون الناصر داود صاحب الكرك ، والصالح اسماعيل صاحب دمشق ، وذلك لان الملك الصالح أيوب لم يف لهم بوعده ، ولم يعطهم الشام . ومهما يكن من أمر الخوارزميين ، فان الامير حسام الدين اشترك معهم في جميع المعارك التي خاضوا غمارها ، وظل يحارب حتى قتل في معركة حمص . فنقل رأسه الى حلب وجسده الى القدس . وكانت وفاته يوم الجمعة ١ محرم ٦٤٤هـ — ١٦ ايار ١٢٤٦م .

ان انهزام الصليبيين في موقعه غزة سنة ٦٤٢هـ — ١٢٤٤م واسيلاء المسلمين على القدس ، أثار غضب الصليبيين ، وفزع ملوك أوروبا كلهم . فرتبوا الحملة الصليبية السابعة . فوصلت هذه الحملة الى جزيرة قبرص — ٦٤٦هـ — ١٢٤٨م . وبعد انقضاء فصل الشتاء نزلوا في سواحل فلسطين . وكان على رأسهم ريدا فرنس الملقب « لويس التاسع » ، وكان هذا من أعظم ملوك الفرنجة واشدهم بأسا . وكانت الغاية من هذه الحملة إعادة احتلال بيت المقدس مرة ثانية .

عندما نزلت الحملة الصليبية السابعة على شواطئ فلسطين ، ارسل قائدها وزعيمها لويس التاسع كتابا في سنة ٦٤٧هـ — ١٢٤٩م ، الى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب طالبا منه تسليم القدس له ، ويهدده بشر المعارك ، فلما وصل الكتاب الى السلطان وقرئ عليه ، رد عليه بكتاب أشد منه ومتحديا .

دارت المعارك بين الفريقين في مصر ، وفي هذه الاثناء مات الملك الصالح نجم الدين غياث الدين نورانشاه . ولكن هذا الملك لم يحسن الادارة . فأهمل الامراء والاكابر وأبعد غلمان أبيه وقدم عليهم الارامل . وأساء الى الممالك وتوعددهم ، وانهك في الفساد ، فنفرت منه قلوب الممالك البحرية ، فتأمروا عليه وقتلوه في سنة ٦٤٨هـ — ١٢٥٠م . وبمقتله انقرضت دولة بني أيوب في مصر .

عهد المماليك

لما قتل الملك المعظم غياث الدين نورانشاه ، اجتمع امراء المماليك على ان ذلك الحادث ، واتفقوا على اقامة « شجرة الدر » ملكة على مملكة مصر ، فأصبحت هذه سيدة البلاد والامرة الناهية فيها . واقاموا « الامير عز الدين ايبك » التركماني قائدا عاما لجيشها .

وشجرة الدر هذه هي في الاصل جارية تركية ، وعلى قول بعض المؤرخين انها ارمنية ، اشتراها الملك الصالح نجم الدين ايوب ، فنالت عنده الحظوة الكبرى ، فسمها عصمت الدين ، ولقبت بام خليل وشجرة الدر . انها وان كانت تتمتع بهذه المكانة الممتازة في قصر الملك الصالح ، الا انها ما كانت لتحلم انها ستصبح الامرة الناهية في البلاد ، لولا مقتل الملك توتانشا . وبعد مدة قصيرة من اختيارها امرة البلاد ، تزوجت قائد جيشها الامير عز الدين ايبك . وتنازلت له عن الملك ، فأصبح ملكا ودعي باسم « الملك المعز عز الدين ايبك الجاشنكير التركماني » . ولكن هذه الامور لم ترضى الشام ولا بغداد . . وقد استنكرها الخليفة العباسي المعتصم بالله .

أسس ايبك العائلة المملوكية الاولى سنة ٦٤٨هـ - ١٢٥٠م . وعرف بلقب المعز . واختلف مع الملك الناصر يوسف بن العزيز محمد بن غازي بن السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب ، ملك دمشق وكان الخلاف يحوم حول سوريا . فراح الفريقان يقتتلان : مماليك مصر من ناحية والامراء الايوبيون في دمشق من الناحية الاخرى . وبقيت الحرب سجالا بينهما الى ان اصطلحا في سنة ٦٥١هـ - ١٢٥٣م . وكان الاتفاق أن يكون للمصريين بلاد مصر والاردن ، وللناصر ما وراء ذلك ، وان يدخل في حكم المصريين ، غزة والقدس ونابلس والساحل كله .

بعد مقتل الملك المعز ايبك ، تولى الملك ابنه المنصور علي بن ايبك التركماني سنة ٦٥٥هـ - ١٢٥٧م . وكان هذا صغير السن وضعيفا ، فاستغل رجال الشام ضعفه ، فخرجوا في حروب جديدة . فاحتلوا القدس وساروا الى غزة ومصر ، وفي مصر وقعت الحرب بين الفريقين في منطقة الصالحية ، فكان النصر حليف المصريين .

لما هزم جيش الشام ارتد راجعا من حيث أتى ، اعتقد المماليك أن خصومهم ما كانوا ليجرأوا على التحرش بهم ، رغم الاتفاق السابق ، لولا ضعف ملكهم .

فخلعوه في سنة ٦٥٧هـ - ١٢٥٩م ، واقاموا مكانه الامير سيف الدين قطز المعزي ، وهو أحد مماليك المعز ايبك ، ولقبوه بالملك المظفر ، وقد عرف هذا بالشدة والصرامة والاقدام .

وبعد عام قتل الملك المظفر على يد قائد جيشه بيبرس . وقيل ان السبب في ذلك هو أن الملك وعده بولاية حلب تم استرد وعده ، فاضمر له الشر . فقتله وتولى الملك بعده في ١٩ ذي القعدة ٦٥٨هـ - ١٢٦٠م . ولقب بالملك الظاهر بيبرس . وهو تركي الاصل اشتراه الملك الصالح نجم الدين ايوب ورقي في مناصب الدولة حتى أصبح ملكا .

كان أول عمل قام به الملك الظاهر بيبرس بعد ان تولى الملك . الغاء جميع الضرائب التي احدثها سلفه ، وتعمير البلاد التي دخلت تحت حوزته . وقد حكم فلسطين حكما عادلا ، وطارد من بقي فيها حتى ذلك الحين من الصليبيين . وقاوم جيوش التتار ، وصدهم عن فلسطين وأهتم بالاماكن المقدسة وعمرها . وكانت زيارته الى بيت المقدس يوم الجمعة ١٧ جمادى الآخرة سنة ٦٦١هـ - ١٢٦٢م ، ونادى في القدس الا ينزل احد في زرع ، وكل من خالف كان يسجن .

ولقد زار الملك الظاهر بيبرس القدس مرة ثانية في شعبان من سنة ٦٦٤هـ - ١٢٦٥م . وقد اقام عدة تعميرات في القدس في زيارته هذه . ومن صفات الظاهر أنه كان يشجع العلم ، ويكرم العلماء ، فكانت القدس في عهده مأوى العلماء .

مات الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٧٦هـ - ١٢٧٧م ، بعد ان ملك مصر والشام سبع عشرة سنة . كان يحسب القدس كثيرا ، وقد نزلها . وكان عدد عسكره اثني عشر الفا انتقاهم من اشجع الرجال وأمهرهم في القتال ، وزرع ثلثهم بدمشق وثلثهم في حلب . وقد كان هذا الملك كثير السفر ، خفيف الحركة ، لا تفوته كبيرة ولا صغيرة من أمور رعيته وبابه مفتوح لكل شكوى .

تولى الملك ، بعد الملك الظاهر ، ابنه الملك السعيد ناصر الدين محمد سنة ٦٧٦هـ - ١٢٧٧م ، ثم ابنه الثاني الملك العادل بدر الدين سلامش سنة ٦٧٦هـ - ١٢٧٩م . ولم يفكر التاريخ أنها قاما بعمل يذكر في القدس . وقد ترك الملك كلاهما خلفا ، فتولاه من بعدهما الملك المنصور سيف الدين قلاوون سنة ٦٧٩هـ - ١٢٨٠م وكان يلقب بالصالح الفسي .

في يوم الخميس ، الخامس من شهر ربيع الاول من سنة ٦٨٣هـ - ٣ يوليو (تموز) ١٢٨٣م ، قامت هدنة بين السلطان الملك المنصور قلاوون وبين

الفرنج بعك . وكانت عكا وعتيت في ذلك الحين ، من بقايا المملكة اللاتينية في القدس وملكها في تلك السنة شارلس أوف انجو Charles of Anjou وكانت مدة تلك الهدنة : عشر سنين وعشرة شهور وعشرة أيام وعشر ساعات . على أن يكون للسلطان الملك المنصور وولده البلاد البالية :

« مملكة الديار المصرية ، والبلاد الحجازية ، وتغر غزة المحروس وما معها من الموانئ والبلاد ، والمملكة الكركية « نسبة الى الكرك » والشوبكية والسلط وبصرى ، ومملكة القدس الشريف ، وعسقلان وأعمالها وموانئها وسواحلها . ومملكة يافا والرملة وقيصرية وبيت جبريل « بيت جبرين » ومملكة نابلس وأعمالها ، ومملكة اللطرون وأعمالها ، وأرسوف ، وقاقون واللد والعوجا وما معها من الملاحه ، وبيسان والطور واللجون وأعمالها ، وجنين وعين جالوت ، والمملكة الصفدية ، والنصف لمملكة عكا ، والمملكة الدمشقية ، ومملكة حمص ومملكة حماة ، والمملكة الحلبية . وأما القسم الباقي من البلاد ، فاما أن يكون قد نرك للفرنج كله ، او تقاسمه الفرنج مع السلطان » .

بعد وفاة الملك المنصور قلاوون تولى الملك ابنه السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل ، سنة ٦٨٩هـ - ١٢٩٠م ثم ابنه الثاني السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، سنة ٦٩٣هـ - ١٢٩٤م ثم السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري المعروف بالصفير ، سنة ٦٩٦هـ - ١٢٩٦م . وبعد مقتل الملك المنصور لاجين ، تولى الملك للمرة الثانية ، الملك الناصر محمد بن قلاوون ، سنة ٦٩٨هـ - ١٢٩٨م ، ثم تسلط الملك المظفر ركن الدين بيبرس الحاشنكري المنصوري ، سنة ٧٠٨هـ - ١٣٠٨م . ثم عاد الملك الناصر بن قلاوون للمرة الثالثة سنة ٧٠٩هـ - ١٣٠٩م . ودامت سلطته في هذه المرة حتى سنة ٧٤١هـ - ١٣٤١م .

لم يخل عهد الملك الناصر ، على ما وصل اليه من عز ، من غتن داخلية ، ذكرت في كتب التاريخ . وفي عهده قويت شوكة التتر ، واخذ قائدهم « غازان » يعيث في البلاد فسادا ، وراح جنوده في القدس وفي الكرك وغيرها ينهبون ويعتدون على الامراض ، وحتى الاماكن المقدسة لم تسلم من اذاهم .

بعد وفاة الملك الناصر محمد بن قلاوون ، تسلط بعده ثمانية من اولاده خلال عشرين سنة من ٧٤١هـ - ٧٦٢هـ ١٣٤١م - ١٣٦١م . فلم يأت واحد من هؤلاء بأي عمل يذكر ، لا في القدس ولا في غيرها من البلدان . اذ ما كان الواحد منهم ليتولى الملك ، حتى يقدم اخوه عليه او احد اقاربه ، فيقتله او يقيه او ينفيه ، وينتزع السلطة من يده .

كذلك الحال في عهد المماليك الذين تسلطوا بعدهم من سنة ٧٦٢هـ - ١٣٦٠م حتى سنة ٧٨٣هـ - ١٣٨١م وكان الملك الصالح حاجي بن شعبان هو آخر من حكم دولة المماليك الاولى المسماة بالبحرية والتركمانية .

دولة المماليك الثانية

ان مؤسس دولة المماليك الثانية « ويسمونهم المماليك الابراج او الشراكسة » ، وهو الملك الظاهر برقوق ، بعد ان قضى هذا على دولة المماليك الاولى « البحرية » . والشراكسة كانت منازلهم في سييرية حول بحيرة « بايقال » فهجروها . واستوطنوا بلاد القفقاس اولاً وبلاد الشركس . ثم استقدمهم المموك . واكثر من استخدمهم العباسيون وبنو أيوب والمماليك البحرية ، فتقووا عليهم وقضوا على سلطانهم .

تولى الملك الظاهر برقوق الحكم في سنة ٧٨٤هـ — ١٣٨٢م ، غاقره الخليفة المتوكل على الله . ودام في دست الحكم سبعة عشر عاماً ، تمكن خلالها من ايقاف قائد القتر المشهور تيمورلنك عند حده . وتسلم بعده خلفائه من سنة ٨٠١هـ — ٨٢٥هـ / ١٣٩٨م — ١٤٢٢م . وفي عهدهم لم يقع شيء يذكر بالنسبة للقدس وما حولها .

اما الملك اشرف برسبلي ، الذي بويغ بالسلطنة بعد خلع الملك الصالح محمد سنة ٨٢٥هـ — ١٤٢٢م ، فقد دام على سرير الملك ستة عشر عاماً ، قام خلالها بانشاءات عديدة في القدس . وخلفه الملك العزيز يوسف بن برسبلي سنة ٨٤١هـ — ١٤٣٧م ، ثم خلفه الملك الطاهر جقمق سنة ٨٤٢هـ — ١٤٣٨م وقد ذكر عنه الانس الجليل ، الحادث التالي :

« ارسل الى القدس ، يطلب من الشيخ محمد المشمر أحد جماعة الشيخ شهاب الدين بن ارسلان خاسكيا اسمه « اينال باي » ، وزوده بأمر ملكي لكي يكشف على الديورة « ويعني بهذه الكلمة الاديرة جمع دير » ، فهدم ما استجد بدير صهيون وغيره . وانتزع قبر داود من أيدي النصاري ، ونبشت عظام الرهبان المدفونين بالقرب من النبي داود . وكان ذلك في يوم الاثنين الموافق ١٢ جمادى الآخرة سنة ٨٥٦هـ — ١٤٥٠م وفي تلك السنة وقع البطش في النصاري ، وأخرج المسجد من دير السريان ، وسلم للشيخ محمد المشمر ، وصار زاوية . وهدم البناء المستجد في بيت لحم ، وقلع الدرايزين المستجد بالقمامة ، وأخذ الى المسجد الاقصى بالتهليل والتكبير ، وهدم كل ما استجد من بناء في اديرة النصاري » .

تولى بعد الملك الظاهر جقمق الملوك الآتية اسماؤهم :

١ — ابنه الملك المنصور عثمان سنة ٨٥٧هـ — ١٤٥٣م .

٢ — الملك اشرف اينال سنة ٨٥٧هـ — ١٤٥٣م .

٣- الملك المؤيد احمد بن اينلي سنة ٨٦٥هـ - ١٤٦٠م .

٤- الملك الظاهر خورشيد بن سنان سنة ٨٦٥هـ - ١٤٦٠م . وعلى عهد هذا الملك بدى بتعمير « قناة السبيل » التي تصل ماء العروب الى القدس في سنة ٨٦٧هـ - ١٤٦٢م ، ولكنه مات قبل ان يتم تعميرها . وأمر بإبطال المظالم في القدس ، ونقش بذلك رخامتين الصقتا على حائط المسجد الأقصى من جهة الغرب .

٥- الملك الظاهر يلباي ، سنة ٨٧٢هـ - ١٤٦٧م ، فأراد هذا ان يتبسم مشروع مد قناة ماء عين العروب ، الذي بدأ به الملك الظاهر خورشيد ، لكنه لم ينجح .

٦- الملك الظاهر تميم ، سنة ٨٧٢هـ - ١٤٦٧م ، فأراد ان يتم مشروع قناة العروب أيضا ، ولكنه ما لبث ان عزل .

٧- السلطان الملك الاشرف قايتباي سنة ٨٧٢هـ - ١٤٦٧م ، ودام في الملك قرابة ثلاثين عاما . وكان هذا من ممالك الاشرف يرسباي ، ثم انتقل الى خدمة الملك الظاهر جقمق فاعتقه ، « أي أصبح حرا وليس عبدا بعد » . وقد بويج له بالسلطنة بحضرة أمير المؤمنين المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن محمد العباسي ، ولقب بالملك الاشرف سيف الدين أبو النصر قايتباي بن عبد الله الظاهري . وكان يلقب بخادم الحرمين الشريفين ، المسجد الأقصى بالقدس والمسجد الابراهيمي في الخليل ، كان يحب القدس كثيرا ، وله فيها أصدقاء ، ذلك انه قضى فيها قبل ان يتولى السلطنة ، زهاء خمسة أعوام ، قضاه منفيًا مفضوبا عليه من السلطان ، حيث كانت القدس في ذلك الحين منفي لكل من غضب عليه سلطان أو ملك . وكان رفيقه في النفي الأمير يشبك الفقيه . وقد حظر عليه يومئذ ركوب الخيل ، والاختلاط بالمسلمين .

زار السلطان قايتباي القدس في يوم الاثنين « ١٧ رجب سنة ٨٨٠هـ - ١٤٧٥م . فشكا اليه أهل القدس ما يلاقون من ظلم وجور من نائبه فيها ، الأمير جارقطاي الظاهري ، فانصفهم وأمر بأن يرد اليهم كل ما أخذوه منهم ، سواء عن طريق الرشوة أو غير ذلك . كذلك شكوا اليه أيضا من القاضي غريس الدين خليل ، فنفاه من القدس .

وفي سنة ٨٨١هـ - ١٤٧٦م ، أمر السلطان بالقبض على الرهبان المقيمين في أديرة صهيون وبيت لحم وكنيسة القيامة ، فأرسلوا الى مصر ، وأمسكوا بالاقامة الجبرية فيها ، ذلك ان الافرنج أسروا أربعة أشخاص من مسلمي الاسكندرية ، وأخذوهم الى بلادهم .

لم يكن الوضع الدولي افضل من الوضع الداخلي في تلك الايام . فعند حدثنا التاريخ ان صلات الممالك بالحكومات المجاورة كانت عند مطلع القرن

العاشر للهجرة سيئة للغاية . ولا سيما صلحهم مع الاتراك العثمانيين . فقد بدأ الخلاف بين الدولتين في سنة ٨٨٩هـ — ١٤٨٤م . فراح كل واحدة منهما تحشد جيشها على حدودها ، لقتال جارتها : هنا السلطان الملك الاشرف قايتباي ، وهناك السلطان بايزيد خان . وكان المقدم على عسكر السلطان قايتباي ، أمير السلاح الأمير تموراز . وقد انضم اليه أمير جانم .

لم تجر أية مناوشة بين الفريقين لا في تلك السنة ، ولا في السنين الأربع التي تلتها . حتى إذا ما حلت سنة ٨٩٣هـ — ١٤٨٧م ، ورأى السلطان قايتباي أن الأحوال توترت ، اعزم الدخول في حرب مع الاتراك فبعث الرسل وبذل الأموال الوفيرة لاقتناع الناس ، ولكن إذ لم يتطوع من سكان البلاد سوى عدد ضئيل . حتى أنه قرر أن يسترجع من الناس ما أنفقه في هذا السبيل . واستعمل من أجل ذلك منتهى الشدة والصرامة .

وفي سنة ٨٩٥هـ — ١٤٨٩م اشتدت الازمة بين البلدين ، حتى اضطر السلطان قايتباي أن يصدر أمره لقادة جيشه أن يكونوا على أهبة الهجوم . ولكن الأمور هدأت والمياه عادت إلى مجاريها في سنة ٨٩٦هـ — ١٤٩٠م . واصطاح الفريقان .

عاش الملك قايتباي بعد مصالححة الدولة العثمانية خمس سنوات . ولما توفي في سنة ٩٠١هـ — ١٤٩٥م ، سادت الفوضى البلاد ، ودامت خمس سنوات . فلا يكاد يعتلي العرش ملك ، حتى يثور ضده مماليكه وأعوانه ، ليخلصوه أو يقتلوه .

وكان آخر ملوك دولة المماليك الثانية الملك الاشرف قنصوه الغوري « قنصوه الرابع » الملقب بالغوري استلم السلطة ، سنة ٩٠٦هـ — ١٥٠٠م ، ودامت سلطنته ١٥ عاما ويزيد . إلا أنه اقترف خطيأ بأن رحب بـ « قورقود » . نسقيق السلطان سليم بن يزيد سلطان بني عثمان في تركيا . وكان هذا الشقيق قد اختلف مع أخيه السلطان سليم من أجل الملك ، ففر منه والتجأ إلى مصر ، على الطريقة التي نسميها في وقتنا الحاضر « باللاجوء السياسي لبلد ما » لم يكتف قنصوه الغوري بالترحيب « بقورقود » ، بل جهزه بعشرين بارجة بحرية ، لافتتاح القسطنطينية . هذا الأمر أغضب السلطان سليم ، وجعله يفكر في افتتاح مصر لينتقم من أخيه ومن السلطان قنصوه . فجهز حملته في سنة ٩٣٢هـ — ١٥١٦م . فسار إلى مصر . وكانت أول معركة في برج دابق قرب حلب هزم فيها المماليك وقتل سلطانهم قنصوه الغوري .

عندما وصلت هذه الأنباء إلى مصر ، بايع المماليك الأمير طومان باي بالملك ، ولقبوه بالملك الاشرف . وحاول هذا الملك أن ينقذ البلاد من غزوة الاتراك

العثمانيين ، الا انه فشل فاحتل هؤلاء مصر ، بقيادة السلطان سليم الاول سنة ٩٣٣هـ - ١٥١٧م ، فوقع الملك طومان باي في يد السلطان سليم وشنقه في مصر . وبذلك انتهت دولة المماليك الشراكسة او البرجية ، وحلت مكانها دولة الاتراك العثمانيين .

وهكذا اتسعت دولة الاتراك العثمانيين وشملت سوريا ولبنان وفلسطين ومصر منذ تلك السنة . واستمرت الدولة العثمانية في توسع واصبحت صاحبة الخلافة للمسلمين ، واستمرت في تلك البلاد لمدة اربعة قرون ، حتى نهاية الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٨م .

وعليه سيكون بداية الجزء الثاني من كتابنا هذا من العهد العثماني بديئاته وحسناته وانعكاساته على وطننا .

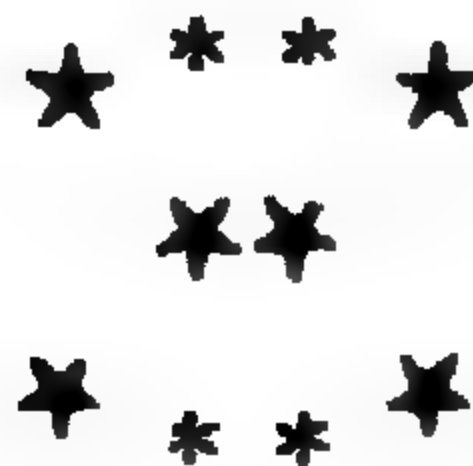
مصادر الكتاب
أهم المصادر العربية

- ١ — التوراة — العهدان القديم والجديد
- ٢ — كتاب تاريخ الكنيسة الارثوذكسية
تأليف خليل ابراهيم قزاقيا
طبع بمطبعة المقتطف والمقطم بمصر سنة ١٩٢٤ م .
- ٣ — كتاب الفصل في تاريخ القدس — الجزء الاول
تأليف عارف العارف
مطبعة المعارف — القدس — سنة ١٩٦١ م .
- ٤ — كتاب في التاريخ العباسي والفاطمي
تأليف الدكتور احمد مختار العبادي
استاذ التاريخ الاسلامي بجامعة بني الاسكندرية وبيروت العربية
مطبعة النهضة — بيروت — سنة ١٩٧١
- ٥ — كتاب الى جبل الرب ... الى جبل سيناء ...
تأليف الاب الفرنسيكاني — جيراثيل بريسر
طبع بمطبعة الاباء الفرنسيكان — القدس — سنة ١٩٧٥



اهم المصادر الانكليزية

- 1 — Structural Survey of the Holy - Land Church of Nativity Bethlehem
1935 — University Press
London - Hamphecy - Milford .
- 2 — Costodia Di Terra Santa
Francescan Press — Jerusalem - 1951 .
- 3 — The Franciscan in Bethlehem
1347 — 1947
Francescan Press — Jerusalem — 1947
- 4 — Bethlehem
By Maria Teresa Peltrouzi
Francescan Press — Jerusalem — 1971
- 5 — Chronological Work Through Bethlehem .
Francescan Press — Jerusalem — 1981
- 6 — Custody of the Hody - land
Francescan Press — Jerusalem — 1981



بيان المواضيع الجزئية من هذا الكتاب

يحتوي الجزء الثاني من كتابنا هذا على تفصيلات واسعة واخبار لم تنشر قط في اللغة العربية ، ومعظمها ينشر لأول مرة ، عن المواضيع التالية :

١ — تاريخ الاءاء الفرنسيكان في فلسطين من سنة ١٣٤٢م حتى يومنا هذا، وما لحقهم من اضطهاد ومضايقات في عهد المماليك وسلاطين بني عثمان . وقد جاء فكر هؤلاء الاءاء في فرماتات السلاطين باسم (رهبان الحبلى) ، وما اسسوه من دور لنزول الحجاج ، فكانت نواة فنادق السياحة في بلادنا ، بالاضافة الى العيادات لمعالجة المرضى والمدارس والميائتم .

٢ — تاريخ الاءاء الفرنسيكان في بيت لحم من سنة ١٣٤٧ م حتى يومنا هذا ، وما اسسوه فيها للاولاد والبنات ، وفي طليعتها مدرسة الاولاد التي كانت تعلم العربية واللغتين الايطالية والفرنسية في وقت كانت الامية منتشرة في سائر الشرق . وكيف تطورت تلك المدرسة الابتدائية حتى اصبحت حاليا ما يعرف باسم كلية نراسنطة . هذا بالاضافة الى بعض العيادات الطبية المجانية . وما ادخلوه الى البلاد من صناعة الصندف وخشب الزيتون وغيرها التي نراها مزدهرة في يومنا هذا في بلادنا .

٣ — عهد سلاطين بني عثمان في بلادنا من سنة ١٥١٧ — ١٩١٨ م ، وما جرى في عهد كل منهم في بلادنا ، وكيف كانت تدار البلاد من قبل الحكام الاتراك ومظالمهم للشعب واغتصابهم ونهبهم لخيرات بلادنا واقوات الناس .

٤ — عهد نابليون بونايرت في بلادنا او حصاره الى عكا وارتياده عنها . ولماذا لم يحتل القدس كما توقعت ذلك تركيا .

٥ — عهد نابليون الشرق ، ابراهيم باشا ، من سنة ١٨٣١ — ١٨٤١ ، ابن محمد علي باشا والي مصر . ذلك القائد المحارب الذي قاد جنودا لا يقيمون للموت وزنا ، ولا يقف في طريقهم اشجع الجنود ولا القلاع والحصون . فهزم الجيوش التركية ودحرهم من فلسطين والشام وطاردهم حتى حدود بلادهم « الاناضول » فعبرها وراح يحتل مدنهم الواحدة تلو الاخرى واسر قائد الجيش التركي المدعو سعيد باشا .

هذا الاكتساح الذي حققه ابراهيم باشا ، ازعج كافة دول اوروبا وعلى

رأسهم انكلترا تلك الدولة التي كان يلقب كل ملك او ملكة جلس على عرشها ، بلقب ملك بريطانيا العظمى وامبراطور الهند، والبلاد التي لا تغيب الشمس عن مستعمراتها ، فكانت مستعمرات بريطانيا العظمى ، تشمل القارة الهندية بأكملها واستراليا وكندا وغيرها من المستعمرات في افريقيا . وقد تقلصت هذه الامبراطورية بعد الحرب العالمية الثانية الى ما هي عليه اليوم ، واصبح ارتباطها بمستعمراتها ارتباطا اسميا ، يسمى برابطة الشعوب البريطانية .

وقد وقفت انكلترا علنا ويكل قوائنها واساطيلها الى جانب تركيا في نضالها ضد محمد علي باشا وابنه ابراهيم باشا، لانها كانت تخشى توسع سلطانهم وامتداده الى العراق وبلاد العرب الاخرى وبلاد فارس ، فيهدد المستعمرات والمصالح البريطانية . فعملت انكلترا جاهزة حتى استمالت بروسيا (المانيا) والنمسا الى جانبها . وكانت كل من هاتين الدولتين في ذلك الزمان ، دولة عظمى لها وزنها الكبير على الصعيد الدولي . ثم انضمت الى هذا التحالف دولة فرنسا ، فارسل الجميع انذارا مشتركاً الى ابراهيم باشا لاخلع سوريا وفينيقية « لبنان » وفلسطين وارجاعها الى السلطان العثماني ، فرجعت بلادنا تحت حكم الاتراك، وتعرض الاهالي لشتى صنوف الاضطهاد والظلم حتى نهاية الحرب العالمية الثانية سنة ١٩١٨ .

حاول ابراهيم باشا ، في بادئ الامر، الا يكثر الى هذا التهديد ، لكنه بعد انعام النظر من كل الجوانب ، رأى انه لا فائدة ترجى من مقاومته هذه الدول الكبرى مجتمعة ، وخصوصا ان هذه القوى التي تالبت ضده من البر والبحر كبيرة جدا ، والبلاد التي تخضع لحكمه واسعة وممتدة الاطراف ، ولها من السواحل البحرية امتداد طويل جدا ، يصعب الدفاع عنها امام هذه الاساطيل الضخمة . واخيرا تم الصلح بين محمد علي باشا والي مصر والدولة العثمانية في ٢٥ نيسان سنة ١٨٣٢م. على ان تكون البلاد الواقعة من مدينة اطنة على حدود الاناضول وجنوبا حتى حدود ولاية غزة ، تابعا ولاية مصر . وبهذا دخلت فلسطين تحت حكم البيت العلوي حتى سنة ١٨٤١ م .

ثم تقرا جولات واسعة عن اعمال ابراهيم باشا في بلادنا والثورات التي قامت ضده بتحريض من الخارج من جهة ، ومن رؤساء العائلات الاقطاعية والعشائر من الداخل ، الذين تقلص نفوذهم وسيطرتهم على الناس بموجب قوانين المساواة التي سنها ابراهيم باشا في فلسطين . واخيرا كيف اضطر ابراهيم باشا للانسحاب الى مصر في عام ١٨٤١ م .

٦ - الارشاليات الاجنبية في بلادنا مع فصل عن كل منها :

الارشالية الانجليزية ، الالمانية ، البروسية ومنشاتها من مدارس وملاجئ ايتام وغيرها .

٧ - تاريخ تأسيس القنصليات الاجنبية في القدس : القنصلية البريطانية والقنصلية الفرنسية والقنصلية النمساوية والقنصلية الامريكية ، والقنصلية الالمانية .

٨ - دير ابينا انطون ، ابي اليتامي في بيت لحم :-

هو الاب انطون بلوني الذي قدم الى القدس في سنة ١٨٥٩ م ، فانضم الى سلك كهنة البطريركية اللاتينية فسي القدس ، وعين لتدريس الكتاب المقدس وعلم اللاهوت ، في المدرسة الاكثريكية في بيت جالا وكان عمره ٢٨ سنة . وتوفي ودفن في بيت لحم في ٩-٨-١٩٠٣ ، عن عمر يناهز ٧٢ عاما ، قضى منها ٤٦ عاما كاهنا ، و ٤٤ سنة مقيما في فلسطين .

لما شاهد حالة الفقر والبؤس والجهل الذي يعم الناس في بلادنا . ففكر في العناية ببعض اليتام ، واتسع به الامر حتى تضاعف عدد ايتامه خلال سنوات قليلة . فجال أوروبا وأمريكا طلبا للاحسان واشاد الميتم المعروف باسمه في بيت لحم . واتسع هذا الميتم مع مرور السنين حتى صار يضم اول مدرسة صناعية في الشرق بالاضافة الى فرقة موسيقية وفرقة تمثيل كانت هي ايضا الاولى من نوعها في الشرق . واشترى اراضي واسعة في بيت جمال وبنى فيه دير بيت الجمال واصبحت او مدرسة زراعية في الشرق .

وفي سنة ١٩٠٣ ، لما انتقل الى رحمته تعالى كان قد اسس ديريه الحالي في بيت لحم على مساحة ارض تساوي نصف مساحة مدينة بيت لحم في ذلك الحين . بالاضافة الى دير كريمزان في بيت جالا ومصنع التبيذ المشهور حتى يومنا هذا منذ سنة ١٨٨٢ م . ودير بيت الجمال ومدرسته الزراعية الشهيرة . ومدرسته الصناعية في بيت لحم التي استمرت في التطور حتى أصبحت في يومنا هذا من ارقى واشهر مدارس الصناعة لتعليم الكهرباء والخرائط والحدادة والنجارة وغيرها . فأخرجت هذه المدرسة خير المهنيين في عهد حكومة الانتداب على فلسطين ، بالاضافة الى افواج متعددة من المهنيين تخرجوا خلال الثلاثين سنة الماضية ، اشغلوا ادق المراكز المهنية في شركات البترول والمشاريع الاخرى في سائر اقطار الخليج العربي والبلاد العربية .

ان تاريخ هذا الاب الفاضل منذ قدومه الى فلسطين حتى وفاته ، قطعة كاملة لتاريخ بيت لحم وحالة اهلنا في النصف الاخير من القرن الماضي . وقد توفرت لدينا الكثير من هذه الاخبار المهمة . اشغلت عشرات الصفحات من الجزء الثاني من كتابنا هذا .

وكذلك اسس اول النوادي للعمال والطلاب في بيت لحم ، واول الملاعب العامة لتسلية الشبيبة ، التي خرجت طليعة الرياضيين في بلادنا . وكان لنشوب

الحرب العالمية الاولى السبب المباشر لهجرة هذه النخبة الفاخرة من شبابنا الى الديار الامريكية .

٩ — تاريخ دير الكرمل في بيت لحم — ومؤسسته الراهبة العربية الفلسطينية الامية ، مريم جورج البواردي ابنة قرية عبلين ، قضاء عكا . تلك الاعجوبة التي فاقت كل اسطورة ، فرسمها البابا بعد انقضاء مائة عام على وفاتها في بيت لحم ، قديسة بتاريخ ١٣-١١-١٩٨٤م . اقتطعت تاريخ حياتها عن كتاب بالفرنسية مؤلفه مرشدها الروحي الاب بوزي . فمثل ذلك الكتاب أدق اسرار حياة تلك المتعبدة البارة .

١٠ — تاريخ كنيسة الروم الكاثوليك في بيت لحم ، تلك الكنيسة التي كان مصدرها خلاف بين عائلة من طائفة الروم الارثوذكس في بيت لحم مع البطريرك في القدس عندما وعد بأن يكون المختار منهم ، ثم جاء التعيين لمختار من عائلة ثانية .

١١ — فصل عن كنيسة السريان الارثوذكس وكنيسة السريان الكاثوليك في بيت لحم .

١٢ — المستشفى الافرنسي في بيت لحم او مستشفى راهبات المحبة كما كان يسمى في حينه حتى منتصف القرن الحالي ، واقامة الجنرال ويجول فيه سنة ١٩٤١ م .

١٣ — دير ارطاس وراعيه الاب البندك الصديق الحميم لجمال باشا قائد الجيوش التركية في فلسطين والشام ، الذي اتخذ من يساتين قرية ارطاس قرب بيت لحم مستجما له لسنوات طويلة . وكيف وكل اهالي ارطاس الاب عيسى بندك ليقوم دعوى باسمهم ضد حكومة فلسطين ، عندما قررت سحب مياه عين ارطاس الى القدس ، وكيف استأنف الحكم الى مجلس الملكة في لندن .

١٤ — اخوة المدارس المسيحية « الفرير » في فلسطين ومدارسهم فيها .

١٥ — جامعة بيت لحم ، كيف تأسست وكيف شقت طريقها رغم تنكسر المسؤولين العرب لها سنوات طويلة ، قبل ان استجابوا للاعتراف بها قبل سنتين فقط . ومواضيع اخرى كثيرة سنقدمها للقراء الكرام في الجزء الثاني من كتابنا هذا ، بمشيئة المولى وتوفيقه .

الفهرس

٣	الاهداء
٥	المقدمة

الفصل الاول

٨	بيت لحم قبل الميلاد
١٨	شرق الشمس في بيت لحم
١٩	نشاط المزارع البيتلحمي
٢٢	انتشار الاديرة والرهينة في بيت لحم

الفصل الثاني

بيت لحم في الكتب المقدسة

٢٣	النبي زكريا
٢٥	يوحنا المعمدان
٢٨	الملك هيرودس
٣١	العذراء مريم
٣٢	بشارة العذراء
٣٥	قصة الميلاد
٤٠	احتفالات عيد الميلاد في بيت لحم

الفصل الثالث

الاماكن المقدسة في بيت لحم

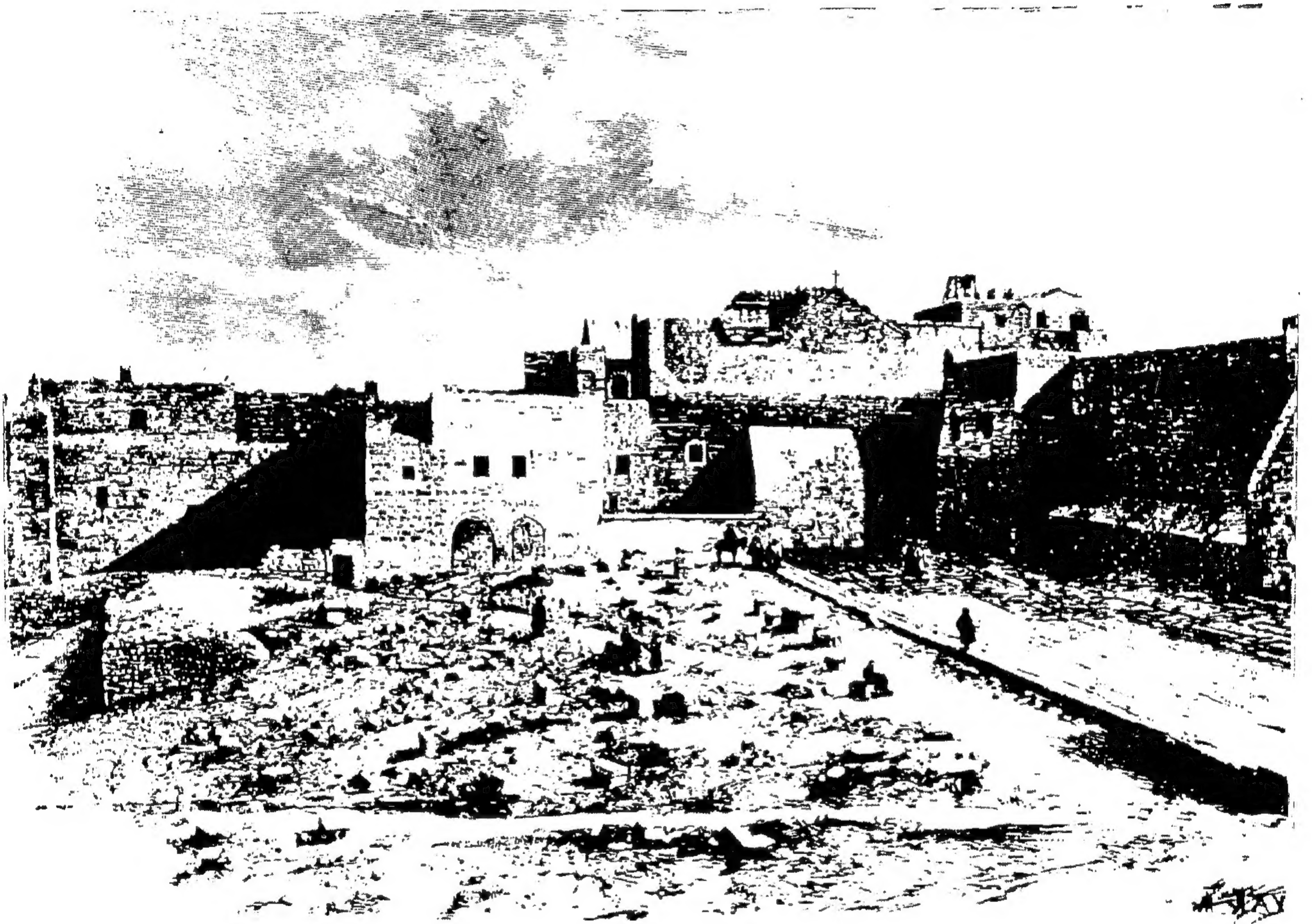
٤٥	المباني حول كنيسة المهد
٤٧	كنيسة المهد عبر التاريخ
٥٣	كنيسة المهد في الوقت الحاضر
٦٢	مغارة المهد عبر التاريخ

٦٦	مغارة المهد في الوقت الحاضر
٦٩	مغارة جيروم في بيت لحم
٧٢	رواق القديس جيروم
٧٥	كنيسة القديسة كاترينا
٧٩	القديسة كاترينا
٨١	مغارة الحليب
٨٣	كنيسة القديس يوسف
٨٤	كنيسة حقل الرعاة
٨٦	ابار النبي داود
٨٨	قبر راحيل
٩١	بدابة عهد الاديرة في فلسطين
٩٢	دير مار سابا
٩٥	دير القديس ثيودوسيوس
٩٧	عرب العبيدية
٩٨	بئر قاديسمو
١٠٠	دير مار الياس
١٠٢	دير الطنطور
١٠٣	قوس الزرارة
١٠٤	الباب الصغير القديم
١٠٥	الباب الصغير حاليا
	الفصل الرابع
١٠٦	انتشار المسيحية في فلسطين
١١١	ثورة السامريين
١١٢	غزوة الفرس
١١٥	الفتوحات العربية

١٢٥	العهد الاموي
١٢٩	العهد العباسي
١٣٢	الدولة الطولونية
١٣٣	الدولة الاخشيدية
١٣٥	منشأ الدولة الفاطمية
١٣٨	العصر الفاطمي الاول
١٤٧	دولة السلجوقيين
١٤٩	حياة المسيحيين بعد الفتوحات الاسلامية

الفصل الخامس

١٥٨	الحروب الصليبية
١٦٤	المملكة اللاتينية في القدس
١٦٩	احتلال الصليبيين لبيت لحم
١٧١	استقية بيت لحم
١٧٤	عهد صلاح الدين الايوبي
١٨١	عهد خلفاء صلاح الدين
١٨٨	عهد المماليك
١٩٥	مصادر الكتاب بالعربية
١٩٦	مصادر الكتاب بالانكليزية
١٩٧	بيان مواضيع الجزء الثاني من هذا الكتاب



كنيسة المهد في سنة ١٧٠٠ ميلادية